جمعــة .. أوأحــد ..

من المعلوم ان هناك سورة فى القرآن ، سميت سورة الجمعة ، وفيها وردت آيتان بخصوص هذا اليوم المبارك :

1 ـ « يا ايها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » .

2 ـ « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله» صدق الله العظيم.

ومن هنا يتضح أمران :

أ) ان وقت صلاة الجمعة لا بد فيه من التوقف عن العمل لادائها .

ب) انّ الاسلام لا يطالبنا بيوم كامل كعطلة اسبوعية . ولكنه اذا كان لا بد من مراعاة يوم كامل . فالمنطق ، والتاريخ . والذوق السليم . والحشمة . والاحترام لانفسنا . كل ذلك يفرض علينا ان يكون يوم العطلة ـ اذا كان لا بد من عطلة يوم كامل ـ بيوم الجمعة .

وفى حديث للبخارى : « هدانا الله ليوم الجمعة . والناس لنا تبع : اليهود غدا والنصارى بعد غد » .

وفعلا ، فمنذ البخارى وقبل البخارى حتى اليوم وجميع اليهود فى العالم ، اينما كانوا . فى ترينيداد وتوباغو أو فى رأس الخيمة . فى موسكو أو واشنطن . فى الجزائر أو كوستاريكا ، يراعون يوم السبت كعطلتهم الاسبوعية . مع ظهرية الجمعة . كما ان جميع المسيحيين اينما كانوا فى العالم . فى روما أو باريس أو الجزائر أو برلين . بغربها المسيحى وشرقها الشيوعى ، فى واشنطن أو موسكو . وفى جميع البلدان الشيوعية يراعون يوم الاحد كعطلتهم الاسبوعية . مع ظهرية السبت .

وكذلك كان الوضع عند المسلمين . وعندنا فى الجزائر خاصة . حتى سنة 1830 كما اشارت الى ذلك بعض الجرائد الفرنسية الكبرى منذ أشهر !

ومنذ 1830 وعطلة الاسبوع عندنا بيوم الاحد عوض الجمعة ، أى اصبحت فرنسية كغيرها من مظاهر الحياة القومية واليومية ...

وكان ينبغى ان يصحح الوضع فى هذه النقطة بالذات منذ استرجاع الاستقلال والسيادة سنة 1962 . وهى لا تكلفنا كثيرا . ولا قليلا . ولا تتطلب اطارات ومتعاونين ، ولا رؤوس اموال !

وقد فعلت ذلك جميع البلدان العربية . من ليبيا ومصر حتى الخليج . وبعض البلدان الاسلامية الاخرى . من التى لديها صناعة وانتاج . ويكفينا ان نذكر ايران وافغانستان وباكستان .

وبقينا نحن فى الجزائر مع تونس والمغرب ولبنان !

بل ان تونس تراعى النصف الثانى من يوم الجمعة كعطلة اسبوعية وان كانت تضيف اليه يوم الاحد كاملا غير منقوص !

وقد يقول البعض عندنا وفي البلدان الشقيقة المذكورة ، اننا بحكم اتصالنا باوروبا وامريكا نحتاج فى هذه المرحلة من البناء الى اتباعهما فى يوم العطلة الاسبوعية ، وهنا نقول لهم ان ايران وباكستان وافغانستان ، ليست اقل احتياجا الى الاتصال باوروبا منا ، وانها هى ايضا تخطط وتبنى ولها صناعات !

بل ان اسرائيل نفسها التى هى اكثر اتصالا باوروبا وامريكا منا واكثر احتياجا اليها ، وهى التى تبنى احدث الصناعات واكثرها تنوعا ، لم تتردد فى جعل عطلتها الاسبوعية بالسبت ، بل وان الحزب الدينى فيها تدخل ليمنع سباق الخيل فى ايام السبت ، كما ذكرت ذلك جريدة لوموند الفرنسية .

وقد يقول البعض الآخر لدينا ، اننا نفقد الاتصال بالبنوك الدولية التى تغلق مكاتبها ابتداء من العاشرة صباحا حتى يوم الجمعة ، وهنا نقول لهم ايضا ان هذه الحجة فى صالح الجمعة ، فاذن لا نخسر شيئا بجعل العطلة الاسبوعية بيوم الجمعة . ثم ان البنوك التى تتصل بالخارج قليلة جدا والموظفين المختصين بذلك فيها اقل ، ويمكن ان يكون فيها دوام مساء الخميس ــ اذا اعتبرناه جزءا من العطلة ــ وصباح الجمعة حتى العاشرة صباحا ، وهى الساعة التى تنهى فيها البنوك الدولية فى الخارج عملها .

واخيرا قد يقول البعض الآخر ان هذه كلها ليست الا شكليات ، والا فما الفرق بين الجمعة والاحد ؟ ولهؤلاء نقول ان غلواءكم فى التضحية بما تسمونه الشكليات ، كالتعريب ، والجمعة ، والعادات القومية ، قد يحولنا الى مجموعة اشكال ، بدون روح !

لماذا تتعلق هذه الدول كلها بهذه الشكليات ، كاللغة ، والعادات ، والاعياد ، لانها جزء من تراثها الثقافى والروحى ، وارتباطها بالتاريخ ، وهو شىء مهم جدا لكل امة تحترم نفسها وتريد ان تحترم !

ومن الامثلة المذكورة ، من ايران وباكستان وافغانستان الى اسرائيل والبلدان الشيوعية يتضح لنا ان التعلق بيوم الاحد كعطلة اسبوعية ليس الا بقية من بقايا الرواسب اللاشعورية ... وليس له أى مبرر اقتصادى أو غيره .

جمعة أو احد ؟ بقينا نحن ، والمغرب ، وتونس ، ولبنان !

مولود قاسم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

الشباب

ريثما يصدر كتاب الملتقى فاننا سنبدأ بنشر محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي بوهران حسب التسلسل التاريخي ، وسنتوقف عن نشر هذه المحاضرات فور صدور الكتاب قبل نهاية السنة ان شاء الله.

وفيما يلي نص الكلمة التي القاها الدكتور احمد طالب الابراهيمي وزير الاعلام والثقافة في افتتاح الملتقى وتليها كلمة الاخ مولود قاسم وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

بِسْمِ اللهِ والصَّلاة والسَّلام على رسُول الله
أيهـا الاخوة ..
أُحَيِّيكُم بمَا حيَّا بهِ رَبُّ العَالمين عبادَهُ المؤْمِنينَ فقَال لإمَام المرْسَلين « وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى

عنصر البقاء والخلود

د. احمد طالب الابراهيمي

وزير الإعلام والثقافة

نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » فَسَلامٌ عَلَيكُم أَيُّها الإِخْوَةُ ورحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاته .

فإنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ علينا ورَحمَتِهِ بنا إقامةَ هذا المُلتقَى الاسلامي العَظِيم هذِهِ السَّنَةَ بعاصمةِ الغَرْبِ الجزائري بَعْدَ أن أقِيمَ في السَّنَة السَّالفةِ في عاصمة الشَّرْقِ الجزائري ، وهكذا بسَعْيِ وفضْلِ وزَارَةِ التَّعليم الأَصْلي والشُّؤونِ الدِّينيَّة أصْبَحَ هذا الملتقَى مِنَ السُّنَن الحَسَنةِ المتَّبَعَةِ بالقُطْرِ الجَزَائري وأصْبَحتْ أيامُهُ منَ الأَعياد السنَوِيَّة يجتَمِعُ فيها عُلماءُ ومُفكِّرُون وطلبَة ومُصْلحُون يأْتُون من كُلِّ فجٍّ عَميقٍ على تَباعُدِ مساكِنِهِمْ ، ولا أقُولُ على اخْتلافِ دِيارِهم لِأنَّ المسْلمِينَ في دَارِ الاسْلاَمِ هُمْ في دَارِهِمْ .

فالاسلامُ دينُ تَوحِيدٍ واتحادٍ وعِلْمٍ وعَقْلٍ وأُخُوَّةٍ وتسامُحٍ وهُو لاَ يَقولُ بالتَّفرقَة بيْنَ النَّاسِ ولاَ بالعَصَبِيَّة وَلاَ بِحَمِيَّةِ الجَاهليَّةِ ،

وجاءَ فى خُطْبَة الرّسول صَلَّى اللهُ عَليْه وسَلمَ يَوْم فَتح مَكّةَ قولُهُ : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنّ اللهَ قَدْ أذهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتعَظُّمَهَا بِالآبَاءِ .. النّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدمُ مِنْ تُرَابٍ » . وَحِينَ سَأله أحَدُهُم مَا الْعَصَبِيَّةُ ؟.. كان جَوَابُه : « أنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ » على هـذا الأسَاس يَبْدُو جَليّاً أيُّهَا الأخْوَةُ أنّ كلّ دَعْوَةٍ الى طَائِفيَّةٍ مَذْهَبِيَّةٍ أوْ عَصَبِيَّةٍ عِرْقِيَّةٍ فَهِيَ فِي ظَاهِرِهَا وجَوهَرِهَا دعوةٌ ضدّ الاسْلَام .

فَإذا كَانَ الاسْلَامُ يحَـرّمُ التّعَصُّبَ الطّائِفي ويَأمُرُ بالتآخِي بَيْنَ المسْلمينَ وَغيْرِهِم ، فمِن بَابٍ أحْرَى وأوْلىٰ أن لَا يُجيزَ التّحَزُّبَاتِ المذهَبيّة بَين المُسْلمينَ أنْفُسِهِم . فالمسْلمُون كالجَسَد الوَاحِدِ ولُحْمَةُ الـدّين أقْـوى وَأمَتَنُ مِنْ لُحْمَـة النّسَب والقَرَابَة ، وشَتّان بَيْنَ الرّوَابِطِ الرُّوحيّـة التي تَبْقى ببَقَاءِ الرُّوح وتَخْـلُدُ بخُلودِهَا ، وَبَيْنَ الرّوابطِ المَاديّة التي تَفْنى بفَنَاء الجَسَد وقَـد تزُولُ قبْـلَ زَوَالِهِ .

وَبَعْد هذا كُلّه فهَل منَ الاسْلام ونَحْن فى معْرَكةٍ حَاسِمَة مع مَنْ أخرَجُـوا المُسْلمِين منَ المَسْجِد الأقصىٰ وَمِن ديَارهِم وشرّدُوهُـم تحْت كلّ كوْكبٍ .

وهَل من المُرُوءة والكرَامَـة والحَالةُ هـذه ومَا يَزَال بَيْننَا إلى اليَـوْم مَن يَتَنَـابَزون بالألقَـاب ويَتقاتَلوُن بالحِرَاب وَهـمْ بِمَرْأى ومَسمَعٍ مِن العَدُوّ المشْتَرَك الذِي شَنّهَا غَارَةً شَعْوَاءَ وحَرْباً عُدوَانيّة عَلى العَرَب والمسْلمين فأخْرَجَ مَنْ أخرَجَ منهُمْ وَهُو يَترَبّصُ الدوَائرَ بالدِّيارِ التى لمْ تَطَأهَا قدَمُه .

فهَل قُمنَا نَحن كمُسْلمينَ بمـَا يَتَطلّبُه منّا الاسْلامُ كدين ..

إنّنَـا مَـا زلنَـا نَكتَفي بالخُطَب الرّنانَة فى الاذاعَـات والمقَـالَات البَليغَةِ فى الصُّحُف ، هذا بَعيدٌ كُلّ البُعْد عمّا يطلُبُه الاسْلامُ مِنَ المسْلمينَ منَ الدّعْـوَة الى الصُّلْح بَيـن الطائفتَيْن منَ المؤمِنِين فَـإن بَغَتْ إحْداهُمَـا عَـلَى الأخْـرىٰ فالاسْلامُ يأمُـرُ بقتَـال الطّائفَـة البَاغيَة حتى تَفِيءَ إلى أمْر الله .

بِوَدّي أن يَكـون هـذا الملتقى يَبحَثُ فى حَاضرنَـا وَمُسْتَقبَلنَا ، فاننَـا عشنَا زمَانَـاً وَنحنُ إذا اجْتَمَعْنَا نُحَـاولُ نسيَانَ واقِعنَا ، فنَلتَفتُ الى المَـاضى فنفتَخـرُ بانتصَارَات صَـلاح الدِّين ، ولا نُفَـكّرُ فيمَـا يَؤولُ اليْـه أمْـرُ فَلسْطِينَ . أمّا وَقد وَقَعَت الوَاقعَةُ فَـلا ننسَى هَزيمتَنَا بفَلسْطينَ لا أقُـولُ نَكْسَتَنَا ، فيجبُ أن نُسمِّيَ الأشياءَ بأسْمَائهَا ولا نَهْـرُب مِنَ الحقيقَة الى المجَـاز فمَنْ كتمَ دَاءه قَتَـلَهُ .

وبودّى من جهَة أخرَى أن تَكونَ

العنايـــةُ بالشَّبَابِ في ســـائر الميادين مِن النُّقَط الرَّئيسيَّة التى يَكونُ الانطلاقُ منهَا إلى غَيرهَا فإن الشبابَ هُو عُنصُرُ البَقَاءِ والخلُودِ فِي الأُمَمِ،وَبالشَّبَاب ، نَسْتَطيعُ أَنْ نَحْكُمَ عَلى مُسْتَقْبَلِ الأمة ، فشبَابُ اليَوْم هُو الدَّليلُ الصَّادقُ لِمــا يَأتِى به الغَدُ القريبُ،لذَلك نَأسَفُ اذا رَأيْنـــا مِن بَعْض الشَّـبَاب انحرَافا عَن الجَــادَّةَ وانحِرَافــاً في الْهــاوية ، فَبالأَمس كَان شبَابُنا يَذوقُ لبــاسَ الجُــوعِ وَالخَوْف في عَهْدِ الاحْتِــلاَل ، فَفَجَّرَ ثَوْرَةَ أَوّلِ نوفمْبَر وَنفضَ عَنْـهُ غُبَــارَ الذلِّ والهَوَان يَحْـدوهُ حُبُّ الاسْتشهَاد فى سَبيل الله وَالوَطَن .

ونحْن اليَوْم في مَعْرَكةِ البنـاءِ والتَّشْييدِ لاَ بُـدَّ لنَا أن نتسَاءَلَ هَلِ الرُّوحُ التِى كَانَتْ تُسَيْطِرُ عَلى شبَاب معْرَكـةِ التَّحْرير بِالأَمْس تُسَيْطِرُ اليَوْم علىٰ شَبَاب مَعْرَكةِ البنَاءِ؟ذلكَ مَا لاَ نَرَاهُ (وَيَاللأَسَف) في كلِّ شبَابنَا اليَوْم .

ان الأَخلاقَ السَّامية والعــادَاتِ والتقاليدَ الوَطنيةَ هِى التى تُكوِّن الشبابَ الصــالحَ وَتحْميــهِ مِن التفَسُّخ والإنحِــلاَل والتمَــزُّقِ وتُؤَهّله لأن يَسُوسَ أَمْرَ البلاَدِ .

وَاذا كــان مــنَ الشــبَابِ مَنْ يُعْرِضُ عَن هٰذِه الأخلاقِ والعادَات والتَّقاليدِ ويَعْدِلُ عنهَا الى عــاداتٍ وتقاليدَ لا تمُتُّ الىٰ دِينهِ وَأُمتــهِ بسَبَب ولاَ نَسَب وَيَتهــاوَنُ فى حقــوقِ وَطَنــهِ فهُــو غيرُ جَـديرٍ بالمحَــافَظة عَلى اسْتقلال البــلاَدَ وَالدِّفَاع عن كَرَامَتهَا في مُسْتَقبَل الأيَام وهُو فى الْحَقيقةِ مَرَضٌ مِن الأمــرَاض التى يَنبَغى حمــايَة المجتمَع منهَا بَل هوَ عُضوٌ أَشلٌ في المجتمَع لا يُسْترَاحُ مِنْه الا بِبَتْرِهِ وَإِهْمَالِهِ .

وَإذَا شُلَّ فِى الجَمَاعَــةِ عُضْــوٌ
فَمِنَ الــرَّأْيِ فَصْمُــهُ لاَ خِصَــامُهْ

بهٰــذا البَيْت لِشاعِرِ الجَــزَائر الكَبير مُحَمَّدِ العيــد أَخْتَتمُ كَلمَتى القَصيرَةِ هٰذه وَأتمَنىَ لِلْتَقاكُمْ كلَّ نَجَاحٍ وَتوْفيقٍ وَسَدَادٍ .

النَّجَــاحُ أنْ تَخْـدُموا الاسْــلاَمَ بأسَاليبِ العَصْر الحْديثِ .

التَّوْفِيقُ أَنْ تُحطِّمُــوا الأَصنَامَ وتَقْضُوا عَلى كُلِّ جَاهِلِيةٍ جَـديدةٍ وَتمْحُوا صَفَحَاتِ الخِـزْيِ والعَــار والْحَدِيدِ وَالنَّارِ التى يُضْطَهَدُ بهَا إِخوَانُكمْ فِى كلِّ بقَاعِ المعْمُورَة .

السَّدَادُ أن تَدْفعُــوا الجَمَــاهِيرَ الشَّعْبيَّةَ التى تَنْتمُون اليهَــا عَلى أَخْذِ حُقوُقهَا وَتحْقيرِ جَلاَّديهَا .

هـٰذا وَأَسْأَلهُ تعــالىٰ أن يَجْعَلَ اجْتمَاعَنَا هـٰذا خالصــاً لوَجْهــهِ الكرِيمِ وأن يَمُدَّنَا بروحٍ مِنْهُ حتىَّ تَنْتَصرَ قضيةُ الاسْــلامِ فى جَميعِ الميَادين .. والسَّلامُ عليكم ورَحمةُ الله وبَرَكَاتُهُ ..

حَضَرَاتِ السَّادَة أعضَاء مَجْلس الثَّوْرَة وَالحكومَة ،
حَضَرَاتِ الأَسَاتِذَة الأَفَاضل ،
إِخوانى الطَّلَبَة والطَّالبَاتِ ،
حضرَات السَّادَة والسَّيِّدَات
السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ

مولود قاسم

وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية

بِمُنَاسَبَةِ افتتَاح هَذا الملتقَى أَوَدُّ أَن أُرَحِّبَ باسْم الرَّئيس هوَارى بُومَدينٍ ، فى بَدْء هٰذه الكلمَةِ ، بالسَّادَة الأَساتذة الأَفَاضِلِ منَ الأَقطَار الشَّقيقَة الذينَ تَجَشَّمُوا مَتَاعبَ السَّفر لمشَارَكتنَا فى هٰذه الأَيَّام الحَافلَة بِدِرَاسَاتٍ قَيِّمَةٍ عَن ثَقَافَتنَا وتُرَاثنَا المشْتَرَكِ المَجيدِ ، ومَا عليْنَا أَن نقُومَ به للحِفَاظِ عَليْهِ ، والبنَاءِ علَى أَسَاسهِ المَتِينِ !

فبَعْدَ اجْتِمَاعنَا مُنذُ سَنَةٍ مَضَتْ فى قُسَنْطينَةَ عَاصِمَةِ الشَّرْقِ الجزَائِرى ، هَا نَحنُ نَلتَقى اليَوْم فى عَاصِمَة غَرْبِهِ ، هٰذه المدينَة الرَّائعة ، وهرَان ، التى كانَتْ مَعْقِلاً من مَعَاقِلِ مُقَاوَمَة المَدِّ الصَّلِيبى بعْدَ سُقُوط الأَندَلُسِ ، حَيْثُ ظَلَّتْ صَامِدَةً مُسْتَبْسِلَةً حتَّى انتَصَرَتْ فى حَرَكَةٍ عارِمَةٍ شَمِلتِ البلاَدَ كُلَّهَا وَطَهَّرَتهَا من فُلُوله المنهَزِمَة النَّاكِصَة !

وَفى هٰذه الظرُوف التى تُعَانى فيهَا بلاَدٌ إِسْلاَمِيَّة عَزيزَة عَليْنَا جميعاً مَدًّا اسْتعْمَاريًّا عُنصريًّا آخرُهُ هُوَ المدُّ الصهْيُونى ،

الذِي بَعْـدَ أنِ اُعْتَدىٰ عَلىٰ أرَضِ أولَى القِبْلَتينِ وَثَانِي الحَرَمَيْنِ أصْبَحَ يَبُوحُ بمُخَطَّطه الْقديِمِ الرَّامِي مَا بَيْنَ النِّيل وَالفُـرَاتِ ، أَدْعُوكُمْ إلىٰ مُراعَاةِ دَقيقَة صَمْتٍ تُقرَأُ فيهَا الفَاتحَةُ عَلى شُهَداءِ فَلسْطِينَ العَزيزَةِ وَعَلى جَمِيع شُهَداءِ الإِسْلامِ عَلى مَرِّ العُصُور !

ســـادتي...

مِن جَدْوَل أعمَالنا وَمن عَناوين مُحَاضَرات مُلْتقَانَا تَرَوْنَ أنَّ درَاسَاتِنـا تَنْصَبُّ عَلى ثَـلاَث نِقـَاطٍ جَوْهَرِيَّةٍ تَشمَلُ فى مُحْتوَاها أوْجُهاً عَديدَةً مُتشعِّبَةً مُتنوِّعَة :

1) النقطَة الأولىٰ تتَّصلُ باللُّغَةِ وَدَوْرِهَا فِيمَا أَصْبَحَ يُسَمَّى بالثَّوْرَة الثقافيَّة ، والذِي نَقصِـدُهُ من هـذَا هُو دَحْضُ تلكَ التُّرَّهَاتِ وَالأبَاطِيلِ المغْرضَةِ مِن طَرَفِ الْبَعْض ، والسَّاذجَةِ الجـَاهلَةِ مِن الطَّرَفِ الآخِرِ ، التى تدَّعِي خارجَ العَالَم العَرَبى والاسْلامي وَدَاخلَهُ ، لمغَالطَتنَا ، انَّ اللغةَ ليْسَتْ إلا أداةً أو شَكْلاً أيّاً كانَا ، وأَنَّ المحْتوَى هُوَ الأهمُّ ، وَبالتَّالى نَسْتَطيعُ أن نَستمرَّ فِي تَدريس العُلُومِ بِاللغَاتِ الأجْنَبيَّة .

ولِهؤُلاَءِ نقوُل إنَّ اللغةَ ليْسَت شَكْلاً أوْ أَداةً فَحَسْبُ ، بَل هِي مُحْتوى أيضًا ، إِذ هِي قَالَبٌ تُصَاغُ فيه أفكَارُنا وَأحَاسِيسُنَا ، نُعَبِّرُ بهـَا عَن كُنهنَا وَحَقيقَتنَا ، تصطَبغُ بهـَا هٰذه الأفكَارُ والأحَاسيسُ بِالضَّبْط كمـَا تَتَأثَّرُ هِي ، أي اللغة ، بهـٰذهِ الأفكارِ والأحَاسِيسِ التى تعبِّرُ عَنهَا ، والتى تُحَمِّلُهَا شَحْنةً معْنويةً قويَّةً تعطيهَا طَابعَهَا المميِّزَ لهَا والخَاصَّ بهَا .

واذَا كانَت اللغـَةُ شَكلاً فقَط ، أيْ قَالباً ، كمـَا يَدَّعى هَؤلاَءِ ، فَالمعْرُوفُ أنَّ القـَالَبَ يُؤثِّرُ فِي مُحْتـوَاهُ ، اذْ يُعْطيهِ شَكلَه ، وحَيْثُ أن القَالَبَ يوضعُ خِصِّيصًا لِلشّيْءِ الذى يُرَادُ صُنْعُهُ ، فمَاذا نرِيدُ يَا تُرى أن نَصْنَعَه بأذهَان أطفالنَا الغَضَّةِ ؟

وإن فى الاشرَاف المعْنَوى لرَئيس الدَّوْلةِ الفرَنسِيَّةِ الحَالى عَلَى مُنَظَّمة الْفرَنْكُوفُونِيَّةِ لأَكْثرُ مِنْ دلاَلَةٍ وَمَعْنىً لمَا للُّغَة مِن أهمِّيةٍ قُصْوَى ، كمَا أنَّ فى مُعَارَضَته مَثلاً لانْضمَام بَريطَانيا الى السُّوق الأُورُوبيَّةِ المشتَرَكـَةِ ، خَوْفاً مِن سَيْطَرَةِ اللّغَـةِ الأنجليزيَّةِ عَلى الفرَنسيَّة ، لأكثرُ مِنْ إشَارةٍ ومَغْزَى ! ولقَـدْ صَرَّحَ بذلكَ هُو نفسُه فى الأَسَابيعِ الأخِيرَةِ .

وَهكَذا قَدْ تُضَحِّي دُولٌ وَأمَمٌ بمصَالحَ اقْتصَاديةٍ هَامّةٍ في سَبيل قَضَايَا ثَقَافيّةٍ ، رُوحيّةٍ وَمَعنَويَّة تعتَبرُها أعظمَ وأهَمَّ !

وربّمَا يتّضحُ هَذا المَوْضُوعُ أكثرَ مِن خِلالِ تِلكَ الْكَلمَةِ الرّائعَة للفيْلسُوفِ الألمَانى الشّهيرِ يُوهَانْ غُوتْليبْ فِيخْتَهْ فى اللغَة ، إذ قال إنهَا القُوّة الطبيعيّةُ الأولىٰ لِأمةٍ من الأمَمِ !

ولهَذا أَنتهزُ فُرصَةَ هَذا المُلتَقَى لِأُوَجِّهَ نِدَاءً باسْمكُمْ جَميعًا الىٰ سَائر جَامعَاتنَا فى العَـالَم العَـربى التى لا تَزَال تَدرُسُ العُلومَ باللغَـات الأجْنبيّة أن تُرَاجِعَ هَـذا المَوْضُوعَ بكلِّ مَا يَسْتحقهُ من عنَايَةٍ وَاهتمَامٍ .

هَذا بخُصُوص الأدَاة والمحْتَوَى .

أمّا بشأْن أولَئكَ الذينَ يَدّعُونَ أن العَرَبيةَ ليْسَتْ قَادرَةً عَلى التّعبير عَن العُلُوم الحَدِيثَةِ ويسْتمرُّون فى الدّعْوَةِ إلى الإبقَاءِ عَلى اللغَات الأجْنَبيّة فى جَامعَاتِهمْ لاَ كَلُغَاتٍ أَجنبيّةٍ ، وَلكنْ كَأدوَاتٍ لِلتّعليمِ ، فِي الكُلّيَاتِ العِلْميّة خَاصّةً ، وَهَذه المُصيبَةُ نَجدُهَا عامّة فى العَالَم العَرَبى ـ أللّهمَّ الاّ جَامعَةَ دِمَشْقَ ، فيمَا نَعْلمُ ، يَكفى أن نَقُـول إن فِيتنَامَ اسْتطَاعَتْ وهى فى حَرْبٍ ضَرُوس ضِدّ أقوَى دَوْلةٍ فى الأرْضِ أن تُحِلَّ لُغتَهَا مَحَلَّ اللغَاتِ الأجْنبيّةِ المتعَاقبَةِ ، بَـل وَاسْتَأْصَلَتْ حُتّى الكلماتِ المتبَقّية منهَا فى لُغتهَـا وعَوّضَتْهَا بكلمَاتٍ فِيتْنَاميةٍ ، وأصْبحَتْ ـ تُدَرِّسُ أحيانًا فِى الكُهُوف تَحتَ وَابلِ القَنَابِل الأمبريَاليّةِ ـ جَمِيعَ المَوَادِّ ومنهَا العِلْميّةُ طَبْعًا بِاللغةِ الفيتنَاميةِ !

وَحَتّى الصّهَاينَةُ فِى فَلَسْطينَ المحْتَلّةِ وهُم مَزيجٌ مِن أكثرَ مِن مِائةِ دَوْلةٍ أحْيوا لغَةً مَاتَتْ مُنْذ أكثرَ منْ أَلفَيْ سَنَةٍ وَأصْبَحُوا يُدَرِّسُون بهَا جَميعَ المَوَادِّ ، وأكثرُ منْ هَذا أنّهمْ عنْدَمَا تُعْوزُهُم كلمَةٌ مَا فِى لُغَتِهمْ يَعمِدُون إلى العَرَبيّة ، أقرَبُ لغَةٍ الى لُغَتِهمْ ، لِيَأخُذوا منهَا ويَثرُوا بهَا لغَتَهُم .

فَالصّهَاينَةُ إذَنْ لاَ يُشاركُونَ العَرَبَ فِي الرّأيِ أنَّ العَرَبيّةَ عَاجِزةٌ أمَامَ العُلوم الحَدِيثَةِ ! غَرِيبٌ وَاللهِ غَريبٌ ، وَشَرُّ البَليّةِ مَا يُضْحِكُ ، كمَا يَقولُ المَثَلُ العَرَبيُّ القَدِيمُ !

حَضرَات السَّادة ،

الموضُوعُ الثَّانى فى جَدْوَل أعمَالنَا هُو الاسْلاَمُ وَمَشاكلُ الأُسْرَة وَتَرْبية الجِيل ، فِى عَالَم الْيَوْمِ ، وهُو مَوْضُوعٌ وَاحدٌ أو هُمَا مَوْضُوعَان مُتَكَامِلاَن .

وَوَاضِحٌ مِنَ الْعُنْوَان أَنَّنَا نَنْظُرُ الىٰ مَوْضُوع الأُسْرَة بِمَا فيهَا تَرْبية النَّشْءِ ، مِنْ زَاوِيَةٍ إِسْلامِيَّةٍ وَتُعْتَبَرُ كَمَثَل أَعْلىٰ لَنَا الأُسْرَةُ الإسْلاَمِيَّةُ الأَصِيلَة ، المُحْتَرِمَةُ لعَادَاتهَا وَتَقَاليدهَا ، وَالتى تَسُودُ فيهَا التَّرْبيةُ ، لِيَنْشَأَ فيهَا جيلٌ صَالحٌ يُشَرِّفُ أُسْرَتَهُ ، وَيَكُونُ عُدَّةً لِأُمتِهِ ، بَلْ ويُشرِّفُ الانسَانيَّةَ كُلَّهَا .

وهُنا أَيْضاً نَصْطَدمُ بدُعَاة التَّحَلُّل ، وَالانْحلاَل ، وَالاخْتلاَل ، التى جَاءَتْ كُلُّهَا مَعَ الاحْتلاَل ! الذِينَ يَتشَدَّقُونَ عَلَيْنَا بحُرِّية المَرْأَةِ ، وحُرِّيةِ الرَّأْيِ ، ومُسَاوَاةِ المرْأَة فى غيْر مَوَاضِعهَا ، كَالإِخْتِلاَطِ ، وَالسَّمَاحِ بِالتَّسَكُّعِ فِى الطُّرُقَاتِ ، وعَلى سُطُوحِ الْمَقَاهِى ، وَأَعْمَاق الْحَانَاتِ بِاسْمِ التَّطَوُّرِ ، والتَّقَدُّم ، والتَّفَتُّح ، الىٰ غَيرِ ذَلكَ ممَّا اسْمُهُ صَالِحٌ وَفى حَقِيقَتِهِ طَالِحٌ ، مُضِرٌّ بِالْمُجْتَمَع والأُمَّةِ كُلهَا !

وانَّ هَـذِهِ التَّصَوُّرَات المُسْتَوْرَدَة لَهِىَ أَخْطَـرُ مِن جَمِيعِ المخَدِّرَاتِ وَالسُّمُومِ المَادِيَّةِ الأُخْرى ، إِذْ تَغْزُو الْعَقْلَ ، وَالْعَاطِفَة معًا ، وتُحَوِّلُ الانسَانَ إِلى آلةٍ تَتحرَّكُ بأصَابعَ تَمْسُكُ بطَرَفِ الْخَيْطِ مِن بَعيدٍ ، مِنْ وَرَاء البِحَارِ وَالمُحِيطَاتِ !

هُنَا أَيْضاً يَتحَتَّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْذَرَ مِنَ الإنحِرَافِ وَرَاءَ هَذِهِ التَّيَّارَاتِ ، التى تُعَانى منهَا مُجتمَعَاتٌ كَامِـلَة فى أمْريكَا وَأوروبَا ، غَرْبِهَا وَشَرْقِهَا ، وَتُعرِّضُهَا لِلتَّفَكُّك وَالانهيَارِ ، مَع الْفَارِقِ أَنَّهُمْ فى تِلكَ الْبُلْدَان يُعَانُونَ ذَلك وَيَأْسَفُونَ لَـه وَيُحَاوِلُونَ انْ يُحَارِبُوهُ أَو أَنِ يحُدُّوا منْه عَلَى الأقَلِّ ويَعْتَبِرُونَه مِن عُيُوب حَضَارَتهِمْ ، وإِنَّ البلاَدَ التى هى فى طَرِيق النُّمُوِّ ـ مِثلَنَا ـ تَعْتَبِرُ ذَلكَ تَقدمًا ، وَتَفَتُّحًا ، وَتَطَوُّرًا ، وَتَمَدُّنًا ، وَثَـوْرَةً ، وتَبـذُلُ أقصَى الجهُـودِ لِتَظهَـرَ فِى ذَلك المظْهَـرِ المُخْزِى المَشِينِ !

فَالاسْلاَمُ أَوَّلُ مَنْ أَعْطَى المرْأَةَ حُقُوقَهَا الْكَامِلَةَ ، التى لَـمْ

تُحَصّلْ عَلَى بَعْضِهَا فى مُجْتَمَعَاتِ أُورُوبَا وَأَمرِيكَا الآَ فى العَصْرِ الْحَدِيثِ وَلا تَزَالُ لَمْ تُحَصّلْ بَعْدُ عَلى بَعضهَا ، فَحَقُّ العَمَلِ ومُبَاشَرَةُ أُمُورِهَا وَأموَالِهَا بِنَفسِهَا بَل والمُسَاهَمَةُ فى النَّشَاطِ الإِجْتِمَاعِى كَالتَّعْلِيمِ وَغَيْرِهِ ممَّا يَبْقَى مَعَهُ الاِحْتِرَامُ لَمْ يَمْنَعْهُ الاسْلامُ فى أَىِّ عَصْرٍ كَانَ .

أمـَّا تلكَ الحَيَوَانِيَّةُ الْعَارِمَةُ التى تَسُودُ فى الإِخْتِلاَطَاتِ الْكُبْرَى التِى تُسَمَّى بِالْحَفَلاَتِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ الصَّاخِبَةِ ، الرَّاقِصَةِ مِنْهَا وِالسَّاهِرَةِ وَتَرْكِ الحَبْلِ عَلى الغَارِبِ للمَرْأَةِ تَلعَبُ بالكَأسِ التِى تُذْهِبُ الرَّأسَ ، تُسَافِرُ أيْنَ تَشَاءُ وَحْدَهَا ، تَارِكَةً وَالِدَيْهَا أَوْ زَوْجَهَا وَأَبنَاءَهَا وَرَاءَهَا ، وَمَا يَتبَعُ ذَلكَ كُلَّهُ مِنَ انْسِلاَخٍ عَنِ القِيَمِ ، وَتَفْكِيكٍ للأُسَرِ ، وَتَخرِيبٍ للمُجْتَمَعِ ، فالإِسْلامُ ضِدُّهُ وَيَتَنَافَى مَعَهُ تَمَامَ التَّنَافِى ، وَهُو مَا يَتَنَافَى أَيْضاً مَع قَوَاعِدِ كُلِّ مُجْتَمَعٍ يُرِيدُ أَنْ يَبْقَى مُنَظَّماً سَلِيماً !

وَيَكْفِينَا أَنْ نَذْكُرَ هُنـَا مَثَلاً يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ، وَهُوَ أَنَّهُ رَأَى مَرَّةً رَجُلاً يَتَحَدَّثُ مَعَ امْرَأَةٍ عَلَى نَاصِيَةِ الطَّرِيقِ ، فَضَرَبَهُ بِدِرَّةٍ كَانَتْ فِى يَدِهِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ إِنَّهَا زَوْجَتُهُ ، وَأَجَابَهُ عُمَرُ : إِذَا كَانَتْ زَوْجَتُكَ أَلَمْ تَجِدُ مَكَاناً آخَرَ غَيْرَ الطَّرِيقِ الْعَامِّ تَتَحَدَّثَانِ فِيهِ ؟ أَتَسُنَّانِ لِلنَّاسِ هٰذِهِ السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ ؟ وَاعْتَذَرَ لَهُ عُمَرُ فِيمَا بَعْدُ عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ الرَّجُلَ وَزَوْجَتَهُ غَرِيبَانِ عَنِ الْمَدِينَةِ وَأَنَّهُمَا لَيْسَ لَهُمَا سَكَنٌ بِهَا .

وَقَد يَقُولُ قَائِلٌ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرْجِعُوا بِنَا إِلىٰ مُجْتَمَعٍ كَانَ سَائِدَاً فى الْمَدِينَةِ مُنْذُ ثَلاَثَةَ عَشَرَ قَرْنَاً ؟ فَنُورِدُ لَهُ مَثَلاً آخَرَ مِن فَيْلَسُوف عَظِيم فى عَصْرِنَا الْحَدِيثِ ، مُعَاصِرٍ لنَا ، هُو المفكِّرُ الانْجلِيزِى بِرْتَرَانْد رَاسِل ، الذى كَتَبَ فِى مُؤَلَّفِهِ « الْأَخْلَاقُ وَالزَّوَاجُ » :

« هُنَاكَ شَرْطٌ مُهِمٌّ يُسَاعِدُ فِي دَعْمِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ ، ذَلكَ هُوَ خُلُوُّ الْحَيَاةِ الإِجْتِمَاعِيةِ مِنَ النُّظُمِ التِى تَسْمَحُ بِالْمُصَادَقَةِ وَالْمُخَالَطَةِ بَيْنَ الْمُتَزَوِّجِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، سَوَاءٌ فِى الْعَمَلِ أَوْ فِى الْمُنَاسَبَاتِ وَالْحَفَلاَتِ وَمَا شَاكَلَهَا .

« إِنَّ العَلاَقَاتِ الْعَاطِفِيَّةَ بَيْنَ الْمتزَوِّجِينَ وَغَيْرِ الْمتزَوِّجِينَ مِن رِجَالٍ وَنِسَاءٍ خَارِجَ دَائِرَةِ الْحَيَـاةِ الزَّوْجِيَّةِ هِى سَبَبُ شَـقَاءِ

الْأزوَاجِ وَكَثْرَةِ حـوَادث الطَّـلَاقِ ، وَلَيْسَ عسيرًا أنْ نَجْمَعَ أمْثلةً كثيرَةً عَن البُيُوت التى انْهَارَتْ بسَبَب اتِّصَالِ الأزوَاجِ وَالزَّوْجَات بغَيْرِ شُرَكَائهِمْ فى الحَيَاة الزَّوْجيَّةِ ، سَوَاءٌ فى العَمَل أوْ فى المُنَاسَبَات الاِجْتمَاعيَّةِ . »

ويَرْتبـطُ بالأُسْرَة مُبَاشَرَةً مَوْضُـوعُ تَرْبيَـةِ النَّشْءِ ، فالْكثيرُونَ هُمُ الذينَ يَرَوْنَ أنَّ هٰذه التَّرْبيةَ مِنْ شَأْن الْأسْرَةِ وَحْدَهَا ، أوْ وَزَارَاتِ التَّعْليم وَحْـدَهَا ، وَقليلُونَ هُـم الذينَ يُلِحُّونَ بحَقٍّ عَلى أنَّ كُلاًّ مِن المُؤَسَّسَتَيْن مَسْؤولَةٌ .

وَلَيْسَ مِن الصُّدْفَة أنْ يُقْرَنَ دَائماً التَّعليمُ بِالتَّرْبيةِ فى أسْمَاءِ مُؤسَّسَاتِ التَّعْليم فى العَالَم ، وَأنْ يُسَمِّيَ ابْنُ بَادِيس مدَارسَهُ الْحُرَّةَ التى كَانَ يَرْمِي بهَا إلىٰ غَرْسِ الرُّوح الإسْلامِية فى نَشْئِنَا مدَارسَ التَّربيةِ وَالتَّعْليمِ .

وأنَّ التربيةَ الاسْلاميةَ وَحْدَهَا هِيَ التى تَضْمَنُ لنَا نَشْأً صَالحاً ، لنَفْسه وَأسْرَتِهِ ، وَأمَّتِهِ .

ولعَلَّ فى اهْتمَام أغْلَبِ دُوَلِ العَالَم الْيَوْم بالعُنْصُر الدِّينِى عَلىٰ مُسْتَوى الْأُمة والبلَادِ كُلها لَأَكْثرُ مِنْ مَغْزَىً ، بَعْدَ تجَـارِبَ مرَّتْ بهَا وعَانتْ منْهَا .

وَأودُّ هُنَا أنْ أقْتَصرَ عَلى مَثَلَيْن اثْنَيْن :

1) لقَدْ خصَّصت فرَنساَ التى فَصَلَتْ بَيْن الدِّين والكَنيسَةِ مُنْذُ أكثرَ مِن قَرْن هذه السَّنَة مبلغَ تِسْعينَ ملْيَار فرنكٍ قَديمٍ مسَاعَدةً للتَّعليم الدِّينى فى فرَنسَا ، الذى يُحْظَى كمَا نَعْلَمُ بمُسَاعَدَاتٍ أخرى مِن الشَّعْب نَفْسهِ ، زيَـادَةً عَن الوَسَائِل الْعَـدِيدَة للكَنِيسَةِ .

2) وفى الِاتِّحَـاد السُّوفْيَتِى احْتُفِلَ أخيرًا فى زَاقُورْسْك Zagorsk بتَنصِيب الارْشمَنْدْريتْ بيمَن Pimen بأُبَّهَـةٍ عَظيمَةٍ وَصَفَتْهَا الْجَريدَةُ السويدِيَّة Dagens Nyheter بأنهَـا فَخامةٌ وَضخَامَةُ العُصُور الوُسْطى ! Medeltida Pompa
وكلُّنَا سَمعْنَا عَن الاهْتِمَام الذي أخَذَت السُّلُطَاتُ تُجَدِّدُ به فى مُوسْكو الكنَائسَ وتُصْلحُهَا وتُرَمِّمُهَا ، وهَذا كلُّه بعْدَ نصْفِ قَرْنٍ مِن ثَوْرَةِ أكتوبر .

وَفي هَذا الوَقْت بالذَّات نسْمعُ أَحيانًا أَنْصَاف المُتَعَلِّمين في البُلدَان الاسْلامية يَلوكونَ ألفَاظًا بغَيْرِ وَعيٍ عَن العُنصُر الرجْعي فِي الدِّين .

وَانَّ موْضُوعَ التَّرْبية هـذا لَهُوَ إحْـدَى مُشكلاَت العَصْر بصفَةٍ عامَّة ، وليْسَ منْ قَبيل الصُّدَف أيْضًا أن يُسَمَّى هَـذَا المَوْضُوعُ بِالثَّوْرَة الثَّقَافيــةِ ، وأَنْ تَحملَ الصِّـينُ الشَّعْبيةُ هَذه الرَّايَةَ باسمِ الثَّوْرَة الثَّقَافيةِ ، مُوَضِّحَةً فى كُتَيب يحْملُه جميعُ الشَّبَابِ الصِّينى ويَحْرصُون عَليْه ويَحْفَظونَه ويُخرجُونَه من جُيُوبهم فَجْأَةً فى مَحَطاتِ القطَار وقَاعَاتِ الإنتِظَار وَغيْرِها من المَحَلاَّت العَامَّة بنَفس الحَماس وَالحُبِّ اللذيْن نَجدُهُمَا عند الشَّبَاب الأَكْثَرِ إيمَانًا وأَصْدَقِهِ !

وفِي نَقْد كَتَبَه الأُستَاذُ فيلهيلم شوسترا ند Wilhem Sjoestrand الأستَاذُ بجَـامعَةِ سْتوكهـولم ، في جَرِيـدَةِ السويدية المْعْرُوفَة Svenskadagbladet عَن كتابٍ أصْدَرَتْهُ الهَيْئَةُ التَّرْبَوِيةُ الجَـامعيَّة في ستوكهولم تحْتَ عُنـوان : « التَّعْليمُ الجَامِعِي » ، خَتَمَ الأُسْتَاذُ يَقُول : « هل يُمْكنُ الاكْتفَاءُ بالتَّعْليمِ بدُون تَرْبيةٍ ؟ اذا حَدَثَ هَذا فسَتَنْقَلبُ حَضَارَتُنَا بسُرْعَةٍ الى نَوْعٍ مِن آلةٍ جَهَنَّميةٍ تَنْفَجرُ بنَا جميعًا فى الهَوَاء ! » .

حضرات السادة ،

بَقِيَ لِي أَن أَقُولَ كَلمةً قَصيرَةً جدًّا أَختِمُ بهاَ هذَا الْحَدِيثَ ، وَتَتَّصلُ بالنُّقْطَة الثَّالثَةِ فِي جَـدْوَلِ أَعْمَالنـَـا ، وَهي الاسْلاَمُ ومُتَطلبَاتُ التَّنمِيةِ في الإقتِصَادِ الحَديثِ .

وَهُنَا أَيْضًا يَجبُ رفعُ الْتبَاسَاتٍ وتَشْويهَاتٍ كَثيرَةٍ تُوَجَّهُ لِلإسْلام الذى يُظْهرُونَه فِي مَظْهَرِ التَّوَاكُلِ ، والتَّهَاوُنِ ، بتَفْسِيرٍ خَاطىءٍ لِمعْنَى القَضَاءِ وَالقَـدَرِ ، بقَصْـدٍ طَبْعًا وعَن درَايَةٍ ، لتَعْقيدنَا وَتَثْبِيط عَزَائِمنَا ، مَعَ انَّ الاسْلامَ هُوَ دينُ الْجُهْـدِ وَالْعَمَلِ ، اذْ يَدْعُو القرْآنُ فى أَكْثرَ من ثَلاثِمِائةِ آيَة إلى العَمَل ، كمَا أفادَنَا بذلكَ الأُسْتاذُ الدكْتُور الحَبيب بَلخُوجَه .

وَمُحَـاوَلَةُ تَشْويهِ أُخْـرَى مِن طَـرَفٍ مَنْ يُعْنِيهِمْ تَشْويهُ الاسْلامِ تَدَّعِي أَنَّهُ رجْعى ، يَدْعُو إلىٰ تكدُسِ الأَمْوَال ، وَضِـدُّ

كُلِّ تَطَوُّر فى الاقتِصَادِ ، وَكلِّ تَوْزيعٍ عَادِلٍ لِلثَّرَوَاتِ ، وَكُلِّ توزِيــعٍ مَنْطِقى وظِيفى لِلعَمَــل فِى المجتَمَع ، وَغَــيْرُ ذلكَ مِن الادِّعَــاءَاتِ التى يُرَدِّدُهــا مِن حِــينٍ لآخر مُسْلمُون جَاهِــلُون بإِسْلامِهم وَحَضَارَتِهِمْ .

وَالوَاقِــعُ المَعْــرُوفُ لِكلِّ ذِى عَقْل ورَغْبَــة فى الاطِّــلَاعِ بمَوْضوعِيةٍ وصِدقٍ أنَّ الاسْلامَ هُــوَ دينُ العَمَل بحَقٍّ ، دينُ العَدْلِ والمُسَاوَاة بحَقٍّ ، كماَ هُو مُبَيَّنٌ فى آيَاتِهِ وَمُؤَسَّسَاتِهِ التى هِى نَفْسُهاَ آيَاتٌ !

وَالْوَاقِعُ هُوَ كماَ بَيَّنَهُ الشَّهيدُ حَسَنُ البَنَّا فِى مُقدِّمَةٍ لِكتَابٍ عَن أَبى ذَرٍّ الغفَارِى رَضىَ اللهُ عَنْه اذْ كَتَبَ رَحمَه اللهُ :

« ومِنَ المُشَاهَد أنَهُ كلَّماَ ارْتَقى العَقْلُ الإنسَانىُّ الحَاضرُ فِى فَهْمِ حَقائقِ الحَيَــاةِ ، وَاكتشَاف خَوَافِيهاَ ، وَاقْتِرَاح شَتىَّ الحُلُولِ لِماَ يُوَاجِهُ مِن مَشَاكِلِهاَ عُدْنَا نَحْنُ المسْلمينَ إلىَ دينِنَا ، بَعْدَ رُؤْيَة هَذه الحُلُول ، عَوْدَةَ المرْءِ الذَّاهل الىَ مَاضِيهِ الحَافِل ، وَقد اتَّصَلَ بهَذا الماَضى فَجْأةَ مَا أشرَقتْ به صَفْحَتُه ، وَتَجَدَّدَتْ بِهِ ذِكْرَيَاتُهُ ، وسَرَتْ فيهَا كَرَّةً أخْرى حيَاتُه ، لأنَّ الخَيْرَ الذِى يَبْرقُ خلالَ طَائفةٍ من مَنَاهِجِ الإصْلاحِ المُعَاصِر انماَ هُوَ بَعْضُ مِيرَاثِنَا ، فيماَ آل إِليْنَا مِن دِينٍ عَظيم ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وَيَقول عن الكتَاب : « وبَيْنَ يَدى القَارِىءِ بَحثٌ علمىٌّ دَقيقٌ فِى الاشتِرَاكِية الإِسْلامية ، يجْلو هَذه الحَقيقَة ، ويُؤَكِّدُهاَ »
« ومنَ المهِمِّ أن يَعرفَ النَّاسُ أن الاسْلاَمَ لاَ يُحَاربُ الثَّرَوَاتِ العَامة أو الخَاصة ، وانما يحارب تجرد بعض الناس من الثروة عَلى حسَاب تَضَخُّمهَا فى نَاحيَةٍ أخْرَى » .

ويُضيفُ حسَنُ البَنَّا فى مقدمته :

« وَقَد وَصَف المؤَلِّف فى إِيضاحِ مَوَاقف أَبى ذَرٍّ ، وأَظهَرَ بَوَاعِثَ الإِيمَانِ الخَالِصِ فِى حَيَاتِهِ المليئَةِ بالكِفَاح ، والنُّصْــح لِدِين الله ، والحَدَب على جمْهور المُسْلمين ، وشَرْحِ وِجْهَةِ نَظرِهِ رضوانُ الله عليْهِ فى الاعْتِرَاض علىَ مَظَاهِرِ التَّرَفِ ، وأَخْلاقِ

الرَّفَاهِية التى كَانتْ قَدْ بَدَأَتْ تَعْمَلُ عَمَلَها بَيْنَ المُسْلِمين » .

ويَخْتِمُ مُقدمته هٰذه بقَوْلهِ :

« وَنَحْنُ يَسُرُّنا ان يَتَّجِـهَ الشَّبَابُ المثَقَّفُ هـٰذه الوِجْهَةَ الصَّالِحَـةَ ، مُهَنِّئين المؤَلِّفَ ، ومُؤَمِّلين أن يَكونَ لهُ فى نُفوسِ الْقَارِئين أثرُهُ المنشودُ » .

وَقدْ صَدَقَ شَوْقى اذ قَالَ عَن الرَّسُول صَلىَّ اللهُ عَليْه وسَلمَ :

الاشْتِرَاكِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُـــمْ
لَوْلاَ دَعـَاوِى الْقَــوْمِ وَالغُلَوَاءُ

دَاوَيْتَ مُتَّئِـداً وَدَاوُوا طَفْـرَةً
وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ !

الى أن يَقول :

أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى
فَالْكُلُّ فِى حَـقِّ الْحَيَــاةِ سَــوَاءُ

فَـلَوَ أَنَّ إِنْسَانـاً تَخَـيَّرَ مِـلَّةً
مَا اخْتَــارَ إِلاَّ دِينَكَ الْفُقَـرَاءُ !

وَيَطُـولُ بنـَا الحَـديثُ ـ وَهُنـَا أَسَاتِـذة مُتَخَصِّصُون سَيَتَعَرضُونَ ذَلكَ عَلَيْنا لاَ شكَّ أَثناءَ المُحَاضَرَات ـ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَذكُرَ نُبَـذاً عَنْ تفسِيرِ أَبى ذر لِإشْترَاكِيـَةِ الإِسْلامِ ، وَعَن تَطْبِيقِهَا مِنْ طَرَف عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِالعَزيز ، وَغيْرِهِمَا مِن رجَالاَتِ الدَّوْلَةِ فى الإسْلامِ .

هٰذه أُسُسُنَا ، وَبَعدَ هَذا الأَسَاسِ لَيْسَ هُنَاكَ مَانِعٌ مِن الإِسْتِفَادَةِ مِنْ آخِرِ التَّجَارِبِ النَّاجِحَةِ فِى الْعَـالَمِ فِى تَطْبِيقِ العَدَالةِ الإِجْتِمَاعِية وَالاشترَاكِيةِ الحَقَّة فى الْمَجَالِ الإقتِصَادى ، عَلى ألاَّ نَكونَ إِمَّعَاتٍ ، قَوْماً تُبَعاً ، فَلَدَيْنَا أَصَالَتُنَا وَمَنَاعَتُنَا ، وَلَدَيْنَا دِينُنَا الحَنِيفُ .

فَنَأْخُذُ مَا يُلاَئِمُنَا مِن تَجَارِبِ الْغَيْرِ ، وَنَسْتَفيدُ مِنْ أَحْدَثِهَا ، بِإِدْرَاجِهَا فِى قَالَبِنَا الإِسْلاَمِى ، لِصَقْلِهَا وَإِدْمَاجِهَا فى جَوْهَرِنَا .

فَإِسْلاَمُنَا يُسَوِّغُ لَنَا ذَلكَ ، بَلْ يَدْعُونَا إِلَيْهِ وَيَأْمُرُنــَا

بِالْمُقَارَنَة ، وَالاسْتِنْتَاجِ بِالنَّظَرِ ، وَالتَّفْكِيرِ ، وَاسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ ، وَانَّ الآيَاتِ التى تَدْعُونَا الىٰ ذَلكَ لَتَتَخَلَّلُ القُرْآنَ فى جَمِيـعِ سُـوَرِهِ !

وَلَقَدْ أَخَذَ أَجْدَادُنَا عَنْ تَجَارِبِ الْغَيْرِ ، وَاشْتَقُّوا مِنْهَا مَا يَلِيقُ بِهِمْ ، وَيُلاَئِمُ بِيْئَتَهُمْ ، وَيَتَجَانَسُ مَعَ دِينِهِم ، وَتَسْتَسِيغُهُ عَبْقَرِيَّتُهُمْ .

وانَّ الذِي يَحُلُّ لَنَا جَمِيعَ الْمُعْضِلاَتِ هُوَ اُسْتعمَالُ العَقْلِ ، اُسْتِعْمَالُ الاِجْتِهَـادِ الذِي هُوَ مَصْـدَرٌ مِنْ مَصَـادِرِ التَّشْرِيعِ الإِسْلامِي ، وَالذِي وَصَّى بِـهِ وَأَقَرَّهُ الرَّسُـولُ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كمَا يَتَّضِحُ ذَلكَ فِي حَدِيثِهِ الْمَشْهُور مَعَ سَيِّدِنَا مُعَاذ بنِ جَبَلٍ عِنْدَمَا أَرْسَلَهُ إِلى اليَمَنِ مُعَلِّماً وَقَاضِياً وَسَأَلَهُ :

قَالَ « بِمَاذَا تَقْضِي فِيهِمْ يَا مُعَاذُ ؟ قَالَ:بكتَابِ اللهِ . قَال:فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ قَالَ : فَبِسُنَّةِ رسُول اللهِ . قال:فإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ قال : أَجْتَهِدُ بِرَأْيِي وَلاَ آلُو » .

حَضرَات السادة ،

قَبْلَ أَنْ أَخْتِمَ كَلِمَتِي هٰـذِهِ أَوَدُّ أَنْ أُخَصِّصَ جَوَابَنَا ـ وَأَظُنُّ أَيْضاً انهُ جَوَابُكمْ جَمِيعًا ـ عَلىٰ فَرِيقَيْنِ اُثْنَيْن ، احَدُهُمَا يَدْعُونَا إِلَى إِغْلاَق جَمِيعِ الأَبْوَابِ وَالنَّوَافِذِ ، وَالآخَرُ يَدْعُونَا إِلىٰ تَفَتُّحٍ يَقْصِدُ بِـهِ أَنْ نَفْتَحَ حَتَّىَ السَّقْفَ ، وَأُجِيبُهُمْ بِكَلمَةٍ لِلرَّئِيس بُومَدْين فى خطَابِهِ أَخِيرًا بِمُنَاسَبَةِ الذِّكرَى التَّاسعَة لِاسْتِعَادَةِ الاِسْتِقْلاَلِ إِذْ قَالَ :

« بِأَقْدَامٍ رَاسِخَةٍ عَلَى أَسَاسِنَا الثَّابِتِ فَقَطْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَطَلَّعَ إِلَى آفَاقٍ أُخْرَى ، وَمَعَ الانْغِرَاسِ فِي أَصَالَتِنَا فَحَسْبُ يُمْكِنُ لَنَا ، بَـلْ يَجِبُ عَلَيْنَا ، أَنْ نَتَفَتَّحَ عَلَى مُخْتَلِفِ ثَقَـافَاتِ وَحَضَارَاتِ الْعَالَمِ ، كَمَا فَعَلَ أَجْدَادُنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنْتَجُوا أَخْصَبَ الثَّقَافَاتِ وَأَرْقَى الْحَضَارَاتِ ، وَكَمَا فَعَلَتْ بِالأَمْس وَتَفْعَلُ اليَوْمَ جَمِيـعُ الشُّعُوبِ التى تَعْتَبِرُ مَـا تَأْخُـذُهُ عَنِ الخَـارِجِ بِمَثَابَةِ مُكَمِّلاَتٍ لِأُصُولِهَا ، وَفُرُوعٍ لِجُذُورِهَا » .

والسَّلامُ عليْكمْ

رسالة

الجامعة فكرة ، ولكل جامعة فى العصر الحديث رسالة يجب ان تؤديها ، ورسالة الجامعة تنظم غرضين اساسيين : الاول تكوين صفوة مختارة من شبيبة الامة واعدادها لقيادة بلادها . والثانى العمل على تقدم المعارف الانسانية بتشجيع البحث العلمي البرىء .

الغرض الاول للجامعات هو تربية الصفوة وتكوين رجال قادرين على العمل فى تنمية موارد البلاد المادية والعقلية والاخلاقية والفنية ، وهذا الغرض هو الذى دعا الى تنظيم الجامعات بحيث تنقسم كل جامعة منها الى كليات مختلفة ، وبعبارة أخرى ان تكون الجامعات اشبه بمدارس مهنية كبرى تتناول جميع المهمات الاجتماعية التى تقتضى تطبيق المعارف المكتسبة .

وهذا النوع من التعليم يتطلب من جانب من ينقطعون له استعدادا عقليا واخلاقيا خاصا . يقوم فى صميمه على الاخلاص للعلم واحترام

الجامعات فى العصر الحديث

الحقيقة . واذا رسخت هذه العقلية عند القائمين بالتعليم الجـــامعى ـ سواء كانوا رياضيين أو جيولوجيين أو مؤرخين أو لغويين أو اجتماعيين ـ أصبحوا جميعا علماء فضلاء ، قد تجاوزوا مهنـــة المعلمين وصاروا المربين الاوائل فى الامة . وهذا الاعتبار وحـــده يجعل من أوجب الواجبات على الدولة ان تكفل لاساتذة الجامعات بين خـــدام الوطن منزلة رفيعة .

ولما كانت المهمة الاولى للجامعة ان تعمل لاعداد الصفوة من الشبيبة لقيادة بلادها ، فلا بد من توجيه هذه الشبيبة توجيها صحيحا يعدهـــا للنجاح فى معترك الحياة . ويؤهلها لان تكـــون دائما شبيبة عصرية متطورة طامحـــة متوثبة ، لا شبيبة رجعية راكدة قانعة .

ومن أجل هـــذا وجب على الشبيبة ان تكون عالمة بما يجرى فى بلادهـــا وخارج بلادها ، أى أن تكون واقفة على الحركات السياسية والاجتماعية الكبرى التى تسيطر على شؤون امتها وسائر امم العالم فى العصر الذى نعيش فيه . وطريق الشبيبة الجامعية الى ذلك هو الدرس الجدى والاطلاع الدائم على الكتب والبحوث لا التقليد المنفعل ولا

مطاوعة النزوات الشخصية العابثة ، ولا الانسياق وراء الدعايات السياسية الفاسدة او الاهواء الحزبية المضللة . ويجب ان يكون واضحا لعقلاء الطلاب ان الاشتغال بالسياسة القومية العامة شيء ، والاندماج في مظاهرات الخصومات الحزبية المغرضة شيء آخر .

وبديهي ان آفة التعليم الجامعي هو الانحصار في الدائرة الضيقة دائرة الشهادات أو الدبلومات التي هي الد اعداء الثقافة كما قيل بحق . ومن اكبر الاخطار التي تتهدد ذلك التعليم ، السعي الى النجاح في الامتحانات بالطرق الآلية التي تنتهي غالبا بخنق الفكر ، وصد النفس ، وحشو الذاكرة بالمحفوظات ، وانقطاع الصلات الشخصية بين الاستاذ والطلاب ، والنظر الى هؤلاء وكأنهم « ارقام » توضع لسد خانات ... وشيوع هذا الميل الخطر يجعل التعليم الجامعي على هامش الحياة ويصيره تعليما « مدرسيا » عقيما لا يلائم تطور المجتمع الحديث ولا يوافق غاية التربية الاصلية .

وينبغي ان لا ننسى ان هدف التعليم الجامعي هو تربية المواطن الصالح وتكوينه تكوينا مدنيا اجتماعيا انسانيا . ومن اجل ذلك وجب ان يعنى استاذ الجامعة بتفسير الوقائع التي يدرسها تفسيرا علميا محايدا ، وان يهتم بغرس الثقافة المنهجية الدقيقة ، واشاعة روح النقد النزيه ، وتزكية الشعور بالمسؤولية ، وهذا هو ما يعبر عنه باسم « الروح الجامعية » . واذا سيطرت هذه الروح على التعليم الجامعي نتج عنها تقديس الحرية في مختلف مظاهرها ، حرية القول والكتابة والتفكير ، ونتج عنها التسامح ازاء الغير ، والترحيب باختلاف الآراء والعقائد ، متى توافر في اصحابها الصدق والاخلاص .

واذن فليس من حق السلطات الحاكمة ان تتدخل في التعليم الجامعي في ناحيته العلمية أو الفنية : لا يحل لها ان تعهد الى استاذ الجامعة تعليم بعض المبادىء المعينة دون بعضها الآخر ، وان تجعل منه داعية الى مذهب بعينه أو مبشرا لعقيدة مفروضة ، بل ينبغي ان تترك التعليم الجامعي مفتوحا لجميع التيارات الفكرية والشعورية ، مستقبلا لجميع المطامح البعيدة الصادرة عن الامة ، بحيث يكون معبرا عن هموم عصرنا وشكوكه وآماله واحلامه ، تعبيرا بعيدا عن اهواء الساعة ومنازعات السياسة ومعارك الصحافة وصخب الشارع .

مهما تختلف آراء المربين فان الغاية العليا من التربية هي تحقيق الحرية للناس ، بتحرير عقولهم ونفوسهم وتحقيق المساواة المدنية بينهم ، ومحو ما بينهم من فروق غير طبيعية ، اعني تلك الفروق الاجتماعية التي تجعل الفروق الطبيعية اليمة لا تطاق . ولا شك ان ارتقاء التعليم العام ، والتعليم الجامعي بوجه خاص ، يجعل من الحرية امرا واقعيا ، لا كلمة رخيصة تدور على كل لسان ويسمعها الناس في المجالس والاجتماعات ، ويقرأونها في الصحف والكتب ، وبعبارة اخرى يجعلها حقا من حقوقهم يعرفون كيف يمارسونه ويستمتعون به ويناضلون عنه ولا يستطيعون الحياة بدونه .

واذ اقمنا التعليم الجامعي على مبادىء سليمة كمحبة المواطنين بعضهم بعضا ، والاحترام العميق لكل عقيدة مخلصة والتسامح المتبادل ، وممارسة الحرية ممارسة حكيمة ذكية ، اصبحت مهمة الجامعة

اقامة الانسجام بين تربية الشبيبة وبين الفكر الحديث ، وتسليحها ضد الزيغ والضلال . ولكن ليست مهمة الجامعة ان تقرر اين يكون الخطا ولا أين يكون ما ينبغي ان يعتقد ولا ما ينبغي ان يرفض . وليست وظيفتها ان تعد اى قيد للعقول والنفوس وانما وظيفتها الحقيقية ان تكشف عن الطالب غطاءه ليكون بصره حديدا : وعندئذ يستطيع ان يميز بين الامور مختارا ويتيسر له ان يحكم بنفسه على الاشياء والاشخاص احكاما خالية من التعصب والهوى . ويتيسر له في جميع الاحوال ان يشاهد وان يحكم وان يستنتج ، لكى يعمل عند الاقتضاء وفقا للقانون الاعلى الذى هو قانون العقل . وذلك هو صميم الروح الجامعية .

والغرض الثانى من اغراض الجامعة **هو العمل على تقدم المعارف البشرية عن طريق البحث العلمى البرىء** . ولهذا وجب على أولى الامر ان يهيئوا للجامعة وسائل ايجاد البيئة العلمية اللازمة للتوفر على البحث . و لاشك ان اول الوسائل لهذه الغاية اختيار اساتذة من ذوى الكفايات الحقيقية مشهورين بالاخلاص والنزاهة العقلية . بعيدين عن الدعاية والتهريج ، ثم رفع مرتباتهم وتقليل عدد محاضراتهم . وتزويد الكليات بما يلزمها من معامل ومكتبات . وبالاجمال يجب ان تهيأ لأساتذة الجامعة كل وسائل الحياة من اجل العلم . حتى يكون لديهم دائما من الوقت والمال وهدوء البال ما يعينهم على المضى فى بحوثهم على خير الوجوه .

فالعمل على تقدم العلم وتشجيع البحث العلمى من اهم اغراض الجامعة : لان للعلم ثلاث وظائف كبرى كما قيل . **عقلية واقتصادية واخلاقية** هو عقلى لانه خالق للحقيقة . وهو اقتصادى لانه مولد للثروة . وهو اخلاقى لانه موزع للنور فى المثل العليا التى يستطيع الناس ان يترسموها .

والانقطاع للبحث العلمى هو رسالة الجامعة الاصلية ولكن الجامعات لا تستطيع ان تؤدى هذه الرسالة الا اذا تم عملها فى جو من الحرية التامة . والا اذا تآزر جميع الاعضاء فى كل هيئة جامعية . وبالتالى الا اذا تآزرت جميع العلوم التى تمثلها . وساهمت فى حياة واحدة تتجاوز التخصص الذى لا غنى عنه وتخلق عند الجميع وجدانا واحدا يخضع لقانون واحد .

ولا ينبغى ان يكون للبحث العلمى الا غاية واحدة ، هى الظفر بالحقيقة . فليس ابشع من ان نجعل الجامعات آلات لاصحاب السلطان . أو ابواقا تردد ما يريده الحكام . بل الشرف الصحيح والفضل الحقيقى للدولة انما يكون فى التضحيات البريئة التى تبذلها الجامعات لكى تصبح محاريب للثقافة الانسانية الحرة ، التى تتحمس للحقيقة وحدها . ولا تتأثر بالاهواء والعصبيات .

ان جمال العلم وجلاله ان يكون مقصودا لذاته لا لشىء سواه . ومن اجل ذلك وجب ان يقبل العلماء على بحوثهم خالين من كل غرض . متجردين من طلب المنافع التى يمكن ان تنتج عنه . وتاريخ العلوم يشهد بان المعارف العلمية ما ازدهرت ولا ارتقت الى رتبة العلم الحقيقى الا بعد ان انقطع العلماء للبحث لذاته مبرأين من طلب المصلحة غير ناظرين الا الى جلال الموضوع وشرفه : وهذا هو صميم العلم وجوهره الباقى على الزمن .

التربية والشخصية

« ان ثورتنا الخالدة قامت على أسس متينة عتيدة لبناء مجتمع جزائري معتز بماضيه العربي الاسلامي ، فخور بتراثه الغني الشاسع ، غيور على تاريخه الذي منه انبثقت قوى عزيمته لاسترجاع سيادته وعزته وكرامته ... وكيف نتمتع بهذه الشخصية ، ونفرض وجودنا كشعب متمسك بتقاليده المستوحاة منها انظمته الحيوية ان لم نتحرر من عادة التعبير باللغة الاجنبية ـ تلك اللغة التي هيمنت على تفكيرنا عهدا طويلا وتعرقل طموحنا الطبيعي الى البروز الى العالم بابتكارات اصيلة وفي حالتنا الخاصة بنا ونحن نعرف ان لكل شيء شكله ومحتواه المتكاملين .

ان لغتنا القومية تحفظ لشعبنا خاصية من خاصيات استقلاله الوطني وتدرا عن عن شخصيته كل شائبة ، اذ أن الأمة لا يدوم وجدانها الا بدوام لغتها التي هي لسان حالها . المعبر حقيقة على جميع مقاصدها » .

الرئيس هواري بومدين
في افتتاح السنة القضائية
1970 ـ 1969

تخوض الجزائر في الوقت الحاضر ثورة ذات أبعاد ثلاثة هي :

ثورة صناعية ،

وثورة زراعية ،

وثورة ثقافية .

وذلك كي تستكمل مقومات الاستقلال الذي دفعنا فيه مليونا ونصف مليون شهيد . وموضوع مقالي هو ـ التربية والشخصية الجزائرية او الشخصية الوطنية ـ ولا شك أن الحديث عن الشخصية

تركى رابح

الجزائرية

الوطنية وكل ما يتصل باحد مقوماتها الاساسية هو قضية حيوية تهم كافـة الجزائريين والجزائريات فى هـذا الوطن العربى المسلم . الذى يعمل اليوم على تحديد كيانه اقتصاديا وفكريا ، وثقافيا بين دول العالم ولذلك فان موضوع التربيـة والشخصية الوطنية ، هـو موضوع هام وخطير فى نفس الوقت ، ذلك ان ثورتنا الخالدة كما قال الرئيس بومدين فى افتتاح السنة القضائية لعام 1969 ـ 1970 « قـامت على اسس متينة عتيدة لبناء مجتمع جزائرى معتز بماضيه العربى الاسلامى ، فخور بتراثه الفنى الشاسع ، غيـور على تاريخـه الذى منه انبثقت قوى عزيمته لاسترجاع سيادتـه وعزتـه وكرامته . » ومن هنا فان اى انحراف عن هـذا الخط يعتبر خيانة لدماء الشهداء وتضحيات الملايين .

ويقول الشيخ عبدالحميد بن باديس :

« ان الامـة التى لا تحتـرم مقوماتها من جنسها ، ولغتها ، ودينها ، وتاريخها ، لا تعد امة بين الامم ، ولا ينظر اليها الا بعين الاحتقار مع القضاء عليها فى ميـادين الحيـاة بالتقهقر والانحدار » ، ثم يضيف الشيخ عبدالحميـد بن باديس « وان الفرد الذى لا يحافظ على ذلك من امته لتاخرها فى سير الزمان بما احاط بها من ظروف الحياة. وان تحلى باعظم واحسن مـا يتحلى به الراقون من امة اخرى، لا ينظر اليه الا بالعين التى ينظر بها الى امته » .

والمعروف أن هناك ارتباطا وثيقا بين الثقافة التى تعمل التربية على نقلها من الاجيال الماضية الى الاجيال الحاضرة من جهة وبين الشخصية الوطنية من جهة اخرى . ومن هنا فان الحديث عن الشخصية ومقوماتها الاساسية يجرنا الى الحديث عن الثقافة القومية التى تحدد أبعاد وملامح الشخصية الوطنية تحديدا واضحا .

والثقافة القومية كما نعلم تتمثل فى اللغة القومية ، والفنون ، والعلوم ، والآداب ، والنظم ، والعادات ، والتقاليد ، والاخلاق التى تعبر عنها مقومات الشخصية الوطنية أصدق تعبير ولا يمكن لأية لغة أجنبية أن تعبر عن مقومات الشخصية الوطنية لأية أمة من الامم لأن ذلك يتنافى مع خصائص اللغة والثقافة التى تعبر عنها هذه اللغة .

تعريف الثقافة :

اذن ما هى الثقافة ؟ وما هى وظيفتها فى تكوين الشخصية القومية ؟

الثقافة لها معنيان ... معنى فى اللغة ، ومعنى فى الاصطلاح . اما معناها لغة فهى التهذيب والصقل ــ فالشخص المثقف هو الشخص المهذب المصقول فى اخلاقه وسلوكه العام أو هكذا ينبغى ان يكون .

اما الثقافة فى الاصطلاح فهى ذلك النسيج الكلى المعقد من الافكار والمعتقدات ، والعادات والتقاليد واساليب التفكير ، والعمل ، وانماط السلوك وكل ما ينبنى عليها من تجديدات أو ابتكارات أو وسائل فى حياة الناس ، مما ينشأ فى ظله كل عضو من اعضاء المجتمع .

ومعنى هذا ان ثقافة الامة تتسع لكل ما ابدعته عبقريتها خلال مراحل التاريخ التى مرت بها منذ بدأت تعيش حياة متحضرة على وجه الارض حتى الوقت الحاضر . يتضح من هذا التعريف ، ان الثقافة تتضمن عناصر معنوية كما تتضمن عناصر مادية . فالعناصر المعنوية تتمثل ، فى اللغة ، والفنون ، والعلوم ، والآداب ، والنظم ، والقوانين ، والعادات ، والتقاليد ، والاخلاق .

اما العناصر المادية فهى تتضمن كل مرافق الحضارة المادية التى يستعملها افراد المجتمع كالمواصلات ــ والمبانى ــ والطرق ــ وانواع الملابس ــ والمعامل ــ وكل ما تزخر به الحضارة فى كافة مجالات الحياة المادية .

وظيفة الثقافة :

اما وظيفة الثقافة الاساسية فى حياة المجتمع فهى انها وسيلة المجتمع الرئيسية فى الابقاء على حياته وكيانه ، فكل مجتمع سواء كان جزائريا أو غير جزائرى وسيلته الاساسية فى المحافظة على نفسه ووجوده هو ثقافته القومية الخاصة به .

ولذلك فان كل المجتمعات فى سائر مراحل التاريخ تحاول دائما ان تحقق وظيفة الابقاء على نفسها معنويا عن طريق المحافظة على ثقافتها القومية وليس للمجتمع وسيلة أخرى غير هذه الوسيلة للمحافظة على كيانه حتى ان المجتمعات اذا اضطرتها الظروف فى بعض مراحل التاريخ ان تضحى بعدد من افرادها من اجل المحافظة على ثقافتها القومية ، ومدنيتها الخاصة فانها لن تتردد فى ذلك مطلقا .. وهذا هو التفسير الحقيقى لبعض الحروب التى تخوضها المجتمعات فى بعض الاوقات دفاعا عن ثقافتها وكيانها الخاص .

فالحرب كما يقول علماء التربية والاجتماع ليست فى الحقيقة والواقع سوى تضحية ضرورية من المجتمعات ببعض افرادها فى سبيل الابقاء على تراثها الثقافى كمظاهر من مظاهر ابقاء الجماعة لنفسها لان الافراد زائلون دائما ، ويمكن تعويضهم دائما بكل سهولة .

اما الثقافة فهي اذا ضاعت فسيترتب عليها ضياع الجماعة نفسها . وهذا ما فعله الشعب الجزائرى فى ثورة الفاتح من نوفمبر سنة 1954 . فقد ضحى شعبنا بكل سخاء وكرم بمليون ونصف مليون من خيرة ابنائه فى ساحات الجهاد المقدس دفاعا عن شخصيته القومية ـ بكل مقوماتها الاساسية .

هذا بالاضافة الى محاولة استرجاع سيادته الوطنية المغتصبة . فهؤلاء الشهداء الابرار الذين سقطوا فى ثورة الفاتح نوفمبر المجيدة يمكن تعويضهم . كما انهم افراد زائلون مهما طال عمرهم . اما التراث الثقافى الذى تتكون منه شخصية الشعب الجزائرى القومية وكيان الوطن الجزائرى الذاتى فهو الباقى وهو الخالد . وهو المستمر . ما استمرت الحياة على وجه الارض .

دور المدرسة فى المحافظة على الثقافة القومية :

والثقافة القومية أو التراث القومى ، لا يمكن المحافظة عليها الا بوسيلتين :

الوسيلة الاولى هى العلم بها .

والوسيلة الثانية هى تعليمها للاجيال الناشئة من ابناء الامة . وكلتا الوظيفتين العلم بالثقافة ، وتعليمها تدخلان فى نطاق التربية .

ومن هنا كانت خطورة المدرسة فى المجتمع ـ فهى التى تعد الاطفال الصغار لان يكونوا افرادا صالحين فى مجتمعهم عن طريق تزويدهم بالثقافة القومية ـ وهى التى تعمل على ادماجهم فى مجتمعهم عن طريق تطبيعهم بالطابع الاجتماعى لأمتهم ، ولذلك كانت الوظيفة الاساسية للمدرسة فى جميع المجتمعات الانسانية هى المحافظة على التراث الثقافى للمجتمع . فالمدرسة هى التى تعلم لغة الامة ، وتاريخها وآدابها ، وعلومها ، وفنونها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، لابناء الامة منذ نعومة أظفارهم الى ان يشبوا عن الطوق .

والمدرسة هى التى تغرس فى نفوس الاطفال الصغار ، حب هذا التراث الثقافى والتمسك به ، والاعتزاز به ، وبهذه الطريقة ، يبقى للجماعة الانسانية كيانها وتماسكها ، وشخصيتها المتميزة بها عن بقية المجتمعات الانسانية الاخرى .

ومن المعلوم ان تراثنا الثقافى الذى تقوم على اساسه علاقاتنا الاجتماعية هو عبارة عن ديننا ولغتنا ، وآدابنا ، وفلسفتنا ، أى هو كل ما يجعلنا نعرف انفسنا على حقيقتها ونعرف حريتنا وانسانيتنا ، ونرى من اجله الحياة جديرة بأن نحياها ، وهو من اهم مكونات شخصيتنا ، وانماء ثقافتنا ، وتحديد معالم ذاتيتنا بين الامم .

فالحاضر هو حصيلة الماضى ، وليس هناك حاضر مهما بلغت درجته من الحضارة والرقى والعمران والازدهار ، من غير ماض يقوم عليه لان البناء الثقافى لا يقوم فى الفراغ ولكن لا بد له من اساس يرتكز عليه وتراثنا العربى الاسلامى الذى ارتبطنا به فكرا وعقيدة ، وثقافة ، وتاريخا يحتم علينا ان تكون لغة الثقافة التى نتعلم بها هذا التراث هى اللغة التى تبقى على هذا التراث وتحافظ عليه ، وتعمل على نشره وازدهاره بين ابنائنا وبناتنا واعنى بها اللغة العربية .

ان هذا التراث العربى الاسلامى الضخم هو الذى كرس له ابن باديس فى بداية نهضتنا المعاصرة قبل الحرب العالمية الاولى حياته العامرة للمحافظة عليه من عوامل الهدم والتخريب من ناحية ثم فى محاولة احيائه وبعثه بعثا جديدا يناسب الحياة العصرية والتطور العالمى من ناحية اخرى .

وهناك ملاحظة هامة ينبغى التنبيه اليها فى هذا الصدد الا وهى ان الثقافة القومية أو التراث القومى هى عملية هامة جدا بالنسبة للعملية التربوية فى المدرسة ، اذ من المعروف ان العملية

التربوية فى المدرسة تقوم على عاملين اساسيين همـــا :

اولا : الطفـــل البشرى مـــع عجزه وجهله الاجتماعيين من ناحية .

ثانيا : الثقافة التى تسود الحيـاة الاجتماعية للمجتمع الذى يولد فيه هذا الطفل البشرى وينشأ بين احضانه من ناحية أخرى .

فالثقافة تكيف الفـرد الانسانى على اساس النموذج السائد فيها ولذلك فان الطفل الذى ينشأ مثلا فى مجتمع عربى أو متعرب لا بد ان يتطبع ويتخلق بالاخلاق العربية والطفل الذى ينشأ فى مجتمع فرنسى أو متفرنس ، لابد ان يتطبع ويتخلق بالاخلاق الفرنسية وهـــكذا . ولذلك ينبغى العمل على سرعة تعريب التعليم وتعريب المحيط الاجتماعى فى بلادنا كى نساعد ابناءنا على التخلق باخلاقنا وطباعنا .

فالثقافة .. هى كما قلنا منذ قليـــل وسيلة التربية الاساسية لادماج الافراد فى مجتمعاتهم وتطبيعهم بالطابع الاجتماعى المميز لكل منهـــم ولذلك تحرص الامم الواعية على العناية بثقافتها القومية ، ومن بينها اللغة القومية ، والتـاريخ القومى ، والجغرافيا الوطنية والآداب القومية . فتعمل على غرسها فى نفوس ابنائها منذ المراحل الاولى من عمرهم حتى يشبوا على الولاء لمجتمعهم ، والحب لوطنهم ، والتفانى فى خدمة امتهم ، والذود عنها ضد كل عدوان يقع عليها .

فالانسان لا يمكن ان يحب وطنه حبا حقيقيا الا اذا عرفه معرفة جيدة ، فى ثقافته الخاصة ، وفى لغته القومية ، وفى جغرافيته وتاريخه وحضارته وكذلك موقعه الاستراتيجى بين اوطان الشعوب والامم الاخرى .

تحديد الشخصية القومية :

والآن أنتقل الى الحديث عن العنصر الثـــانى وهو « الشخصيـــة القوميـــة » فمـــا هى هـــذه الشخصية ؟ وما هى مقوماتها الاساسية ؟ وما هو دور التربية فى المحافظة عليها والعمـــل عـــلى ازدهارها ؟

تعتبر الشخصية من ابرز المميزات الانسانية واشدها تعقيدا . ويعرفها علماء التربية وعـــلم النفس بأنهـــا « مجموعـــة الصفات والخصائص الجسمية ، والعقليـــة ، والخلقيـــة ، والنفسية ، والوجدانية والمزاجية ، التى يتصف بها الانسان على المستوى الفـــردى وكـــذلك على المستوى الاجتماعى ، وتميزه عن غيره من الناس أو من الشعوب الاخرى » ومعنى هذا ان « الشخصية هى جماع ما لدى الانسان من صفات جسمية ، وصفات عقلية ، وصفات خلقية ، وصفات نفسية ومزاجية ، سواء كانت موروثة عن الآباء والاجداد او مكتسبة من البيئة المحلية .

وقد اختلف علماء النفس اختلافا كبيرا فى امر تحليل الشخصية الى اصولها وعواملها .. ويرون ان افضل وسيلة لتفهم الشخصية هى ان تدرس على اساس ظاهرها فى سلوك الافراد وكذلك فى سلوك المجتمع ، فكرا ، وقولا ، وعملا .

والملاحظ ان معنى الشخصية قريب جدا فى مدلوله العـــام من معنى الاخـــلاق فكلتاهما أى الشخصية والاخـــلاق تدلان على معنى ســـلوك الانسان .

وعلى هـــذا فـــان شخصية الشعب الجزائرى القومية مثلا هى عبارة عن مجموع الخصـــائص العقلية ، والخلقية ، والنفسية ، والمزاجية التى تظهر فى سلوك افراد الشعب الجزائرى بمجموعهم وتميزهم عن غيرهم من افراد الشعوب الاخرى .

يقول الدكتور نقولا زيادة فى تحديد شخصية الامة العربيـــة فى كتـــابه « العروبـــة فى ميزان

القومية » يقول : « نحن امة لاننا وحدة روحية ، لنا بلاد نقطنها ، وتاريخ نرجع اليه ، ولغة حية نتكلمها ، وادب نستعذبه ، وذكريات نتغنى بها وآمال مشتركة نصبو الى تحقيقها ، ومثل عليا متفقة نسعى اليها ، وقوة نبذلها في سبيل آمالنا ومثلنا ، وارادة تحملنا على السير في سبيل الوصول الى ما نؤمل » .

مقومات الشخصية القومية :

اما مقومات الشخصية القومية فان معظم الباحثين الاجتماعيين يتفقون على ان اهم المقومات الاساسية لكل شخصية قومية هي اربعة عوامل رئيسية نلخصها في العوامل الآتية :

1 ـ اللغة المشتركة .

2 ـ التاريخ المشترك .

3 ـ الثقافة القومية المشتركة .

4 ـ الوطن المشترك .

ويلاحظ ان اللغة القومية المشتركة تعتبر من أوثق الروابط القومية بين افراد الشعب الواحد ، وذلك لسببين جوهريين :

السبب الاول : هو ان استعمال لغة قومية واحدة هو ادعى الى التقارب والتفاهم والانسجام بين ابناء الامة الواحدة وصهرهم جميعا في بوتقة فكرية واجتماعية واحدة ، وهذا ما نلاحظه في بلادنا في المدن بالذات حيث تنعدم الوحدة الفكرية بين المثقفين الجزائريين بسبب الاختلاف في لغة الثقافة فاحدى اللغتين عربية ـ والاخرى فرنسية . وبالتالي تنعدم وحدة النظرة والحكم على الاشياء لديهم في بعض الاحيان .

ولعل قائلا يقول : ان دولة مثل سويسرا توجد فيها اربع لغات رسمية وهي الالمانية والفرنسية والايطالية ولغة رابعة سويسرية محلية ، ومع ذلك فان شعب سويسرا يكون امة واحدة ، وقومية واحدة . ونفس الشيء يصدق على بلاد مثل كندا التي لها لغتان رسميتان : فرنسية وانجليزية ، وبلجيكا التي لها لغتان كذلك وجمهورية الهند التي لها مجموعة لغات وطنية وكلها رسمية . في الادارة كل ولاياتها تسير امورها وشؤونها في الادارة والتعليم بلغتها الخاصة .. والجواب عن هذا التساؤل هو ان الروابط القومية في الدول المذكورة ذات اللغات المتعددة كانت تكون اقوى وامتن واصلب عودا لو كانت لها لغة قومية واحدة . والدليل على ذلك هو هذه الاضطرابات السياسية والدموية التي تنشب في بعض الاحيان في الهند وبلجيكا وكندا ، بسبب تعصب كل مجموعة من السكان الى لغتها الخاصة ضد لغات المجموعات الاخرى .

اما السبب الثاني : الذي يجعل اللغة القومية المشتركة تعتبر من اوثق الروابط القومية بين افراد الشعب الواحد ، فهو ان اللغة القومية هي في الحقيقة والواقع مستودع ثقافة الامة ، وتراثها الاجتماعي ، ولذلك كانت الاداة الرئيسية لنشر الثقافة المشتركة في صفوف ابنائها .

ولا شك ان الثقافة المشتركة التي تشيع في صفوف ابناء الشعب الواحد هي من اكبر العوامل على بناء الكيان القومي لذلك الشعب . وبقدر ما يكون هذا العامل راسخا في النفوس ومستوليا على الحياة الاجتماعية والفكرية لابناء ذلك الشعب بقدر ما يكون الشعب قد اندمج في قومية واحدة قوية راسخة من هنا كانت اهمية اللغة الواحدة أو اللغة المشتركة ومما يدل على خطورة اللغة في حياة الشعوب وتكوين الامم ما نلاحظه في تكوين الامة الامريكية في العصر الحديث . فقد كان للغة الانجليزية التي شاع استعمالها في الولايات المتحدة منذ القرن السابع عشر الميلادي الدور الاكبر في صهر الامة الامريكية في قومية واحدة

مع ان الامة الامريكية تتركب من جنسيات مختلفة هاجرت اليها منذ اكتشاف القارة الامريكية وهي جنسيات من معظم دول اوربا وافريقيا والشرق الاقصى ما بين ايطالية وفرنسية ، واسبانية ، والمانيــة ، وزنجية وصينية ويابانية وغـيرها من الاجناس الاخرى . غير ان انتشار اللغة الانجليزية بين سكان امريكا وتغلب هذه اللغة على بقية اللغات الاوربية والافريقية والهندية الاخرى طبع هؤلاء السكان بطابع واحد ، وصهرهم جميعا في بوتقة اجتماعية وثقافيـــة واحـــدة نشأت عنها الامة الامريكية الواحدة ، والقومية الامريكية المشتركة ، التي اصبحت اليوم تمثل القوة الدولية الاولى في العالم بلا منازع .

دور اللغة القومية :

ولذلك فان كل امة تتمسك بلغتها القومية ، وتعمل على المحافظة عليها انما تعمل في الواقع على المحافظة على اهم مقوم من مقومات شخصيتها ، ويكون هذا العمل منها دليلا على بقائها حية بين الامم حتى وان اضاعت استقلالها السياسي والدليل على ذلك هو الجزائر ، فقد بقيت الجزائر عربية مسلمة رغم ما تعرضت له من محن ، واضطهاد ، وتنكيل ، من الاستعمار الفرنسي طيلة 132 سنة .

وبالرغم من ان الجزائر قد اضاعت استقلالها السياسي في عام 1830 نتيجة للاحتلال الفرنسي ، فقد بقيت عربية مسلمة لانها حافظت على اللغة العربية ، وتمسكت بها ، كما حافظت على الاسلام وتمسكت به وذلك بصمودها في وجه سياســة الفرنسة ، والتنصير ، والاندماج والتجنيس التي سلطها الاستعمار الفرنسي عليها وبذلك حافظت على شخصيتها القومية وبالتالي بقيت الجزائر في عهد الاحتلال هي هي الجزائر التي كانت قائمــة قبل الاحتلال قطر عربي مسلم له شخصيته الخاصة وكيانه الخاص به بين مختلف اقطار العالم . ولم يستطع الاستعمار الفرنسي ان يذيبها في كيانه العــام .

ان اللغة القومية : هي بمثابة الوعــاء الذي تتشكل به ، وتحفظ فيه ، وتنقل بواسطته افكار الشعب ، وعاداته ، وتقاليده ، وروحه ، وطموحه . من جيل الى جيل من السلف الى الخلف الى ان يرث الله الارض ومن عليها . فقلب الشعب انما ينبض حقا وصدقا في لغته القومية ، وروح الشعب انما تكمن حقا وصدقا في لغة الآباء والاجداد ، ومن هنا فان كل امة تنبذ لغتها القومية ، أو تتهاون بشأنها ، وتصطنع لغة غيرها في حياتها العامــة أو الخاصة ، الا وتفقد شيئا فشيئا حياتها وكيانها حتى تذوب في نهاية الامر في كيــان الامة التي اقتبست لغتها شعرت بذلك أم لم تشعر لان هذه سنة من سنن العمران وهي كذلك سنة من سنن الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولعل هــذا ما يفسر لنا ظــاهرة السياسة الاستعمارية تجاه البلدان المغلوبة على امرها حيث يبادر المستعمرون منذ البداية الى توجيه سهامهم المسمومة الى لغة وثقافة الشعوب التي تقـــع تحت سيطرتهم حتى يميتوا فيها كل شعور بالعزة والكرامة والشخصية القومية كي يلحقوها بهــم الحاقا .

فرنسا اقامت جهازها التربوي في الجزائر من اجل القضاء على اللغـــة العربية .

لعله ليس غريبا عليكم ان فرنسا قد ركزت سياستها في الجزائر منذ بداية احتلالها على طعن الشخصية القومية للشعب الجزائري في لغتهـــا القومية وهي اللغة العربية أولا – ثم بعد ذلـك وجهت طعناتها الواحدة بعد الاخرى الى تراثـه الثقافي والحضاري ، حتى تعــوق عملية البعث القومي للشعب الجزائري التي يمكن ان تنهض في يوم من الايام . ومن هنا يتضح لنا لماذا اقامت

فرنسا كل جهازها التربوى فى الجزائر ، على اساس القضاء على اللغة العربية وكذلك القضاء على الثقافة العربية الاسلامية بقصد اماتتهما معا ، حتى تتكون الاجيال الجزائرية الناشئة تكوينا مشوها وممسوخا وبالتالى تنشأ تلك الاجيال بلا اصالة ولا عمق ، لانهم يجهلون لغة امتهم وتاريخ وطنهم ، وثقافة شعبهم .

وهذا ما يفسر لنا سياسة مطاردة اللغة العربية من سائر الادارات الجزائرية ثم من سائر معاهد التعليم على اختلاف انواعها فى ايام الاحتلال ثم فى محاولات التشويه والمسخ التى قام بها المبشرون والمستشرقون للثقافة العربية فى الجزائر وهم كما تعلمون طلائع الاستعمار الاوربى فى البلاد العربية والاسلامية ومنها الجزائر .

ومن الملحوظ فى التاريخ المعاصر ومنه تاريخ الجزائر . ان القوميات المقهورة مثل القومية العربية فى الجزائر بعد الاحتلال الفرنسى ومثل القومية الالمانية بعد احتلال نابليون بونابرت لالمانيا فى القرن الثامن عشر انها تركز نشاطها وعملها تركيزا كبيرا على النضال الثقافى من اجل البقاء وهذا ما قام به الامام عبدالحميد بن باديس رحمه الله ابتداء من عام 1913 ثم قامت به جمعية العلماء بعد تكوينها فى عام 1931 برئاسة ابن باديس حيث اتجه ابن باديس ثم جمعية العلماء كما اتجه الالمان من قبل ذلك بقيادة الفيلسوف الالمانى فيخته فى القرن التاسع عشر الى النضال فى الميدان الثقافى بدل النضال فى الميدان السياسى حتى لا تضيع الثقافة القومية ، واللغة القومية . وبالتالى تنهار الشخصية القومية للشعب الجزائرى والشعب الالمانى .

اقتران الكفاح السياسى بالعمل على نشر التعليم .

هناك ظاهرة هامة يلحظها الباحث فى التاريخ الجزائرى الحديث وهى اقتران الكفاح الوطنى من اجل الحرية والاستقلال ابتداء من نهاية الحرب العالمية الاولى بالعمل على نشر التعليم ففى كل خطوة من خطوات الكفاح الوطنى فى الجزائر كان التعليم والعمل على نشره ، والمطالبة بتوفيره للجزائريين يبرز فى المقدمة كسلاح ينشر الوعى القومى بين الجزائريين ، ويدعم قوة الشعب ويكتل قواه ، ولذلك يمكننا القول بكل ثقة بأن مقاومة الاستعمار سياسيا كانت تسير جنبا الى جنب مع العمل على نشر التعليم والمطالبة بأن تصبح اللغة العربية لغة رسمية فى المدارس والمعاهد على اختلافها .

وابتداء من عام 1930 أى بعد احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر بدأ ايمان المواطنين الجزائريين يزداد بأهمية التعليم القومى كواجب قومى يجب ان ينهض به الشعب من ناحية التمويل ، وتنهض به المنظمات الوطنية من ناحية التنظيم والتوجيه ، ووضع الخطط والبرامج ، حتى تتحطم سياسة الفرنسة من الاساس ، وهذا ما يفسر لنا نهضة التعليم العربى الحر منذ الثلاثينيات واحتضان الشعب كله لمعاهده ، ورجاله ، ومنظماته ، رغم الحرب الضارية التى شنتها فرنسا على التعليم العربى وعلى القائمين به كما تعرفون .

وكان من الطبيعى ان تتولد عن هذه الحركة التربوية الشعبية نهضة واسعة فى المعارف ، والافكار ، كان من نتائجها نمو الوعي القومى عند الجزائريين نموا عظيما مضطردا . كما تولد عنها اعتزاز كبير بالشخصية القومية ، والتراث الثقافى العربى الاسلامى وكانت السياسة والتربية القومية بصفة عامة تخوضان معا معركة الحرية والاستقلال والمحافظة على الشخصية القومية فى وجه المحتل الغاصب ، منذ نهاية الحرب العالمية الاولى حتى اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر سنة 1954 .

وليس من الغرابة فى شىء ان يتعلق الشعب الجزائرى هذا التعلق الكبير بلغته القومية فلغة الشعب هى رمز رقيه ، وهى عنوان حضارته ، بل هى الدليل على وجوده شعبا حيا بين الشعوب الحية ، لذلك فان مصير كل شعب مرهون بمصير

لغته القومية قوة وضعفا ، رقيا وانحطاطا ، حياة وموتا ، هذا قانون من قوانين الاجتماع والعمران كما يقول ابن خلدون ، قد صدقته الاحداث طوال مراحل التاريخ ، ومن هنا نصل الى قضية تربوية هامة جدا وهي : ان تربية الاطفال الصغار باللغة الاجنبية ، وتعويدهم على التحدث بها كما هو الحال في الجزائر في الوقت الحاضر مع الاسف الشديد يجعلهم اطفالا جزائريين من ناحية جنسهم ولكنهم اجانب من ناحية فكرهم ، وعاطفتهم ، ولغة ثقافتهم وهذا اخطر ما في الامر وهنا تبدو خطورة التعليم باللغة الاجنبية وحدها أو معها اللغة القومية ولكن بشكل ضعيف وهزيل . فاللغة كما يقول علماء التربية وعلماء الاجتماع « تكون الناس اكثر مما يكونها الناس . وتصنع العقول والافكار اكثر مما تصنعها العقول والافكار » .

يقول المربي الانجليزي نيقولا هانز ، في كتابه « التربية المقارنة » شارحا خطورة التعليم باللغة الاجنبية على كيان الاطفال وشخصياتهم يقـــول « هنـــاك فوضى كثيرة تحـــدث لأولئك الذين يستخدمون اللغـــة الاجنبية كأداة للتعليـــم في مدارسهم بدل لغتهم القومية . فقبل الالتحـــاق بالمدرسة يكون الاطفال قد ملكوا ناصية الحديث بلغتهم الاصلية ، ويكونون قد كونوا حصيلة لغوية تغطي معظم موضوعات الانطباعات الحسية ، ووجوه النشاط اليومي ـ ثم عليهم في المدرسة ان يضيفوا الى هذا الاساس اللغوي الذي يغطي وجوه النشاط الحسي يضيفون اليه لغة الافكار والعلاقات المجردة معبرا عنها جميعا بلغة اجنبية . فعقولهم حينئذ تصبح منقسمة الى قسمين منفصلين تمام الانفصال **احدهما** للاشياء العادية والاعمال التي يعبر عنها باللغة الاصلية أو اللغة الوطنية أو لغـــة الام ، والاسرة . **والثاني** : للاشياء التي ترتبط بالمواد الدراسية في المدرسة وبعالم الافكار المعبر عنهـــا بلغة اجنبية ونتيجة لذلك ، كما يقول هـــــذا المربي ـ فان هؤلاء الاطفال يعجزون عن التحدث عن شؤونهم العائلية بلغة المدرسة ، كما يعجزون في نفس الوقت عن التحدث عن المواد التي تعلموها في المدرسة بلغتهم الاصلية ، وهذا ما يطلق عليه السيد نيقولا هانز اسم « العقل المبلبل » أي العقول المضطربة المبلبلة ومعنى هذا بعبارة اوضح ان شخصية هؤلاء الاطفال الذين يتعلمون بلغة اجنبية عنهم سوف تتكون تكوينا قلقا مضطربا ، ومبلبلا وبذلك يكونون ضحية الازدواج اللغوي الذي سيطرت فيه اللغة الاجنبية على اللغة القومية الحيوية التي تدرس بها . ومما يدل على خطورة اللغة في حياة الشعوب انها العامل الاساسي في قيام وحدتها على اسس صلبة قوية . فقد وجدت على سبيل المثال لا الحصر ، اللغة الالمانية في اواخر القرن التاسع عشر بين الالمان بعد ان كانت المانيا منقسمة الى 360 دويلة صغيرة ضعيفة . ووحدت اللغة الايطالية بين سكان ايطاليا وجعلتهم دولة واحدة بعد ان كانوا عـــددا كبيرا من الدويلات الصغيرة الضعيفة .

وعلى اساس اللغة المشتركة استقلت دولـــة بولونيا ، ووحدت اقطارها الثلاثة التي كانت من قبل تحت سيطرة روسيا والمانيا والنمسا .

وانفصلت هولاندة عن بلجيكا على اســـاس اللغة كما انفصلت البلاد العربية بعد الحرب العالمية الاولى عن تركيا بسبب الاختـــلاف في اللغة مع ان الدين الاسلامي يجمع بين العـــرب والاتراك مما يدل على خطورة اللغة في شخصيات الشعوب وكيانها القومي .

سواء في الزمان المحدد لها أو في المواد العلمية

ويحدثنا تاريخ اوربا منذ فجر عصر النهضة ان هناك العشرات من الشعوب قد انفصلت عن غيرها وتجمعت مع بعضها بعضا على اساس من اللغة المشتركة .

ولقد كانت اللغة العربية في الجزائر طوال فترة الاحتلال المظلمة هي المشعل الذي ينير لابنـــاء الشعب الجزائري طريق الجهاد المقدس ضد فرنسا .

ويثير في نفوسهم البطولات الرائعة التي تدفعهم للعمل من اجل التحرر من ربقة الاستعمار الفرنسي ، وتلهب في نفوسهم الروح الوطنية والثورية ، وتوحد اهدافهم وافكارهم وشعورهم ، وتعبر عن طموحهم اصدق تعبير . ولازلنا جميعا ننفعل بكلمات نشيد شعب الجزائر مسلم ، والى العروبة ينتسب وبكلمات نشيد من جبالنا طلع صوت الاحرار ينادنا للاستقلال الى آخر الاناشيد الوطنية التي كانت تلهب الحماس والوطنية في نفوس الكبار والصغار معا حتى ولو لم يفهموا معانيها تمام الفهم وتدفعهم الى التضحية بالنفس والنفيس من اجل الحرية .

مكانة اللغة العربية في حفظ كيان الامة العربية

فاذا التفتنا الى دور اللغة العربية في حفظ شخصية الامة العربية وكيانها الذاتي فاننا نجد ان اللغة العربية كانت وما تزال وستبقى حافظة التراث العربي الاسلامي ، ومحتضنة الشعور العربي في سائر اقطار الامة العربية – فاللغة العربية هي التي ابقت على عروبة كثير من الاقطار العربية ومن بينها الجزائر ، وعن طريق عنصر اللغة ترتبط اكثر العناصر الاخرى الهامة بالقومية العربية ، فالتاريخ المشترك الذي يجمع بين ابناء الامة العربية تراث حضاري ثقافي تلعب فيه اللغة العربية الدور الاكبر .

والدين الاسلامي هو قبل كل شيء القرآن الكريم ، وهو كتاب اللغة العربية الاكبر ، وقد جعلت معجزة هذا الدين الكبرى « القرآن » الكريم بل ان ارادة الحياة المشتركة التي تجمع بين ابناء الامة العربية اليوم يغذيها قبل كل شيء آخر ارتباطهم بلغة واحدة هي اللغة العربية . والشعور الحي الذائع في قلوب ابناء الامة العربية هو شعورهم بالانتساب الى حضارة مشتركة هي حضارة اللغة العربية ، لذلك كانت اللغة العربية وما تزال لها أهمية في حياة الشعوب العربية .

اللغة صورة وجود الامة بافكارها ومعانيها

هناك ملاحظة هامة ينبغي التذكير بها دائما وباستمرار وهي « ان اللغة كما يقول علماء التربية وعلماء الاجتماع ليست مجرد وسيلة لايصال الافكار بين المتكلمين بها فقط بحيث يستطيع الانسان ان يستبدل لغة بلغة اخرى كما يغير مثلا وسائل المواصلات التي يستعملها في تنقلاته العامة أو يغير نوع ملابسه وانما اللغة وظيفة اجتماعية عبر عنها احد المربين بقوله « ان وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو للتوصيل ، بل وظيفة اللغة هي انها حلقة في سلسلة النشاط الانساني المنتظم هي انها جزء من السلوك الانساني انها ضرب من العمل وليست اداة عاكسة للفكر فقط » يقول الفيلسوف الالماني « فيخته » ان الذين يتكلمون بلغة واحدة يكونون كلا موحدا ربطته الطبيعة بروابط متينة وان كانت غير مرئية » ومن هنا كانت لغة الامة هي الهدف الرئيسي لمحاربة المستعمرين الطامعين في استعباد الشعوب ومحاولة السيطرة عليها .

يقول الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه وحي القلم (ج 3 ص 36 – 37) تحت عنوان لغة الامة هي الهدف الاول للاستعمار ، يقول : « واما اللغة فهي صورة وجود الامة بافكارها ومعانيها ، وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه فهي قومية الفكر تتحد بها الامة في صور التفكير واساليب اخذ المعنى من المادة » ثم يقول « لا جرم ، كانت لغة الامة هي الهدف الاول للمستعمرين فلن يتحول الشعب أول ما يتحول الا من لغته ، اذ يكون منشا التحول من افكاره وعواطفه وآماله وهو اذا انقطع من نسب لغته ، انقطع من نسب ماضيه ، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ ، لا صورة محققة في وجوده ، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر ، حتى ان ابناء الاب الواحد لو اختلفت السنتهم فنشا منهم ناشيء على لغة ونشا الثاني على أخرى ، والثالث على لغة ثالثة لكانوا في العاطفة كابناء ثلاثة آباء ، وما ذلت لغة شعب الا ذل ، ولا انحطت الا كان امره في ذهاب وادبار .

الصراع بين العربية و الفرنسية في الجزائر قبل الثورة

يعود الصراع بين العربية ، وهي لغة الجزائريين الوطنية وبين الفرنسية ، وهي لغة دخيلة اكتسحت نفوس بعض الجزائريين وتسربت اليهم عن طريق الاستعمار السياسى للجزائر من قبل الفرنسيين الى نحو قرن ونصف من الزمان . ونحن حين نستنطق التاريخ ، ونستفسر بعض ما بقي لنا من آثاره وذكرياته ، يجيبنا بان العربية كانت هى اللغة الرسمية للدولة الجزائرية والشعب الجزائرى معا ، قبيل الاحتلال الفرنسي . ومن آيتنا على ذلك ان الامير عبدالقادر ، وهو رئيس هذه الدولة ايام حرب المقاومة اثناء القرن الماضى ، كان عربيا ، بل لم يكن عربيا فحسب ، ولكنه كان شاعرا واديبا حفظت لنا الايام كثيرا من قصائده الشعرية التى ان لم تكن فى ذرى الفنون الشعرية فانها تدل بحق على روح عربى صاف ، وعلى عواطف انسانية رقيقة .

د. عبد المالك مرتاض

وفكرة الصراع بين لغتين : لغة غازية ، ولغة مغزوة ، ليس مما يحلو فيه الحديث ، اذا اعتبرنا انها فكرة معروفة فى التاريخ السياسى ، والتاريخ الادبى جميعا . فليس الفرنسيون وحدهم هـم الذين محـوا لغـات الشعوب التى استعمروها واستبدوا بسيادتها بقوة الحـديد ، ولكن معظم الدول الاخرى ــ ان لم أقل جميعها ــ القديمة والحديثة فعلت ذلك ايضا . وفى طليعة أولئـك العرب .

وعلى اننا لا نملك الا ان نخـــرج العرب من قائمة المستعمرين ، سواء علينا أأراد ذلك مؤرخو الغرب أم لم يريدوا ، لان التاريخ أصدق منهم ، ولان الحق أفصح من كتاباتهم التى كثيرا مــا تزوغ عن قصد السبيل حين يتناولون مسالة من مسائل التاريخ الاسلامى ، أو قضية من قضايا الفكر العربى بوجه عام . اقول : لا نملك الا ان نقرر بان العـــرب كانوا فاتحين ، ولكنهم كانوا ناشرين للحضارة الروحية التى كانت تتمثل فى الاسلام ومبادئه السمحة ، فى ذلك الحين . فلـم يكن العرب يرغمون المتمسحة ، ولا المتهودة ، على الاسلام ، أو يحضونهم عليه ويغرونهم باعتناقه ، وانما كانوا يفعلون ذلك مع المتمجسة ممن لـم يكن لهم دين سماوى .

واذن ، فانما كان دور العرب المسلمين ، فيما فتحوا من أقطار ، دورا تمدينيا وتهذيبيا ، كما أن نشر اللغة العربية لم يتم عن طريق تعمد محو اللغات التى كانت سائدة قبل الفتح ، وانما تـم فى معظم الاحوال ، عن طريق التمازج التـــام بالسكان ، والتزوج منهم ، وعدم الترفع عنهم فى الحياة اليومية الاجتماعية . (1)

على حين انك ترى الدول الغربية المستعمرة فى العصر الحـديث ، تسلطت على شـعوب أخـرى فاحتلتها ، واكتسحتها بقوة العـدد والعـدد ، واستولت على أرزاقهـــا وأقواتهـا وخيراتهـا ، فافقرتها وحرمتها ، وجهلتها وأخرتها . وان وقع فى بعض الحالات ، تمدين أو تحضير ، فانما كان على حساب محو التاريخ الوطنى، ومسخ الشخصية الاصيلة ، وطمس الحضارة القومية وهدم اركانها . كما كان يحدث بالقياس الى الاطفال الجزائريين الذين كانوا يتعلمون فى المـــدارس الفرنسيـة فان هـــذه المدارس الفرنسية ، كانت تعلمهم مـــع الفرنسيين تعليمـا فرنسيا محضـــا :

---

(1) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة - 52 القاهرة 1957

يمجد الحضارة الفرنسية ، ويدرس التاريخ الفرنسي ، ويمقت كل ما هو عربي . وهذا حق مبين لا يرتاب فيه الا من كان جاهلا بالاوضاع الثقافية التي كانت سائدة في النصف الاول من هذا القرن في الجزائر .

لا غرو اذا رأينا الفرنسيين أول ما يفعلون ، بعد ان استقر بهم المقام بعض الاستقرار ، هو أن يبادروا الى محاولة محو الشخصية الجزائرية الاصيلة عن طريق فرنسة الالسنة والعقول . ولكن هل وجد الفرنسيون في مهمتهم بعض السهولة واليسر ؟ ثم هل استطاعوا ان يقنعوا الجزائريين المخلصين بان اللغة الفرنسية هي اللغة التي ينبغي ان يتخذوها لهم لسانا ، أو يصطنعوها حين الكتابة والتفكير ، أو يعتقدوا - الى جانب كل ذلك - انها لغة العلم والحياة ؟

وانا نزعم لانفسنا ان الاجابة على هذه الاسئلة مما يسهل علينا ، ومصدرنا في ذلك معاصرتنا للاستعمار الفرنسي في الجزائر . والجواب : ان المستعمرين الفرنسيين كابدوا في ذلك كل عناء ، فلم يكن غرس لغتهم في قلوب الجزائريين بالامر الهين عليهم . اذ كان الجزائريون أصلب الناس عودا ، وأشدهم عنادا ، واكثرهم تمسكا بشخصيتهم التاريخية العريقة . ولم ينجح المستعمرون في بعض ذلك الا في المدن الكبرى . وفي العقود الاخيرة من وجودهم بوجه خاص ، وذلك حين تقدمت الوسائل العلمية التي كانوا يصطنعونها لهذه الغاية اصطناعا .

ولسنا نتحدث عن اللغة الفرنسية بعد الاستقلال ، فقد كان لها دور تعليمي بحت ، فلم يعد الجزائريون ينظرون اليها اليوم على انها لغة الغالبين المتسلطين المتعنتين ، وانما اصبحوا ينظرون اليها نظرة مجردة عن مثل هذه العواطف والاحقاد ، فاقبلوا على تعلمها باعتبارها احدى اللغات الحية الهامة ، الى جانب اقبالهم على تعلم لغتهم العربية ، دون ان يجدوا في ذلك شيئا كثيرا من التناقض والياس .

وان كنا ننادي بالغاء تعليم الفرنسية من المدارس الابتدائية الغاء تاما ، والابقاء عليها في المدارس الثانوية والجامعات فقط .

وكان الفرنسيون : سواء منهم من كانوا عمالا بسطاء ، أم موظفين في الشرطة ، أم موظفين في ادارات حكومية اخرى ، كثيرا ما يندهشون ويلم عليهم ما يشبه الذهول ، حين كانوا يتصلون بالجزائريين فيجدون معظمهم لا يتحدثون الفرنسية لانهم لا يتقنونها . فقد كان يبدو للباحث الاجتماعي ، أو الباحث في علم النفس الاجتماعي للشعوب ، وهو يشاهد هذه الظاهرة المذهلة ، ان أمل كثير من مستعمري الفرنسيين قد خاب ، وان خططهم قد فشلت ، وان خطواتهم قد شلت فأصبحوا من الخاسرين . والا فكيف يمضي قرن على وجود هذا الاستعمار في الجزائر ، حتى اذا يمم مواطن جزائري الربوع الفرنسية طلبا للعمل ، لم يجد جملة واحدة صحيحة يحادث بها الفرنسيين في المعامل والمتاجر والشوارع ، والحال انه كان يحمل الجنسية الفرنسية ؟

ومن اغرب ما رأيت من الفرنسيين ، اني لما كنت طالبا بفاس في مطلع النصف الثاني من هذا القرن ، مرض احد الطلاب الجزائريين منا ، فارتأينا ادخاله المستشفى . فلما قصدنا ادارة البلدية لملء استمارة معلومات ، اتفق ان كان رئيس مكتب تلك الادارة فرنسيا ، فانشأ يسائل الطالب المريض الذي كان لا يفهم من الفرنسية شيئا ، فغضب الموظف الفرنسي غضبا شديدا وقال لنا في امتعاض مر :

- ما رأيت عجبا عجابا كاليوم ؟ أجزائري ولا يتكلم الفرنسية ؟ انه يخيل الي ان هذا جاسوس متستر بستار الجنسية الفرنسية ليس غير ، والا فكيف يعقل ان يكون جزائري على الارض وهو يجهل لغته ...؟

وقد اجاب الطالب في شيء كثير من التحدي

والاعتزاز ، بأن الفرنسية فى الجـــزائر لا تكاد توجد الا فى المدن ، حيث ان معظم السكان فيها فرنسيون ، امـــا السواد الاعظـم من الشعب الجزائرى الذى يقطن البوادى والارياف فى غالبيته ، فهو لا يعرف عن الفرنسية شيئا كثيرا . وانـا الذى ترانى ، وتتحدث معى ، احد اولئك الذين لا يفهمون الفرنسية فما تنكر من امرى ؟ فقـد وجدت آبائى يتحدثون العربية فانا اتحدثها ، كما اتنفس الهواء فى الفضاء ، وكما أشرئب الى النور ، وكما أحب الحرية ، وكما أحرص عـلى الحياة .

انى جزائرى ، ولغتى عربية ـ بالرغم من أن القانون الدولى يعتبرنى ـ ظلما ـ فرنسيا . ولكن القانون سواء كان دوليا أم محليا ، لا يعنى انه يحترم الحقائق الثابتة ويقوم عليها قياما . فكم من قانون كان جائرا ، وكم من قانون جر عـلى الانسانية كثيرا من الشقاء والآلام ، وكم من قانون حرم الانسان من التعليم ، بل كم من قانون حظر عليه الخبز والماء ، وهما قوام الحياة للبدن ..

ولكن المترجم كان لبقا ، فلم ينقل كل كنـه هذا الحديث الى الموظف الفرنسى الذى كان الحقد باديا على صفحات وجهه ، فكفى الطالب الثائـر المريض كثيرا من الاذى . ان هذه الحادثة النفسية تدلنا بوضوح على مدى العسر الذى كان المستعمرون من الفرنسيين يكابدونه فى نشر اللغة الفرنسية واحلالها محل العربية فى الجزائر .

واذن ، فلم يستطع المستعمرون الفرنسيون ينجحـون كل النجـاح فى فرنسة العقـول الجزائرية . ولكن ما شان هؤلاء الكتـاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية وهم جزائريون ؟ اليس ذلك دليـلا على توفق المستعمرين فى غـرس لغتهم فى قلوب الجزائريين ؟ ثم كيف اننا نجـد كثيرا من الجزائريين يحسنون الحديث بهذه اللغة ؟

اما تعليل عدم نجاح الفرنسيين فى فرنسة الجزائريين نجاحا باهرا ، فلأن الامة الجزائريـة عريقة فى عروبتها ، اصيلة فى تاريخها ، عنود فى ابائها ، شديدة التمسك بما تراه حقـا . فلم يكن الجزائريون يوما ينظرون الى الفرنسية الا على انها لغة الاجانب . ثـم ان احـــدا من عقلائهم ومفكريهم ، وعوامهم ايضا ، لم يكن يعتقد أو يحاول ان يعتقد بأنه فرنسى من الفرنسيين . فقد كانوا يرون ذلك ، تلقائيا ، خيانة ليس من بعدها خيانة ، وأى خيانة ابشع من أن يتنكر المرء لاصـله ، ويخرج عن دائرة جنسه ، ويهجر لغة قومه ؟

بل اننا نستطيع أن نذهب الى اكثر من ذلك ، فنزعم بأن الامـة الجزائرية كانت من الحصـانة اللغوية والوطنية ، ما لم يكن من السهولة واليسر ان يؤثر فيها وجود الاستعمار ولو دام قرونـا طويلة . ولا يعود ذلك الى عوامل نفسية صرفة ، بل يعود ايضا الى الطبيعة والجغرافيا ، فقد كانت كثير من القبائل العربية الجزائرية متحصنة وراء جبال شامخة ، وبين انهار ووديان ، تعيش آمنة فى دينهـا ، مطمئنة فى نفسها ، لا تعـرف عن الفرنسيين المستعمرين قليلا أو كثيرا . وكانت تقيم قراها تلك الحصينة ، وكانها منفصلة عن ذلك الاطار العام الذى فرضه الاستعمار على الجزائريين فى المدن والحواضر فرضا .

ثم ماذا ؟

ان المستعمرين كانوا يـزدرون الجزائريـين ويحتقرونهم ـ واقول هذا لا للثلب ولكن للتاريخ ـ ودليلنا على هذا الازدراء ، انهم لم يؤسسوا لهم مدارس فى بواديهم وقراهم ، ولم يجبروهم على التعليم ، بل لم يحثوهم عليه . ولكن الفرنسيين لم يربحوا من وراء هذا التجهيل شيئا ، وخسروا كل ما كانوا يرمون اليه من ذلك . فهم خسروا من حيث ارادوا ان يربحوا ، وأخفقوا من حيث ارادوا ان يوفقوا . لان الجزائريين حين حرموا من المدارس الرسمية العصرية ، اقبلوا بابنائهم على الكتاتيب القرآنية ، ثم على المدارس العربية الحـــرة التى اسسها ابن باديس ونفر آخر من مخلصى الجزائريين

الوطنيين . فاتسعت الشقة بين العربية والفرنسية، وازداد الصراع بينهما واحتد احتدادا .

ولو فتح الفرنسيون مدارسهم فى وجوه الجزائريين . وعاملوهم معاملة ابنائهم . فسكبوا عليهم المنح . وساعدوهم بالتشجيعات المختلفة ، لكان لتاريخ اللغة العربية فى الجزائر شأن غير هذا الذى كان لها .

ولم يكن ميسورا على الاستعمار ان يعلم الجزائريين جميعا لبعض هذه الاسباب :

1 ـ ان الاستعمار كان يحتقر الجزائريين ، ويراهم ، فيما يبدو ، ليسوا اهلا للتعليم .

2 ـ ان تعميم التعليم فى جميع ربوع الجزائر بما فيها القرى النائية ، يسبقه تعبيد الطرقات ، وتهيئة جيش من المعلمين الاكفاء أو غير الاكفاء ، وهذا ما لم يكن الاستعمار متأهبا ليحتمل تبعته الثقيلة .

3 ـ ان اجبار الجزائريين على التعلم من جانب آخر ، كان يتطلب تخصيص ميزانية ضخمة لهذه الغاية . ولم يك مثل هذا ميسورا للاستعمار الجشع ، لان معظم خيرات البلاد من مزارع ومعامل ومتاجر ضخمة ، وشركات عامة ، كانت تحت قبضة كمشة من المعمرين ، بحكم النظام الراسمالى. فكانت خيرات الجزائر تتقاسمها السلطة الاستعمارية والمعمرون والشركات الاحتكارية بدون مراعاة لحقوق الشعب الذى جوع وجهل .

وقد رأينا ان الحكومة الجزائرية خصصت اليوم ما يقرب من مائة مليار فرنك قديم ، ولا يزال التعليم لم يشمل ابناء الجزائريين قاطبة .

ونتج عن ذلك نتائج ايجابية بالقياس الى الشعب الجزائرى منها :

1 ـ ان الجزائريين ظلوا بمعزل فى معظمهم عن الاحتكاك بالفرنسيين المستعمرين .

2 ـ ان الجزائريين ظلوا ، من اجل ذلك ، جاهلين بلغة الفرنسيين وحضارتهم ، فزادهم ذلك تعلقا بالحضارة الاسلامية ومقوماتها الروحية السامية ، وتشبثا بلغتهم الوطنية .

3 ـ ان هذا الحرمان اقنع الجزائريين بأن الاستعمار لا يريد لهم أى خير .

* * *

وأما ان هناك كتابا باللغة الفرنسية وهم جزائريون ، فهم بالرغم من انهم لم يكونوا يصطنعون غير هذه اللغة فى التعبير عن آرائهم ، وافكارهم ، ونظراتهم الى الوجود ، ومذاهبهم فى الحياة ، فان هذه الآراء فى حد ذاتها لم تكن تعدم فى كثير من عناصرها ، واصولها ، الروح الجزائرى النابض . فقد كان الذين يكتبون منهم عن الحياة فى فرنسا مثلا ، يحتالون فى ان يتحدثوا عن موضوع له صلة قوية ، أو ضعيفة بحياة الجزائريين هناك ، كما نجد فى قصة « رصيف الازهار لم يعد يجيب » . اما الذى كان يعالج الحياة فى القبائل الكبرى ، أو الحياة الجزائرية فى غير القبائل من ارض الوطن ، فانك لا ريب تشعر وانت تقرأ ما كتب ، بان الشخصية الجزائرية تتجلى بقوة ووضوح فى هذا الادب .

ولو نجح الفرنسيون فى فرنسة العقول الجزائرية نجاحا كاملا ، لما راودت اى جزائرى منا فكرة العربية والعروبة ، ولما حن احد منا الى ما ضيه العظيم ، ولا الى تاريخه المشرق ، ولا الى اصله العريق ، ولا الى حضارته الغنية بالمقومات الروحية والانسانية والاخلاقية .

* * *

وعلى انى لا اريد ان إعطى لهذه الآداب الجزائرية التى كتبت بالفرنسية كل هذه الاهمية التى قد تدرك من بعض ما قررت ، وان اضعها فى غير ما وضعت له ، فان رأيى فى هذا الادب سىء جدا ، وقد اكون مخطئا فيما ارى وقد اكون قاسيا فيما احكم ، ولكننى لا اريد ان اكون منافقا فى آرائى ، فاجهر بغير ما اخفى ، واظهر غير ما أبطن .

ولو اردت ان اقول ما اعتقد ، لقررت بان هذا الادب غريب في نفسه ، ومنفى من موطنه الذي كتب فيه ، ولم يستطع ان يلعب دورا كثيرا في نهضة الادب المعاصر بالجزائر ، فضلا عن ان يلعب دورا خطيرا في اذكاء نار الثورة التي قيظت للشعب الجزائري ان يكسر قيود الاستعمار الثقيلة . وقد قررنا منذ قليل بان حرمان معظم الجزائريين من التعليم الرسمي الفرنسي ، ادى الى نتيجـــة عكسية خطيرة بالقياس الى وجود الفرنسيين في الجزائر . وانما يدل هذا على ان الجزائريين الذين لم يتعلموا الفرنسية ، أو تعلموهـــا الى جانب تعلمهم العربية ، ظلوا ينظرون الى هذه اللغـة الاستعمارية نظرة حذرة فيها كثير من الخـــوف والاشفاق . فكان ذلك مما باعد الشقة بين الجانبين، وعسر التفاهم بين الفرنسيين كمستعمرين ، وبين الجزائريين كمواطنين وطنيين .

* * *

وقد ظل هؤلاء الكتاب الجزائريون بالفرنسية ، في معظمهم ، معجبين كل الاعجاب بالحضــــارة الفرنسية بوجه خاص ، والحضارة الغربية بوجه عام ، جاهلين بالتــــاريخ العــربي ، غير ملمين بمعالم الحضارة الاسلامية ، اذ أنى لهم ان يدركوا شيئا من ذلك وهم محرومون من الالمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي وكنوز حضارته الغنية بمعطياتها الانسانية ؟!

فقد كانت هذه الحضارة العربيـــة ومعطياتها ، بالقياس الى كتابنا بالفرنسية ، في بيت مغلق وهم لا يملكون مفتاحه ، ولم يكن لهم سبيل ليملكوه .

لسنا نتهمهم بغير هــــذا ، فلم تكن تنقصهم الوطنية ، ولم يكن ينقصهم الشعور بالمسؤوليـــة كما يقال ، وانما كان ينقصهم شيء واحد فقط ، ولكنه عظيم الاهمية ، وهو الالمام باللغة العربية التي كان شعبهم يتحدثها ، فحرموا كل شيء .

وعلى ان تعلمهم الفرنسية جر عليهم مصيبة لا تبرح بعض آثارها ماثلة في المجتمع الجزائري الى اليوم ، وهي انهم اقبلوا على محاربة العربيـــة مع من يحاربها من الفرنسيين ، متهمين أهلهـــا بالجمود ، رامين اصحابها بالقصور ، مسلطين عليهم كل وصمة ،وملحقين بهم كل عار وشنار .

والذي يتأمل هذا الامر ويسبر أغواره ، يعذر هؤلاء القوم ... فهم ليسوا مذنبين من حيث انهم اقحموا في مدارس فرنسية وهم أطفال لا يملكون من أمرهم شيئا ، فشربوا من ألبان هذه اللغة ، وتغذوا بغذائها ، وألموا بتاريخها ، وتشبعوا بآدابها. فهم اذن من هذه الوجهة معذورون .

ولكن العذر الذي التمسناه لهم ، لا يلبث ان يزول ، اذا ذكرنا انهم تنكروا للغتهم ، وحكموا عليها بالقصور والجمود وهم لها جاهلون . ومن الخطأ العظيم ، والاثم الكبير ان تحكم على شيء وانت أجهل الناس له ، وأبعدهم عن معرفة حقائقه ، وفهم كتبه . ولو حكم قاض على متهم بجريمة أو مخالفة بالسجن أو الاعدام ، دون ان يكون قــد الم بملف المتهم فأشبعه دراسة ، معتبرا كـــل القرائن والظروف التي تحيط بالجريمة أو المخالفة ، لما ارتبنا في انه قاض غشوم ظلوم لا يعرف الحق ، ولا يحترم العدل والانصاف .

فكيف بهؤلاء الذين حسبوا العربية لغة الجمود والتأخر ، فراحوا يكيلون لها التهم ، ويرجفون في شأنها بالاباطيل التي لا تقال !؟ ولعل أشــــد هؤلاء مغالاة كاتب ياسين الذي لا يبرح يغط في بعض النوم ، حين يزعم ان العربية قد تبقينـــا متأخرين ...

* * *

فكأني بهؤلاء السادة وهم يحسبون ان اللغة هي التي تقدم الشعوب ، ولو أدركوا الحق واهتدوا الى سبيله ، لعلموا ان الشعوب الحية العاملة هي التي تقدم اللغات . فكم من شعب متأخر وهــو يتحدث الفرنسية ، ولم تنفعه هذه اللغة في شيء ، وكم أمة خاملة لا شأن لها في النباهة والمجد ، وهي مع ذلك تتحدث الانجليزية !

وقد وجدنا اللغة الصينية من اللغات التى لم تنتشر فى العالم ولم يقبل على تعلمها الناس ، ومع ذلك فان الصينيين صنعوا بهـا القنبـلة الذرية ، وأمسوا من الدول التى يحسب لهـا الحسبان . وقل مثل ذلك فى اليابان وما حققته من تقدم صناعى عظيم ، دون ان تتبنى لغة اجنبية اكثر انتشارا ، واشهر فى العالم ذكرا .

انما اللغة كائن حى يتطور ويجمد ، ويتأخر ويتقدم ، ويحيـا ويموت ، كالانسان بالذات . فعسى ان يقتنع بعض هؤلاء الناس ، بان الامـة التى تريد ان تتقدم حقا ، وتسود حقا ، فان أول ما ينبغى ان تفعله ، هو أن تقبل على لغتهـا فتحييها وتتشبث بها ، ولا سيما اذا كانت لغـة حضارية كالعربية . والا فهى امة مهرجة لن يكون لها شأن فى التاريخ اذا راحت تبحث عن نفسها فى لغات غيرها من الامم .

* * *

وعلى ان هنالك مسألة نفسية لابد من اثارتها فى هذا المقام ، ولا بد من اعطاء رأينا فيها واضحا ، ذلك بان كثيرا ممن يجهلون حقيقة روح المواطن الجزائرى ، يرون ان الجزائرى متفرنس بالطبع ، طالما كان يصطنع الفرنسية ويرطن بها . ونحن نحسب ان هذا الرأى سيء جدا ، وهو غير قائم على أساس من الحق والنصفة ، فلم يكن الجزائرى بمتفرنس القلب البتة .

وتدل على ذلك دلائل ، وتشهد له شهادات ، وتبرهن عليه آيات بينات . وما اخال الا أن أكبر هذه الآيات وأعظمها ثورة الجزائريين على وجود الاستعمار الذى نحن بصدد الحديث عن لغته ، ومدى تأثيرها فى حياة وتفكير الشعب الجزائرى . هذه واحدة .

واما الثانية ، فهى ان الثقافة الفرنسية ـ كما أسلفنا ـ لم تتمكن تمكنا عميقا الا من نفوس نسبة ضئيلة من الجزائريين الذين اتيح لهم ان يدرسوا فى المدارس الفرنسية على نحو واسع ، مما جعل عامة الشعب الجزائرى يظـل جاهلا بالادب الفرنسى ، والتاريخ الفرنسى ، والفكـر الفرنسى فى عمقه وأصالته .

وحتى اولئك الذين كنت تجدهم فى المـدن الجزائرية ، يتحدثون اليك بالفرنسية ، حين يدعوهم داعى الاضطرار ، أو داعى الاختيـار سواء ، ليسوا فى حقيقة امرهم ، الا اصحـاب كلمات فرنسية معدودة لا تكاد تعبر الا عن المعانى السطحية والمظاهر الحسية . أما ما وراء ذلك من المعانى العميقة ، والافكار العالية ، فقد تجدهـم عنه بعيدا .

واذن ، فأصالة الشعب الجزائرى ، وحنينه الى عروبته ، واهمال الانسان الجزائرى فى البادية اهمالا كليا واغلاق أبواب المعرفة فى وجهه ، كل هذه العوامل تجعل الباحث يقرر بحـق ، بان الجزائر كانت مستقلة من الناحية الاجتماعية ، عن الاستعمار الفرنسى استقلالا يكاد يكون تاما . ولا نكاد نستثنى من ذلك الا بعض المدن التى كانت تكتظ بالاوروبيين كبلعباس ووهران مثلا .

فهل يحق لنا ان نقول بعد كل هذا : ان البادية والقرى الجزائرية لم تفد من وجـود الاستعمار الفرنسى الذى كان طويل العمر فى هذه الارض ، لا اقتصاديا ، ولا حضاريا ، ولا ثقافيـا ، ولا اجتماعيا ، ولا لغويا ، بل ظل المجتمع الجزائرى فى البوادى والقرى النائية ، على ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسى : لم يتقدم ولم يتأخر ، ولـم يتبدل ولم يتغير ؟

انا نميل الى ذلك كل الميل .

ذلك بان تحويل المجتمع من طور الى طور ، يستدعى التمازج والتخالط والتعامل على نحـو من المساواة تام . وقد وجدنا الاستعمار الفرنسى منطويا على نفسه ، بحيث لم يكن اهله يمازجون الجزائريين ، ولم يتعاملوا مع الشعب على نحو من المساواة قط ، ولم ينظروا الى هذا الشعب فى مجموعه على انه يتألف من بشر جديرين بالاحترام والحرية والحياة . فساء ظن الجزائريين بالمستعمرين، وعزفوا عن عاداتهم ، ونظروا اليها نظرات حذرة فيها كثير من الاشفاق .

وقد ظل هذا الصراع الاجتماعى الحاد قائمـا بين الجانبين الى ابان الثورة الكبرى ، بل الى سنة اثنين وستين من هذا القرن ، وهى السنة التى اعترفت فيها فرنسا بسيادة الشعب الجـزائرى بعد حرب ضروس قدم فيها الجزائريون اكثر من مليون شهيد .



الوجه الحقيقي لديمقراطية التعليم

عبدالقادر فضيل

تتلخص مثل التربية المعاصرة فى المناداة بضرورة العناية بجميع الافراد أو ما يعبر عنه « بالتربية للجميع » ذلك ان توسيع نظام التعليم وجعله يشمل كل الفئات من الامور التى اصبحت تطالب بها المجتمعات الحديثة وبخاصة المجتمعات الاشتراكية التى تؤمن بحق كل فرد فى الحياة الكريمة ، ومن هنا نجد ان التخطيطات التربوية فى هذه المجتمعات تصرف كل جهودها لجعل التعليم حقا لكل فرد مهما كان مستواه الاجتماعى
والاقتصادى . ومن هذا الاتجاه انبثقت فكرة « ديمقراطية التعليم » حيث اننا نتحدث اليوم كثيرا عن المقادير الكمية التى تستطيع النظم التربوية ان تفسح لها المجال وتوفر لها المكان والزمان لتأخذ حقها فى التعليم . كما اننا نتحدث كثيرا عن نوع الجهود والتدابير التى تسمح باستيعاب كل الاطفال الذين اهلتهم اعمارهم لتلقى الخبرات التعليمية ومن المعلوم ان (الجزائر) من البلدان التى تعمل جاهدة وبكل عناية لتحقيق مبدأ ديمقراطية التعليم بل انها اشد البلدان حرصا على استثمار كل امكانياتها بغية تحقيق آمال المجتمع فى الحصول على قدر من المعرفة والتكوين يمكن افراده من التمتع بالحياة المستقرة والعيش المنسجم ويؤهلهم للاندماج والتوافق مع الظروف والاوضاع الاجتماعية المختلفة ، بيد انه من الصعوبة بمكان تحقيق هذا الهدف ما دام نظامنا التربوى لا يعنى الا بالاستمارات الكمية ــ فالجانب الكمى فى العمل التربوى لا يمثل الا جانبا واحدا من جوانب عديدة ومختلفة تتظافر كلها لتجعل الحقيقة التربوية ذات اثر فى الحياة والظروف والناس جميعا . ولكن لا ينبغى ان يقودنا هذا الى الاستهانة (جملة) بقيمة الخطوات التى تخطوها والانجازات التى تحققها يوما بعد آخر فى هذا الصدد ، حتى ولو كانت النتائج غير كافية .

ان الجهود التى تبـــذل فى هذا المجال لتعبر بصدق عن رغبة الحكومة فى تطبيق مبــدأ تكافؤ الفرص الذى هو أحد اركان الديمراطية الحقة ـ غير اننا ما زلنا بعيدين عن السبيل الذى سيمكننا من التطبيق الحقيقى لديمقراطية التعليم التى لا تتمثل فى الاستثمارات الكمية فحسب بل تتمثل بالاضافة الى ذلك فى الاستثمارات النوعية ـ كما سنشرح ذلك .

نحن نعرف ان طاقة الاستيعاب (استيعاب الاطفال) ترتفع سنة بعد أخرى نظرا للمجهودات الضخمة التى تبذلها السلطات فى مجال التربية والتعليم . ونحن واثقون من ان الثورة زاحفة الى الامام لا يصدها عن زحفها شيء . ويكفي كدليل على ذلك ان نتتبع الاحصائيات السنوية الخاصة بتطور معدلات الاستيعاب لنرى الانجازات التى تمت فى هذا الميدان . فلقد كان عدد التلاميذ بالمدرسة الابتدائية فى عام 1963 أقل من مليون تلميذ وقد ارتفع هذا العدد فى ظرف ســـبع سنوات الى مليونين . وهذا ما يدل على ان المساعى التى تبذل من اجل تحقيق الاهداف الكمية مساع حميدة يجب تشجيعها . ولكن هذا كله لا ينبغى ان ينسينا العديد من الضحايا الذين ترمى بهـــم المدرسة الى الشوارع كل عام دون ان تمكنهم من السلاح الذى يؤهلهم للحياة .

لقد بلغ عددهم فى عام (64 ـ 1965) حوالى 54٪ وفى عام 67 ـ 1968 41٪ (1) .

واذا نظرنا الى البيانات الاحصائية التى تصدرها مديرية التخطيط والتوجيه المدرسى بوزارة التعليم نتبين ضخامة هذه المشكلة (مشكلة الفاشـلين الذين ينقطعون عن المدرســة دون ان يتمــوا دراساتهم . والذين تقدر اعدادهم باكثر من 50٪) ان الاغلبية الساحقة من أبنائنا يكبو بهم الحظ عند نهاية التعليم الابتدائى وسواء حصــلوا على الشهادة ام لم يحصلوا فالنتيجة تكاد تكون واحدة.

وليتهم يجدون بعد ذلك مراكز مهنية أو مدارس خاصة تعنى بهم وتحفظهم من الضياع الذى يهددهم ويحفظ المجتمع مما قد يحدثوه من اضطراب .

وفى نفس الوقت تخلق منهم اطارات تتحمل دورها المتواضع فى مختلف النشاطات . ان نظام التعليم بوضعه الحالى لا يحقق الاغراض التى وجد من اجلها (لا يستطيع تلبية حاجات الافراد ولا حاجات المجتمع) وبالتالى لا يحقق مبدأ الديمقراطية فى حين انه وحده المسؤول عن تكوين الانسان بوصفه غايـة يتــولى مختلف النشاطات بصفته وسيلة للانتاج فقط .

واذا كان كثير منا ما زال يعتقد ان هــــذه الخطوات التى نخطوها كافية لجعل الديمقراطيـة التعليمية شيئا واقعا وملموسا . (فى أمد قريب) فلانهم يرون أن الديمقراطية متمثــلة فقط فى توزيع التعليم توزيعا عادلا من الوجهة الاقتصادية (أو من الوجهة الشمولية) وهذا خطأ تربـوى ـ يجب فى رأى تصحيحه ، اذ لا ينبغى الاعتقاد بان تحقيق مبدأ ديمقراطية التعليم الذى هو أحد الدعائم الكبرى (2) لسياستنا التعليمية فى الجزائر معناه : جعل المدرسة تسع كل الاطفال الذين بلغوا السن الدراسية لان توفير المكان للطفل ليس كل شيء فى العملية التربوية ، فقد نستطيع فى ظروف قصيرة ـ أن نقوم باجراءات ثورية حازمة نتمكن بواسطتها من توفير المدارس الكفيلة بالاستيعاب الكلى لمجموع الاعداد القادرة على التعليم . ولكن الشيء الذى لا نستطيعه فى ظروف قصيرة ـ هو القيام بتدابير حاسمة من شأنها ان تغير وجــه العملية التربوية فى حد ذاتها . تدابير تخلق لنا أولا النظام التربوى المناسب الذى يستطيع تلبية واشباع حاجات الطفولة من جهة والمواءمة بينها وبين الظروف الخارجية من جهة ثانية . وتخلق لنا ثانيا المعلم أو المربى القادر على الاضطلاع بهـذه المهمة الصعبة . اذ ليس كل من يمارس التعليم شخصا قادرا على رسالة التعليم ـ خاصة وان التعليم أصبح الان لا يقتصر على اكساب المتعلم مهارات وانماطا من السلوك والمعارف وانما أصبح يهدف الى اكساب القدرة على التكيف .

قلت : اننا لا نستطيع ـ فى امد قصير ـ (بالنظـــر الى امكانياتنا البشرية) ان نغير من

(1) احصائيات 69 (مديرية التخطيط والتوجيه المدرسى)

(2) تقوم سياستنا التعليمية على دعائم ثلاث : 1) ديمقراطية التعليم 2) تعريب التعليم 3) اعطـــاء الاولوية للعلوم .

الاوضاع التعليمية حتى نجعلها اوضاعا تعنى فيها بالناحية النوعية الى جانب الناحية الكمية كما نراعي فيها المشاكل المتعلقة بالمستوى التحصيلي والعوامل المعوقة لهذا المستوى وعلاقة ذلك بالصحة النفسية التى هى هدف التربية الاسمى . واذا كنا لا نستطيع تحقيق ذلك فى أمد قصير فلا يعنى اننا عاجزون كلية عن تحقيقه خاصة وأننا نتمتع بميزتين قلما توجدان فى بلدان العالم الثالث هما :

1) توفر الامكانيات المادية .

2) وجود الحماس الثورى ، وهاتان الميزتان كفيلتان بأن تذللا كل صعب .

ولعله من المفيد هنا ان نذكر اننا فى الجزائر نستهلك فى مجال التعليم موارد ضخمة تقدر بالملايين من الدينارات (3) وغرضنا هو اتاحة الفرصة لجميع أبنائنا وبناتنا لكى يجدوا اماكنهم فى المدرسة غير اننا لا ننظر الى ما بعد ذلك ، فهناك الالاف ممن يدخلون المدرسة ولكن يخرجون منها كما دخلوا ، كما سبقت الاشارة الى ذلك . لان المدرسة ما تزال عاجزة (4) عن فهم دورها كمؤسسة تربوية مهمتها تخريج القادة والمواطنين القادرين على النهوض بأنفسهم وبمجتمعهم ، فما الفائدة فى ان نستنفد طاقاتنا ونجند امكانياتنا لبناء المدارس ولكننا بعد ذلك لا نحاول ان نجعل هذه المدارس قادرة على بناء البشر .

فالمدرسة كما يراها المربون ، انما تنشأ من اجل الطفل لتهيىء له بيئة يعيش فيها وينمو وفقا لقوانين النمو الطبيعية الخاصة به .

ومهمة العاملين بها بناء الذات البشرية بناء يقيها عوامل الصراع ويحفظها من التداعي ويمنحها الشعور الجماعي العميق الذى على اساسه يقوم تمثل القيم الاجتماعية والانماط الثقافية ، بناء تشترك فيه الذات نفسها باعتبارها مجموعة من القوى والاهتمامات والنوازع ، ومن المعلوم ، أن بناء الذات هو المثل الاعلى للتربية الحديثة .

يقول (دوركايم . « ان الانسان الذى تريد التربية ان تحققه ليس الانسان كما صنعته الطبيعة ولكن الانسان الذى يريده المجتمع »(5) ولكن البيئة المدرسية عندنا ما تزال بيئة تقليدية (أى بيئة تعليمية وليست بيئة تربوية) تستقبل فى رحابها حشودا ضخمة من الطلاب يختلفون ميولا واستعدادا وقد يصل عددهم فى الفصل الواحد أكثر من (60) تلميذا الامر الذى يؤدى الى تشتت الجهد وتضاؤل العائد واستحالة القيام بعملية (البناء) التى هى عملية اساسية . ولننظر بعد ذلك من هو الشخص الذى تستطيع المعاناة التى يتطلبها تكوين وبناء مثل هذه المجموعة الضخمة ، لا أعتقد ان احدا يستطيع القيام بهذه العملية على الوجه المرضى مهما كانت خبراته . ولو كان (المعلم الاول)(6) خصوصا اذا علمنا ان المقياس الوحيد الذى نعتمده فى استقبال وتصنيف هؤلاء هو قياس العمر الزمنى الذى لا يدل دائما على نضج الطفل واستعداده . ومن هنا برزت مشكلة الفروق الفردية التي كثيرا ما تعرقل سير العمل المدرسي وتعقد مشكلة التعليم ومن هنا ايضا تبرز مشكلة المتخلفين الذين لا يستطيعون مسايرة زملائهم الاذكى منهم وينتج عن ذلك كله جذب واختلال فى العملية التربوية (تضاؤل فى الانتاج المدرسى وتضخم فى العادم) يتبع ذلك حتما ضياع فى الجهد والمال .

ان الديمقراطية تستوجب منا تلافى هذه النقائص وتهيئة الغذاء العقلى المناسب لقدرة واستعداد كل متعلم . وتقتضى كذلك تقديم العلاج الناجع لكل انحراف دراسى مهما كان نوعه . لاننا ان لم نفعل ذلك فسنظلم مجموعة كبيرة (قد يصلون الى ربع المنتمين الى المدرسة) لا تستطيع مستوياتهم العقلية ان ترقى الى مستويات النخبة أو المتوسطين ـ وظلمنا لهؤلاء يكون بتطبيق المنهج العادى الذى لا يناسب جميع المستويات العقلية على الجميع .

---

(3) بلغت ميزانية التعليم الخاصة بالتسيير فقط سنة 1970 (980 000 000) دج

(4) العجز هنا معناه عدم الادراك .

(5) معالم التربية العربية ص 135

(6) المعلم الاول هو ارسطو

وما ذنب هؤلاء الذين حرمتهم الطبيعة الاستعداد الكافي والموهبة اللازمة ؟ ليس لهم ذنب الا كونهم لم يجدوا من يفهمهم ويدرك بعمق حقيقة وضعهم. وكثيرا ما تكون المعاملة والجـو المدرسي والمنهاج المطبق سببا من الاسباب التي تؤدي الى ركـود الموهبة وتبلد الذهن وتعطل الاستعدادات ثم اننا بعد ذلك نعتبر هذا الطفل أو ذاك عاجزا عقليا أو نفسيا عن ممارسة العمل المدرسي بنجاح. أليست المدرسة هي المسؤولة عن كل هـذا ؟ ألسنا مسؤولين عن فشل مجموعة كثيرة من الاطفال في حياتهم الدراسية، وبالتالي في حياتهم الاجتماعية ؟ يجيبنا عن ذلك جماعة من الباحثين في جامعـة (آيو) عندما يقولون : « ان العباقرة يصنعون واننا نحن المسؤلون عن بعض ضعاف العقول من الاطفال »(7) واذا كان العباقرة يصنعون فاين يا ترى يصنعون ؟ لا شك ان المعمل الذي يصنع القادة ويكون العباقرة هو المدرسة التي تدرك دورها في الحياة وتعلم ان الذين يأتونها يتفاوتون استعدادا ويختلفون ميولا ومن واجبها ان تساير كلا حسب استعداده وتفسح المجال لمعالجة كـل وضع ظهر شذوذه.

يقول الدكتور جيلبرت Gilbert : « انه لا يوجد أطفال كسالى وانما هناك اطفال مرضى ان الكسالى هم الآباء والمربون والاطبـاء الذين لا يبحثون عن اسباب الضعف الذي يصيب الطفل » وكأني به هنا يذكر بمسؤولية المجتمع (بما فيه آباء ومربون وأطبـاء ازاء الطفولة) اذن نحن مطالبون بالعناية بجميع الاطفـال مهما كانت قدراتهم حتى نحقق لهم – على الاقل – قـدرا ولو يسيرا من التعليم والتكوين يؤهلهم للحياة العامة ويجعل نهم مواطنين منتجين لا مستهلكين فقط. كما اننا مطالبون باستغلال قدرات المتفوقين أو مسايرة استعداداتهم الى اقصى حد لان ذلك يجعلنا نوزع الخدمات التعليمية توزيعا عادلا لا من الناحية الكمية فقط ولكن من الناحية النوعيـة ايضا. وعند ذلك نحس بارتياح في أعماقنـا ونشعر باننا قمنا بواجبنا فعـلا نحو الاجيال الصاعدة.

وما دمنا لم نقم بكل هذا فان الوجـه الحقيقي لديمقراطية التعليم ما يزال غير واضح المعـالم باعتبار ان الفرص التعليمية التي نتيحها لاطفالنا – غير متكافئة من الوجهة التربوية – بحيث اننا لا نقدم التعليم المناسب للاستعدادات والميـول ولا نراعي عند التقديم الشروط النفسية والتربوية المساعدة على جعل عملية التعليم عملية تلقائيـة مثمرة.

واذا كانت هذه الجهود التي نبذلها والمشاريع التي نقوم بتحقيقها عاما بعد آخر لا تحقق الغرض المطلوب ولا تجسم الواجهة الحقيقية للديمقراطية التعليمية فما هي التدابير التي بقي علينا أن نقوم بها لتحقيق الديمقراطية الحقة وبعبارة أخرى ما هي الجوانب التي تتمثل فيها الديمقراطية التعليمية ؟ وكيف يتم تطبيقها على الصعيدين النظري والعملي ؟ ثم ما هي المشاكل التي يثيرها هذا التطبيق ؟ كل ذلك نستعرضه في النقاط التالية :

لا يمكن تحقيـق الديمقراطية التعليميـة الا بمراعاة أمور منها :

1 – تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص تطبيقا علميـا وتربويا.
2 – العناية بمشكلة المتخلفين دراسيا وعقليا.
3 – جعل الصحة النفسية أسمى اهداف التربية.
4 – تصحيح الاوضاع التعليمية والانظمـة التربوية.
5 – تحسين المستوى المعيشي والصحي، وضمان مجانية الكتاب.

أولا : مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية :

من الدعائم الكبرى التي تقوم عليها (ديمقراطية التعليم) مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية الذي سبق ان المعنا الى بعض جوانبه في اشارات موجزة، ونريد هنا ان نركز أكثر ونبحث الموضوع بحثـا مفصلا بغية ابراز القيم التربوية التي ينطوي عليها.

ان مبدأ تكافؤ الفرص ليس معناه المساواة في الفرص كما يتبادر الى الذهن أو ضمان مقعـد دراسي لكل تلميذ، وانما معناه ان يجد كل فرد الظروف والشروط التعليمية المناسبة لـه بحيث يتمكن من استغلال قدراته في التعلم الى اقصى حد تؤهله له هذه القدرات.

(7) اتجاهات في التربية د محمد جمال صقر ص

1 ـ مشكلة التفاوت فى الاستعدادات :

من المعلوم ان بين الاطفال تفاوتا فى الاستعدادات كما اثبتت ذلك مقاييس الذكاء ، فهناك من يستطيع التكيف مع المناهج العادية واستيعاب فقراتها دون مشقة ، وهناك من لا يستطيع ذلك الا بجهد ومشقة ، ولفترة اطول ، وهناك صنف لا يستطيع ذلك ولو استنفد كل جهوده ، ثم ان هناك بين الاطفال من يستطيعون اجتياز المراحل التعليمية فى المدة المقررة لهـا دون رسوب أو تخلف (وهم أقلية)(8) ولكن هناك آخرون لا يستطيعون ذلك لان امكانياتهم لا تسمح لهم بذلك ، ولذا تمنحهم المدرسة أحيانا فرصا أخرى ليستطيعوا تدارك ما فاتهم واللحاق بالقافلة من جديد ، ومن هنا نجد ان مبدأ تكافؤ الفرص يحتم على القائمين بالتربية أن يراعوا كل هذا (سواء فى وضع المناهج أو فى تكوين المعلمين أو فى اختيار الطرق أو فى اقامة النظام التعليمى العام) حتى يهيئوا لكل صنف الخبرة المناسبة والمنهج الملائم والمدة اللازمة .

وقد يضطر القائمون بالتعليم تحقيقا للمبدأ المذكور وتمشيا مع قدرات الاطفال الى انشاء مدارس وفصول خاصة تعنى بذوى القصور العقلى توضع لها مناهج خاصة ونظام مخالف للنظام العادى ، وليس هذا كل شىء بل المعلم هو الآخر مطالب عند قيامه بالعملية التعليمية (فى الفصول العادية) وغيرها باحترام هذا المبدأ ، وبتطبيق اصوله المتمثلة فى مراعاة الفروق الفردية بحيث يوزع خدماته توزيعا يتناسب وقدرة كل فرد على الاستفادة من هذه الخدمات ، وهـذا يدعوه الى تنويع العلاقات وتغيير الاساليب فى الحصة الواحدة ليستطيع تلبية حاجات طلابه المتنوعة ، وتمكينهم من التفاعل مع الخبرات المقـدمة حتى يكون التعليم ايجابيا ومثمرا ، ويثمر التعليم متى وجد المتعلم رغبة ملحة تدفعه الى **التحصيل والاستفادة** . ونعنى بالتحصيل حدوث عملية التعلم (تعلم الحقائق والمعلومات بما فى ذلك الاتجاهات والقيم والاهتمامات وغير ذلك) من الاشياء أو المهارات التى تهدف اليها المدرسة والنظام التعليمى عموما ، غير انه ينبغى التفريق بين الاستعداد للتعلم وبين التحصيل ونقصد بالاستعداد (الذكاء) كما تقيسه اختيارات الذكاء ، وعلى هذا يفترض ان لو تساوت الفرص امام كل المتعلمين فان الفروق بين درجاتهم تبقى قائمة بالنظر الى اختلاف استعداداتهم للتعلم ، اللهم الا اذا وزعت الفرص وفق هذه الاستعدادات.

(ب) هل واجب الدولة ينتهى بانتهاء التعليم الاولى ؟

ان معظم الباحثين يتفقون على ان واجب الدولة فى مجال الخدمات التعليمية يجب ان يستمر الى المرحلة التى تتحملها ميزانية الدولة وكلما ارتفعت هذه المرحلة كان ذلك دليلا على شعبيتها وديمقراطيتها وعنوانا على انها شاعرة بمسؤوليتها الانسانية . على ان لا تقل هذه المرحلة عن مرحلة التعليم الابتدائى الذى يعتبر القاسم المشترك بين جميع المواطنين .

وهذا ما نجد صداه فى المخطط الرباعى الذى يعبر عن اهتمامات واختيارات الثورة (فى الجزائر) ولكن ما دامت بلادنا تتمتع بامكانيات مادية هائلة فان اتاحة الفرصة التعليمية للفرد يجب ان تستمر ما دام الفرد قادرا على التعلم . وما دامت امكانياته العقلية تسمح له بذلك ، اذ ليس من الديمقراطية فى شىء ان نسمح للبعض بمواصلة التعلم ونرفض البعض الآخر بحجج سفسطائية واعتمادا على مقاييس اعتباطية واحكام تكاد تكون ذاتية الامر الذى يخلق غبنا فى نفوس الافراد الذين لم يكن الحظ بجانبهم من اجل الاستمرار فى مزاولة التعلم .

وهذه حالة سيئة ستكون لها آثار سيئة لا على الافراد فحسب بل على المجتمع نفسه لانها تجعل كثيرا من الجهود المادية والبشرية ضائعة أو غير متكافئة مع المكاسب ولانها تجعل المجتمع يضحى بكثير من الطاقات الحية التى لو استعملت واستثمرت خاماتها لكانت مصدر خير وثراء ، ثم انها تخلق نوعا من الطبقة (طبقة تصل الى قمة الثقافة بفضل مواهبها الممتازة أو حظوظها السعيدة وطبقة يبقى افرادها فى شكل أميين) فى حين ان مجتمعنا الاشتراكى يعمل جادا على اذابة الفوارق بين الطبقات والقضاء على كل المميزات (الثقافية

(8) حوالى 20٪ واحيانا أقل (حسب دراسة تجريبية قمت بها فى منطقة بوزريعة)

وغيرها) . ولا يقـــال : ان مجتمعاتنا الحاضرة يكفيها انصافا وعدلا انها تحاول ان تضمن لكل الناس حق مزاولة التعليم الاولى على الاقل .

وليس يمكن ابدا ان يصل مجتمع من المجتمعات بجميع افراده الى قمة الثقافة والتعليم . لان هذه مثالية لا يستطاع تحقيقها الا في الخيال ، ثم ان الافراد انفسهم ليس جميعهم مؤهلا لهذه المثالية .

هذا الاعتراض صحيح من وجهة ولكنه ليس صحيحا من وجهة ثانية ــ اذ لست اطالب المجتمع بتعليم كل افراده تعليما أكاديميا . اذ هذا ليس في مكنته ولا في مكنة كل الافراد . ولست اطالبه ايضــــا بتأمين عموميات وخصوصيات الثقافــــة للجميع . ولكني اطالبـــه بان لا يجعل امر ذلك موكولا الى الصدف وبان لا يجعل عملية الاختيار والتقدير مبنية على اعتبارات عشوائية ذاتية . قد تضر بالبعض وتظلم البعض الآخر ، ولنفرض اننا سلمنا جدلا بصدق كلية هذا الاعتراض فهــل يعقل ــ ونحن في عصر الكشوف العلمية ــ الاكتفاء بمبادىء التعليم الاولى . اننا في عصر ارتفع فيه مفهوم التعليم من مجرد محــو الامية الى تكوين افراد منتجين وقادرين على الارتفـــاع بمستواهم الذهني والاقتصادي من جهـــة وعلى النهـــوض بمستوى المجتمع من جهة ثانيـــة . على ان الذين وقف بهم الحظ عند نهـــاية التعليم الابتدائي لا يلبثون ان ينضموا الى رصيد الاميين الذي هــم عالـة على المجتمع دائمـــا باعتبارهـــم اشخاصا مستهلكين فقط .

والحل العلمي السليم هو الاسترشاد بالمقاييس العلمية التي تحدد مستوى واستعداد كل فـــرد من الوجهة النظرية والعملية . ومدى ما يستطيع بلوغه بالاعتماد على هذه الاستعدادات والميول . وعلى ضوء ذلك نهيىء :

1 ــ الظروف التعليمية المناسبة لذوى القدرات العقلية المحدودة .

2 ــ الظروف التعليمية المناسبة لذوى الميـول والنزعات التخصصية .

3 ــ الظروف التعليمية المناسبة لذوى القدرات العقلية العالية .

4 ــ الظروف العلاجية المناسبة لذوى القصور العقلي والعاهات .

ينبغي ان يتم كل هذا دون تفريق بين فرد وآخر وفئة واخرى وبغض النظر عن المستويات الاجتماعية والاقتصادية التي أتوا منها . وهنـــا يبـــرز دور التوجيه التعليمي كعامل هام في عملية التصنيف وتوزيع التلاميذ بين انواع التعليم المختلفة .

(ج) نوع الاطـــارات العاملة في حقـل التعليم وعلاقة ذلك بتكافؤ الفرص :

من الاسس التي يرتكز عليها مبدأ تكافؤ الفرص جعل المتعلمين سواسية امام الخدمات التعليمية التي تقدم لهم أو لا يتم ذلك الا اذا كان القائمـــون بالخدمات متساوين في الكفاءات أو قريبين من التساوى لان التفاوت الفاحش الذى نجده بـين اطاراتنا يخلق نوعا من الفوضى في توزيع الفرص ويجعل التكافؤ امرا غير واقع ، الامر الذى يؤدى الى تفاوت في التحصيل أو تعطيل لبعض المواهب مما يترتب عنــه حرمان طائفــة من المتعلمين من الفرص الثمينة التي كان يمكن ان يتمتعوا بهـــا لو وجدوا الاطارات القادرة . فالذى يتلقى تكوينه على يد معلم لا يفرق بين الاسم والفعل ولا يعرف عن التربية شيئا غير الذى يتلقى تكوينه على يد معلم مؤهل علميا وتربويا . ولننظر مثلا الى التعليم الاعدادى عندنا ــ فان الذين يمارسون العمــل بالاعداديات هم من صنف المدرسين واحيانا أقل من المدرسين في حين ان الذين يباشرون العمل نفسه في الثانويات هم من صنف اعلى من حاملي (ليسانس)(9) مع ان المرحلة واحـدة فتصور البون الذى قد يكون بين المدرسين الا يعتبر هذا نوعا من الاجحاف فهذا يتلقى تعليمه على يـــد استاذ مجاز . والآخر على يد شخص اقل منه كفاءة وعلما . ومع ذلك فنحن لا نراعي هذه الفوارق في نهاية المطاف أى اننا لا ندخل في الاعتبار نـــوع الظروف التي تم فيها تعليمهم ــ يوم الامتحان أو اثناء عملية النقل من فرقة الى اخرى . بـل اننا نعـاملهم معـاملة واحدة ونحاسبهم حسابـا متساويا كاننا مكناهم جميعا من فرص متساوية ووفرنا لهم جميعا ظروفا مناسبة . ما من شك في

(9) أخذ التفكير يتجه حسب ما جاء في المخطط الرباعي الى تخصيص الثانويات للمرحلة الثانية فقط لتترك المرحلة الاولى الى مؤسسات التعليم المتوسط فاذا تم هذا فان التكافؤ يصبح امرا واقعا .

ان هذه المعاملة بعيدة عن الصواب والمنطق ايضا . صحيح ان الاطارات لا تكون دائما فى مستوى واحد من الخبرة والثقافة ، ولكنها لا تكون ايضا بهذا التفاوت الذى نشهده عندنا (من الشهادة الابتدائية الى الباكلوريا) فى التعليم الابتدائى على الخصوص .

(د) نوع الخبرة المقدمة (نوع التعليم)

ومما يدخل فى هذا الباب نوع التعليم الذى نقدمه لطلابنا .

هل هناك اسس نعتمدها فى تقديم التعليم المناسب لميول واستعداد كل فرد أم اننا لا نعتمد أى اساس فى اختيار الخبرة المراد تقديمها ؟

هذا سؤال قد يجيبنا عنه نظام الامتحانات الذى لا يقيس الميول والاستعدادات وانما يقيس كميات المعلومات المحصل عليها فى فترة معينة ، وحتى هذه لا يستطيع قياسها بدقة لان اسئلته وضعت بشكل لا يسمح بالتعرف على حقيقة التلميذ ثم ان التلميذ قد يدفع الى هذا الامتحان دفعا ، لانه اخفق فى امتحانات اخرى كان يود لو نجح فيها أو أن عمره لم يسمح له بذلك . (كما يقع فى الامتحانات الخاصة بالمعاهد التكنولوجية او بالدخول للمعاهد الفلاحية وغيرها) .

ومن هنا فاننا نظلم بعض الافراد عندما نقحمهم فى تعليم لم يهيئوا له أو لا ينجحون فيه مثل نجاحهم فى نوع آخر من التعليم ، واذا أردنا ان نتبين ذلك بوضوح فلننظر الى الطريقة التى يتم بها دفع التلاميذ الى معاهد التعليم الفنى أو الفلاحى أو ثانويات التعليم العام أو التعليم المعرب انها طريقة غير علمية لانها لا تعتمد على مواهب التلميذ الحقيقية التى نتعرف عليها بواسطة البطاقات المدرسية والمقاييس وملاحظات المعلمين . انها تعتمد فقط على كشوف الامتحانات التى لا تعبر عن الحقيقة كما أسلفنا . واحيانا تستعين برأى الاولياء والآباء الذين لا يهمهم من هذه القضية الا الجانب المادى أى المرتبة المغرية التى سيصل اليها ابناؤهم عن طريق هذا التعليم ، ولذا تراهم يقبلون كثيرا على التعليم العام فى المراحل الثانوية (15) ويفضلون الطب والهندسة فى المراحل الاخيرة باعتبار ان هذه التخصصات تدر على صاحبها خيرا كثيرا . ثم ان صاحبها يستطيع ان يحيا معززا مكرما فى أى بقعة من الدنيا . اما التلميذ صاحب الكلمة فلا دخل له فى هذا الاختيار لان الاب هو الذى يختار له أو حاجيات البلد هى التى تفرض عليه اتجاها معينا . وقد يكون هذا معقولا لو تسبقه مرحلة اعداد وتهيئة واختبار نتاكد بواسطته من صلاحية الفرد لهذه الخبرة أو صلاحية الخبرة لهذا الفرد .

اعتقد ان عملية التوجيه عملية صعبة ولكن لا بد منها فلمواهب التلميذ الكلمة الاولى ، ثم رأى المدرس وأخيرا رأى الموجه المدرسى الذى يجب ان تنصب ملاحظاته على رأى المدرسين وعلى نتائج البطاقات المدرسية التى تسجل فيها اهتمامات الطفل ونشاطه داخل القسم وخارجه حتى يمكن التكهن ما اذا كان فى الامكان تكييف مواهب الطفل بحيث تناسب الاتجاه المختار .

ومهما يكن فان ضمان تكافؤ الفرص من المشاكل التى اخذت الجزائر على عاتقها ان تحلها مهما كلفها ذلك لان الديمقراطية التى تنشدها لا تتحقق اذا بقى الامتياز الثقافى محصورا فى أقلية بحيث تشغل هذه الاقلية مكانتها الثقافية لفرض سلطانها المادى والمعنوى على الطبقات الاخرى غير المثقفة والتى يصبح لديها شعور بالنقص أمام الطبقات المثقفة مما يترتب عنه خلق برجوازية فكرية تشعر بالتعالى والعظمة المزيفين — ولا يعنى كل ما ذكرت انى متشائم من الوضع التعليمى الراهن أو أن لى أفكارا أفلاطونية غير مرتبطة بالواقع الجزائرى الذى هو فى صميمه ليس الا فترة انتقالية تشهد تحولا جذريا فى أغلب الاتجاهات . ولا ينبغى ان يفهم من حديثى انى متجاهل قيمة المعارك التى تخوضها البلاد فى شتى الميادين — كلا : لست من المتشائمين ولا من المتجاهلين وانما الذى اعنيه هو رغبتى الشديدة فى أن يرى مجتمعنا مندفعا نحو المستقبل شاقا طريقه فى زخم الحضارات يواكب الامم المتقدمة ويرافق التطور العلمى . وبحثى هذا محاولة من المحاولات التى ينبغى ان يسهم بها المثقفون فى توجيه الرأى العام الى الاسس التى يشاد عليها البناء والتى يجب ان تسبق كل عملية حتى يكون البناء ثابتا والاتجاه اصيلا

---

(15) هذا ما ادى فى السابق الى ان الذين يلتحقون بالثانويات الفنية هم من فضلات الاقسام النهائية للتعليم الابتدائى لان النخبة اخذتها معاهد التعليم العام .

من اعـلامنـا

الشـريف أبوعبد الله

اسـاتذتـه :

وليس بالبعيد عن هذا الرجل أن يبلغ هـذه المنزلة بين جمهور حاشد من أعيان العلماء ، وهو الذى تخرج على أيدى جهابذة أفذاذ كل منهم رأس فيما يتحلى به من فنون العلم . وهؤلاء هم :

1 ـ الرجـلان العظيمان الاخوان أبو زيـد عبدالرحمـان وأبو عيسى موسى الشهيران بابنى الامام(2) .

2 ـ أبو موسى عمـران بن موسى المشدالى البجائى(3) الذى استوطن تلمسان . أخذ عنـه الفقـه والحـديث والاصلين والفـرائض والمنطق والجدل .

3 ـ محمد بن ابراهيم الآبـلى التلمسانى(4) الذى كان نسيج وحده فى المعقولات . وقـد انتفع بـه الشريف انتفـاعا عظيما حتى انتزع اعجاب أستاذه به . فاهتم به وأفـرده بالعطف والتقدير . وكان من شأنه معه أنه حين يستشكل مع طلابه مسالة من المسائل العلمية العويصة ، أو حين تعترضهم مباحث دقيقة يقول : انتظروا حضور أبى عبدالله !

4 ـ القاضى أبو عبدالله بن هدية القرشى .

5 ـ عبدالله بن عبدالواحد المجاصى . الرجـل الصالح .

6 ـ أبو عبدالله محمد بن محمد البرونى .

7 ـ القاضى ابن عبدالنور .

8 ـ القاضى على بن الرماح .

9 ـ محمد بن يحى بن على الشـهير بـابن النجار(5) .

التعـريف به :

الامام الحجـة شيخ المشائخ ابو عبد الله محمد بن احمد بن علي التلمساني الادريسي ، ولد بتلمسان سنة : 710 هـ ونشا تحت رعاية والده الفقيه احمد ابن علي التلمساني العلوي(1) وحينما استوى علي قدميه اتجه الى الكتاب « الكتاب » ليقـرا القرآن على الشيخ المربي ابي زيد ابن يعقوب حتى اتى عليه حفظا وتجويدا . ثم اخذ يتدرج في مدارج العرفان ، يغـذي عقله بالعلم ، ويحشو دماغـه بالحكمة ، حتى بلغ رتبة انتهت اليه فيها امامة المالكية بالمغرب العربي .

أحمد جلول بدوي

التلمساني

10 ـ محمد بن عبد السـلام الهواري وآخرون غيرهم .

قال عنه صاحبه وتلميذه المؤرخ عبدالرحمن ابن خلدون في « التعريف » : « أخذ العلم عن مشيخة تلمسان . واختصر بأولاد الامام . ثم لزم شيخنا الآبلي رحل الى تونس سنة أربعين (740) هـ فلقي شيخنا ابن عبدالسلام وأفاد منه . واستعظم رتبته في العـلم . وكان ابن عبدالسلام يصغي اليه ، ويؤثر محله ، ويعرف حقه » . (6)

ومن بوادر حذقه وادراكه في أيام الطلب أنه حضر ذات يوم مجلس شيخه عبدالرحمن بـن الامام ، وكان الدرس في تفسير القرآن ، وفيـه تعرض الشيخ للكلام على نعيم الجنة . فابتدره التلميذ قائلا : ليت شعري . هل يدرس العلم في الجنة ؟ فقال : نعم يا ولدي . ان فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين . فابتهج التلميذ وقال : لو كان جوابكم نفيا لقلت اذن ليس في الجنة لذة(7).

وهكذا كان صاحبنا يرى أن الغاية التي يجب أن تتوخى انما هي في العرفان . ولذلك كان يحرم نفسه من راحتها وترويحها ، فيمتنع عن النوم الا اذا ألح عليه النعاس ، فيغفو قليلا ثم يفيق ويقول : يكفي هذه النفس . فلقد أخذت حظها من النوم . ثم يستأنف ما كان عليه من مواصـلة التحصيل . وتمكنت من نفسه هذه العادة طوال حياته .

ذكر ولده أبو محمد عبدالله(8) أنه مر على أبيه . في فترة من الفترات . نحو من ستة أشهر لم ير فيها أولاده ولم يروه . اذ كان يفيق باكرا وهم نائمون . ولا يعـود الى المنزل الا في وقت متخلف من الليل ، فيجدهم قد ناموا . وهو خبر

عجيب لم يكد يتفق لاحد ! واذا صح فأين واجب الرعاية الابوية ؟!

وذكر ولده ، أيضا ، ان الشيخ كان ينفق بياض نهاره بين اقراء ومطالعة وتلاوة ، ينام ثلث الليل ، ويكب على المطالعة ثلثه ، ويقوم يصلي ثلثه ، وكان يقدم له طعامه أحيانا في رمضان فيشغله النظر عن تناوله ، ثم يؤتى بسحوره فيذهل عنهما معا حتى يصبح ويواصل الصوم ! (9) ورآه ولده المذكور يوما منهمكا في تصفح كتب كانت منتشرة حوله ، ليحقق منها ما يهمه من المسائل العلمية ظن أنها تبلغ سبعين كتابا ، وبهذه الهمة وهذا المجهود عنت رقاب علماء زمنه واعترفوا له بالتفوق والتبريز . ودعاه داع الى زيارة (تونس) فلم يرق لتلاميذه أن يغادر بلده ، اما لحرصهم على ملازمته ، أو اشفاقا عليه من عنت السفر ، ما عدا تلميذه الخطيب ابن مرزوق الجد قال عندما بلغه ذلك : كنت كرهت مفارقة أبي عبدالله بلاده ، ولكنني عدت ، فحمدت الله على ذهابه حتى يراه أهل افريقية ويعلموا أن بالمغرب (الاوسط) عالما مثله .

وفي هذه الرحلة دخل مدينة تونس مجهولا لا يعرفه أحد . وحضر مجلس ابن عبدالسلام(10) فجلس حيث انتهى به المجلس حين كان الشيخ يقرر كلاما في شأن تحديد معنى كلمة (الذكر) ، وجعل يتساءل ويقول : هل يعتبر الذكر حقيقة في الحركة التي يجرى بها اللسان أولا ؟ فانتهزها الشريف فرصة للاعلان عن نفسه ، وابتدر قائلا : من الواضح يا سيدي أن الذكر يكون ضد النسيان ، والنسيان محله القلب ، ومن المقرر أن الضدين يجب أن يتحدا في المحل . فسكت الشيخ ولم يلتفت اليه ومضى يقول : ان الذكر هو ضد الصمت ، وهذا محله اللسان ، فيجب كون اللسان هو محل ضده ، فيكون حقيقة فيه .

قال الشريف فأمسكت عن مراجعته تأدبا معه ، وقد كنت أعلم أن الصمت ضده النطق لا الذكر .

وفي الغد عاد الى مجلس الدرس وعند ذاك اقبل عليه نقيب الدولة(11) واخذ بيده حتى أجلسه الى جانب الشيخ ، وعلم بعد ذلك أنه هو الذي أمر بذلك . وما ان اتم الدرس حتى التفت الى ضيفه يسأله سؤالا دل على معرفته به قبل أن يراه . اذ قال : أفدني ، هل أنت أبو عبدالله الشريف ؟ قال نعم ، هو ذاك ، فرحب به ، ثم راح يجلسه دائما الى جانبه في حلقة الدرس ، ولم يقف معه عند هذا الحد ، بل كان يدعوه الى منزله حيث يتهيأ لهما أن يطلع كل واحد منهما على ما عند الآخر من نوادر المسائل وغرائب المباحث . وسرعان ما انقلب الشيخ الى تلميذ يأخذ عن التلمساني فصل التصوف من كتاب « الاشارات » لابن سينا ، ودروسا من تلاخيص (أرسطو) لابن رشد ، كما كان يأخذ عنه دروسا في الحساب والهيئة والفرائض ، ثم قفل راجعا الى بلده وقومه الذين أوحشهم غيابه . وما أن حل بينهم حتى اقبل عليه الناس يقصدونه من كل وجهة ليأخذوا عنه ويتشرفوا بالانتساب اليه ، وأكبر شأنه الملوك فقربوه وبالغوا في الحفاوة به . فهذا سلطان تلمسان أبو سعيد عثمان بن عبدالرحمن كان في طليعة من يجله ، ويخاطبه بقوله : « يا سيدي ... » وعندما احس بزوال ملكه عرض عليه أن يترك أمواله وديعة عنده فأبى أن يجيبه الى رغبته ، وأحاله على غيره ورضي بأن يشهد على من يختاره أمينا على حمل الامانة : ففعل السلطان باشارته .

ولما استولى أبو عنان المريني ملك المغرب على

تلمسان أمر بتكوين مجلس علمي يشكل من كبار علمائها . فكان صاحبنا في طليعة من اختير لهذا المجلس ، وقد استرعى نظر أبي عنـــان بعلمه وفضله ، فعرض عليه أن يكون الى جانبه بمقر ملكه مدينة « فاس » فعز عليــــه فراق بلاده ، وتردد أول الامر ، غير أنه أذعن في الاخير . وعلم انه لا بد مما ليس منه بد . وطال مقامه بالمغرب ، وثقلت على نفسه وطـــاة الغربة ، فتبرم بها ، وأبدى شكواه لمن حوله،وسرعان ما بلغت الشكوى أبا عنان،فأثارت حفيظته على الشيخ،وصادف أن علم بخبر الوديعة المالية التي أسلفنا ذكرها ، فأرسل اليه في الحال ، وأخذ يعاتبه وينحى عليه باللائمة من أجل كتمان أمر الوديعة ، وامتن عليه بتقريبه اياه .. فثارت ثائرة الشريف . ووقف في وجه الملك يقول : شهادة كانت عندي لا يجب على رفعها بل على العكس .. انه يجب على كتمانها . وأما تقريبك اياى فقد أضر بي أكثر مما نفعني . اذ نقص به علمي وضعف ديني .. في كلام لم يتحمله منه الملك . واشتد غضبه عليه . ولم يفتأ أن أمر باعتقاله . وأن تنتزع الوديعة من يـــد المؤتمن عليها . وفي تلك الاثناء صادف ان وفـــد يعقوب بن على شيخ العرب بالجنوب الجزائرى(12) على أبي عنان بالمغرب ، فسأله عما يقول الناس فيه فقال : انهم يلهجون بالثناء عليك ، ولا يقولون الا خيرا ، بيـــد أنهم يستنكرون اعتقالك لابى عبدالله الشريف ذلك العالم الرفيع المنزلة ، وفعل هذا الجواب في نفس السلطان فعله فأصدر أمره باطلاق سراح الشيخ بعد أن مر على اعتقاله شهر كامل . وذلك سنة 776 هـ ولما رآه العاهل اعتذر له وبالغ في ذلك . وبعد امتلاكه قسنطينة سنة 749 أعـاد الشيخ الى مجلسه استئنافا لسالف عهده . وساد الصفاء من جديد بين الرجلين .

وفي ذات مـرة اجتمع بمجلس ابى عنان أعضاء المجلس العلمى . فبدا له أن يأمر شيخ المقرئين بالقاء درس في التفسير فتحرج هذا واعتذر . للسلطان طالبا اعفاءه وقال : أبو عبدالله الشريف أولى منى بذلك . فألح عليه مرة ثانية وقـال : أنت المختص بمعرفة علوم القرآن وبأهل تفسيره فاقرأ علينا . فأعاد هذا الشيخ اعتذاره وسجلها شهادة نادرة المثال في حق السيد الشريف حين قال : ان أبا عبدالله خير من يخوض في هـذا الميدان . لانه أعلم مني وأقوى عارضة في ذلك ، ولا يسعني الاقراء وهو حاضر ...! شهادة لفتت الانظار الى الشريف ، وجعلت أبا عنان يثني عنانه اليه . ويرجو منه أن يستجيب لرغبته . وهنـا أخذ الشيخ في القـــاء الدرس . وانبرى يفيض سحرا وبيانا . ويصول حجة وبرهانا . وما زال يعلو وأبو عنـــان يسفل حتى نـزل عن سريره وجلس مع القوم على الفراش . وعند انتهاء الدرس توجه أبو عنان الى الشيخ وهو يقول : انى لارى العلم يخرج من منابت شعرك . وبعد انفضاض الجمع تقدم اليه القاضى الفشتالى وطلب منه أن يملى عليه ما صدر منه في الدرس ، فأحاله على مصادر ذكرها . وكانت معروفة عند الجميع .

علـومه ومعـــارفه :

تعددت مناحى العلوم التي ينطوى عليها صدر الشريف ، فهو امام في جميع ما يتعلق بعلوم التفسير . ومحدث بارع في علوم الحديث النبوى من متن وسند والقاب ورجال . الى الامامة في الدين . والقيام على الفروع والاصول . والرياسة في العلوم العقلية كلها . من منطق وحساب . وتنجيم وهندسة وموسيقى . خبير بعلوم العربية وآدابها ، وقواعدها . حجر في غريب اللغة واخبار الناس ومذاهبهم ، قيم بفنون الطب والتشريح والفلاحة . ولما كان ذوو الفضل مبتلون في كل

زمان بالحساد وأهل الغيرة . أراد بعض علماء فاس أن يحطوا من قيمته وشأنه . فأوعزوا الى من يبلغ الملك بان الشريف قصير الباع في الفقه والتشريع. فاراد أن يختبر منه هذا الجانب . فبعث اليه وأمره. بمحضر من الفقهاء . أن يشرح الحديث المعروف : اذا ولغ الكلب فى اناء أحدكم ... فلم يتردد لحظة . وأخذ في الحال يتكلم . دون مراجعة أو نظر . فاول ما قال : ان هذا الحديث يتفرع الى خمس وعشرين مسالة ، ومضى معها واحدة بعد أخرى حتى استخرجها كلها ، مرجحا ومدللا . كانه يمليها من كتاب . وهنا فطن أبو عنان للدسيسة التى أعدها له خصومه . فاقبل عليهم يلومهم ويعنفهم حين انكشف حالهم . وتبددت أغراضهم . وبقى الشريف بفاس الى أن هلك أبو عنان سنة 759 هـ .

وفي ذلك العهد افتك أبو حمو موسى بن يوسف ملك تلمسان من يد بنى مرين وحرص على استدعاء الشريف من فاس فبعث اليه فى ذلك . فأذن له الوزير القائم بالامر . عمر بن عبد الله بمغادرة المغرب . ولما بلغ تلمسان تلقاه السلطان بكلتا راحتيه فرحا وابتهاجا بمقدمه ، ولما استقر به المقام زوجه ابنته . وبنى له مدرسة يبث فيها علومه على من أراد ذلك .

تلامذته :

لا سبيل الى استيعاب أسماء الذين أخذوا عنه من العلماء والطلاب فهم كثيرون ، وانما نأتى على ذكر بعض المشاهير من أعلام وادباء . وهم :

1 ــ الامام ابراهيم بن موسى بن محمد الغرناطى الشاطبى (13)

2 ــ الوزير الشاعر محمد بن يوسف الصريحى الشهير بابن زمرك(14)

3 ــ ابراهيم الثغرى التلمسانى

4 ــ أبو عبدالله القيسى

5 ــ عبدالرحمن ابن خلدون

6 ــ محمد بن أبى اسحاق ابراهيم الرندى الصوفى الشهير بابن عباد(15)

7 ــ محمد بن أبى البركات المكناسى الشهير بابن السكاك(16)

8 ــ محمد بن على الميورقى

9 ــ ابراهيم المصمودى

10 ــ يحى ابن خلدون

11 ــ محمد بن عبدالسلام(17)

12 ــ ولده العلامة المتبحر أبو محمد عبدالله شيخ ابن عاصم صاحب التحفة

13 ــ ولده الثانى الامام البحر عبدالرحمن أبو يحى شيخ ابن مرزوق الحفيد(18) .

هذا وقد كانت للسيد الشريف صلة وثيقة بالعلماء والادباء الذين كانوا من أعرف الناس بقدره ومقامه . نخص بالذكر شيخ علماء الاندلس أبا سعيد بن لب(19) الذى كان يستعين به فيما يشكل عليه من المسائل والفتاوى . وكذلك الشاعر الناثر الوزير الخطير لسان الدين ابن الخطيب الذى تعود أن يرسل اليه بما يؤلفه من الكتب . ليرى رأيه فيها قبل أن يخرجها للناس .

آثاره :

لما كان الشيخ ميالا الى الافادة والتبليغ . حريصا على بث العلم والعرفان . سالكا مسلك المشافهة والتلقين . أنفق جل أوقاته فى التعليم والاقراء ، يقضى النهار كله فى ذلك . فقلت تاليفه بالنظر لما كان يرجى منه ، وهو الذى عرفنا ما

عنده من كنوز وذخائر . اما تآليفه التى ذكرتها المصادر فهى :

1 ـ كتاب فى القضاء والقدر ، جلى فيه وجه الحق من تلك المباحث الغامضة .

2 ـ شرح الجمل للخونجى ، ذلك الكتاب الذى اقبل عليه العلماء قراءة واستنساخا .

3 ـ كتاب فى المعاوضات ، وهو اجوبـة عن مسائل وردت عليه من عالم (توزر) الشيخ يحى الرهونى .

4 ـ مثارات الغلط ، ذكره التنبكتى فى نيل الابتهاج .

5 ـ مفتاح الوصول الى بنـاء الفـروع على الاصول ، طبق فيه المسائل الفقهية على القواعد الخلافية في علم الاصول وقد دل هذا الكتاب على طول باع صاحبه فى هذا الفن .

ومما يؤسف له ان بعض هذه الآثار ضـاع او هو موجود كالمفقود ، عدا الاخير منها الذى طبع بتونس والقاهرة ، وهو معروف عند القـراء ، متداول بينهم .

اخـلاقه وعاداتـه :

كان الشيخ الشريف معروفا بالسماحة والحلم، يلتمس لاهل الفضل فى عثراتهم أحسن الوجوه ، يجل اخوانه العلماء فى مجالس الملوك،يتوخى التوسط فى جميع أموره ، ولقد نعم الطلاب فى كنفه بعيش رخى ، وسعادة شاملة ، لا يفشى لاحد سرا ، ولا يضيع امانة . يروى ان قاضى قسنطينة حسن « ابن باديس » أودع عنـده نقـودا ذهبية كانت محفوظة فى قرطاس ، وبقيت عنده حتى طلبهـا صاحبها ، فذهب يتفقدها ، فوجـد مكتوبا على قرطاسها هـذه العبارة : « مائة ذهب » ففكه ليعدها فاذا هى خمسة وسبعون ذهبـا ، فزاد عليها خمسة وعشرين ليكمل عد المائة ، ولم ينتبه ابن باديس عندما تسلمها منه للزيادة التى زادها الا بعد زمن . فعاد اليه وقال له : عندما عـددت نقودى وجدت زيادة قـدرها كذا وكذا ، وهى ليست لى ، فقال الشيخ : فاتنى ان أعدها عند تسلمها ، فلما وقع بصرى على الخط اختبرتها ، فلم أجد العدد المذكور ، فأكملتها ظانا ضياع ما نقص منها وهى عندى . ورد له القاضى ما زاده من النقود بعد شكره وأثنى على تحريه وصدقه .

اقـوال النـــاس فيه :

قال عنه الامام ابن مرزوق الحفيد :

هو شيخ شيوخنا وأعلم أهل عصره باجماع .

وقال تلميذه أبو زكرياء السراج فى فهرسته :

شيخنا الفقيه الامام العالم ... كان أحـد رجال الكمال علما وذاتا وخلقا .. بلغ رتبـة الاجتهاد أو كاد .

وقال شيخه الآبلى :

قرأ على كثير شرقا وغربا فمـا رايت فيهـم انجب من أربعة .. أبو عبد الله ارجحهم عقـلا ، وأكثرهم تحصيلا .

وقال الامام ابن عرفة يخاطبه :

غايتك فى العلم لا تدرك . ولما سمع بموته قال : ماتت بموته العلوم العقلية .

وقال عنه أبو يحى المطغرى :

حضرت مجالس كثير من العلماء ، فما رايت مثل أبى عبدالله .

وقال عنه تلميذه يحيى بن خلدون فى «بغيـة الرواد » :

.. شيخنا احد رجال الكمال علما ودينا ، لا

يغرب عن علمه فن عقلي ولا نقلي الا وقد أحاط به .. وبلغ الغاية القصوى من الادراك والتبحر ، مع فصاحة عند الالقاء ...

وفـــاتــه :

كان علم التفسير في طليعة ما يعتني به من الفنون ، وقد دأب عليه خمسا وعشرين سنة ، يفسر كل يوم ربع حزب من القرآن الـكريم ، وعندما انتهى به الدرس الى تفسير قوله تعالى : يستبشرون بنعمة من الله وفضل .. الآية ، طرأ عليه مرض حال بينه وبين لقاء الناس ، واضطر الى ملازمة الفراش يعاني شدة وطأة المرض طيلة ثمانية عشر يوما ، أيقن عندها بمجيء أجله ، وعاجلته المنية ، وهو يقبل المصحف الشريف ، ويمسح به على وجهه ويقول : اللهم كما أعززتني به في الدنيا فاعززني به في الآخرة (20) ثم أسلم الروح الى بارئها ، فلحق بربه خاشعا منيبا ، وكان ذلك ليلة الاحد الرابع من ذي الحجة سنة : 771 هـ 1370 م . ودفن بالمدرسة اليعقوبية بتلمسان ، رحمه الله وأثابه (21) .

الهـــوامش :

(1) نسبة الى احدى قرى تلمسان تدعى « العلوين » بفتح العين وسكون اللام -

(2) كانا من أعاجيب الدهر غزارة علم وقوة عارضة في علو شان ومكانة مرموقة وقد ذكر عنهما صاحب « نيـــل الابتهاج » انهما رحلا الى المشرق ، وفي دمشق التقيا بالامام ابن تيمية وناظراه في مسائل من العلم افحماه فيها على قوة حجة الرجل وكونه فارس الحلبة المجلي الذي لا يشق له غبار .. على أننا نحن ننقل هذا بكل تحفظ ، وقد توفي عبدالرحمن سنة : 743 هـ 1348 م وعاش أخوه بعده ست سنين ـ الاعلام للزركلي ج : 5 ص 294 .

(3) المتوفى سنة 745 هـ

(4) المتوفى بتلمسان سنة 757 هـ

(5) تلميذ الآبلي والمتوفى بتونس في حدود سنة 750 هـ

(6) التعريف صفحة (757 هـ) .

(7) لقد ضيق الشيخ رحمه الله أمرا واسعا .

(8) كان من كبار علماء زمنه ، نزح الى الاندلس وبقي بها زمنا ثم أزمع العودة الى تلمسان من غرناطة فلم يبلغ مناه ومات غريقا سنة 792 هـ .

(9) راجع ترجمة الشيخ في « نيل الابتهـاج) ونحن نستغرب أن يقع هذا منه وهو يعلم أن الوصال في الصوم منهي عنه شرعا .

(10) هو محمد بن عبدالسلام بن يوسف الهواري العلامة المتبحر ، ولد بالمنستير وولي قضاء الجماعة بتونس ، توفي بوباء الطاعون سنة : 749 هـ .

(11) لعل المقصود ذلك الشخص الذى يتولى قراءة ما فى«المتن » من موضوع الدرس المقرر ° يسبق المدرس بقراءته ليتولى هذا بدوره شرحه وتحليله ° وتلك هى العادة التقليديةفى الدرس °

(12) الذى كان صديقا للمؤرخ ابن خلدون °

(13) المتوفى سنة 790 هـ

(14) المتوفى مقتولا سنة 793 هـ

(15) المتوفى سنة 792 هـ

(16) المتوفى سنة 820 هـ بمدينة فاس

(17) ذكرنا هنا هذا الامام للمرة الثانية وعددناه من تلامذةالشريف لانه اعطاه واخذ عنه ° فهو أستاذه وتلميذه !

(18) المتوفى سنة 783 هـ

(19) المتوفى سنة : 776 هـ °

(20) يبدو من هذا ان الشريف كان عند الاحتضار حاضرالذهن منطلق اللسان °

(21) ننبه على أن هناك رجلا آخر يدعى ايضا أبا عبداللهويعرف بالشريف التلمسانى ° عاش بعد صاحبنا بزمن ° وقد كان هو الآخر عالما محققا ° توفى سنة : 847 هـ ـ ذيلالديباج ص : 308 °

مصـــادر البحث :

نثبت هنا أسماء المصادر التى اعتمدنا عليها فى تحرير هذهالترجمة ° ليرجع اليها من شاء الاستزادة والتوسع :

1 ـ نيل الابتهاج للتبكتى ° المطبوع على هامش الديباجالمذهب °

2 ـ البستان فى ذكر علماء تلمسان لابن مريم المطبوعبالجزائر °

3 ـ تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ° المطبـوعبالجزائر °

4 ـ التعريف بابن خلدون ° طبع بيروت °

5 ـ نفح الطيب للمقرى ج : 7 تحقيق محىالدين عبدالحميدط : بيروت °

6 ـ بغية الرواد ° ليحى ابن خلدون ° طبع بالجزائر

7 ـ تحلة اللبيب لابن عمار مفتى الجزائر ° طبع بالجزائر °

8 ـ القول المنيف فى ترجمة أبى عبد الله الشريف للونشريسى

9 ـ الفتح المبين فى طبقات الاصوليين ° لعبدالله المراغى :ج : 2 طبع بالقاهرة °

10 ـ الاعلام ° للزركلى : ج : 6 الطبعة الثانية °

سيكولوجية المحارب

د. محمد العربي ولد خليفة

الحرب احدى الظواهر التي لا يخلو منها زمان او مكان فقد عرفتها المجتمعات البدائية منذ عصورها الضاربة في القدم ووضعت لها طقوسا وشعائر يقوم بها المحاربون عندما يشرعون في القتال وبعد ان يفرغوا منه ، ومن هذه المجتمعات من لا يتصور امكانية حياة آمنة مطمئنة الا ان تستوجب اللعنة او تستتبع العقاب (1) حتى كان الصراع والعدوان جبلة فطر عليها الانسان . وقد بدأ الاهتمام بهذه الظاهرة منذ بدا الانسان يتامل ما يجرى حوله من احداث فيدلى فيها برأى او يتخذ منها موقفا ،وتراوحت هذه الآراء والمواقف بين مؤيد للحرب وداع لها ،وبين معارض يتنبأ بزوالها واختفائها .

---

1 ـ جان كازانوف : سيكولوجية المحارب ص 13 ـ مطالعات في علم النفس ترجمة د . مصطفى سويف الانجلو ـ المصرية القاهرة 1962 .

وحجة أصحاب الاتجاه الاول أن الحرب « أم الفضائل » وهى التى تبقى على الاصلح من بنى الانسان وتستأصل الاتجاهات العدمية من المجتمع ومن الذين يمثلون هــذا الاتجــــاه ماكيافيلي MACHIA VEL وكلوسفيتز CLAUSEWITZ وهــــربرت سبنسر H. SPENTER ونيتشــــه NIETZSCHE (2) .

وأما أصحاب الاتجاه المعارض فيرون أن الحرب ظاهرة مؤقتة وأن العصور التالية ستشهد اختفاءها نهائيا وذلك عندما تبلغ المجتمعات مرحلة التصنيع الكامل ومن ممثلى هذا الاتجــــاه سان سيمون Saint Simon واوغيست كومت A. Comte (3).

ولا ريب أن الاهتمام بظاهرة الحرب عن طريق تأمل أسبابها والتنبوء بمسارها ، وان كان مفيدا فى تعرف منطقها فانه لا يستجلى أبعادها ولا يحدد عواملها وآثارها على الفــرد والمجتمع . ولذلك رأينا حجج فلاسفة التاريخ – محبذين ومعارضين – لا تؤيدها الوقائع . فان الحروب هى التى تخلف وراءها الإمــراض النفسية والاجتماعية وتنتشر بعـــدها الاتجاهات العدمية المتمثلة فى الاجرام والانتحار والطلاق والموجات اللاأخلاقية بوجــــه عام . وهذا ما حدث فعلا فى كثير من البلاد التى عانت من ويلات الحرب .

كما أن التنبوء باختفاء الظاهرة عندما يعــم التصنيع لم يكن أكثر من أضغاث أحلام فقـــد شهد عصر التصنيع أشد الحروب ضراوة وفتكا .

وقد تتبع سروكين SOROKIN فى بحث نشره سنة 1934 نسبة الخسائر فى الارواح التى منيت بها الانسانية من جراء الحـــروب طـــوال خمس وعشرين قرنا وحسب النسبة بالآلاف من السكان فكان القرن العشرون – وهو عصر التصنيع – اكثرها فى عدد الضحايا (12ر8 ٪) (أستخرج المؤلف النسب المؤية للذين سقطوا ضحية الحروب من مجموع السكان فى كل دولة أو امبراطورية واستخدم عينات تمثل أكثر البلاد التى خاضت حروبا وأكثر القرون التى تعرض فيها بنــــو الانسان لويلات الحرب) . كما هو مبين فى الجدول التالى (4) :

الاغريق

القــــرن	النسبة
الخامس ق . م .	2ر9
الرابع ق . م .	من 4ر5 الى 6
الثانى ق . م .	من 3ر0 الى 4ر0

روما (الامبراطورية الايطالية)

القــــرن	النسبة
الرابع ق . م .	1ر4
الثالث ق . م .	6ر3
الاول ق . م .	من 8ر2 الى 3ر0
الاول م .	من 6ر0 الى 8ر0
الثانى م .	من 3ر1 الى 13ر0

اوروبـــا

القــــرن	النسبة
الرابع الثانى عشر	0ر 2
الثالث عشر	0ر20
الرابع عشر	0ر68
الخامس عشر	1ر04
السادس عشر	1ر86
السابع عشر	2ر 1
الثامن عشر	1ر 1
التاسع عشر	1ر 1
العشرون	8ر12

وعلى الرغم من أن ظاهرة الحرب قديمة قــدم المجتمع الانسانى نفسه . وعلى الرغم من قـــدم الاهتمام الفلسفى والادبى بها (الالياذة والاذويسة فى الادب الاغريقى . وسيرة عنترة وأبى زيــــد الهــلالى فى الادب العربى ، والحــرب والسلام لتولستوى فى الادب الحديث) ، فان تاريخ البحث العلمى فيها لا يتجاوز العقود الاول من هـــــذا القرن ويرجع ذلك الى عدة أسباب :

1 – الاعتقاد السائد بان الحرب مسالة بديهية تدرك بالحدس ولا تحتاج لاى دراسة أو بحث .

2 – تبدو الحرب وكانها شىء كامن فى الشخص وليست شيئا خارجا عنه يمكن أن يخضــــع للدراسة الموضوعية .

3 – الاعتقاد بأن الحرب ذات طابع شـــعورى بالنسبة للافراد وتتم داخل اطار قانونى يبرر الاقدام عليها من طرف الجماعة .

2 – G. Bouthoul : Phénomène-guerre P. 8 Payot Paris 1962

3 – ن . م . ص 22

4 – ج . كازانوف : ن . م ص 6

يضاف الى ذلك حداثة الدراسات السيكولوجية وعلم النفس التطبيقي بوجه خاص فقد كانت ظاهرة الحرب تدرس ضمن علوم التاريخ والاقتصاد والاجتماع ، حتى تبين للباحثين « أن للحرب اسسها السيكولوجية الجوهرية وأنها اذا ما بدت مرتبطة بظروف مادية فان ذلك الارتباط عرضى لانه متغير وعابر » .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى ، كانت الولايات المتحدة الامريكية أول من عنى بتطبيق مبادىء علم النفس فى الميدان العسكرى فتكونت سبعة عشر لجنة لتطبيق الوسائل السيكولوجية :

وقد تناولت أبحاث هذه اللجان المسائل التالية (5) :

1 – وضع اختبارات نفسية لاختيار قدرات الجنود واستعداداتهم وتنظيم اختيار الجنود .

2 – المشاكل السيكولوجية المتعلقة باستخدام الحواس وخاصة البصر والسمع فى ميدان القتال .

3 – المشاكل السيكولوجية المتعلقة بالطيران .

4 – تنظيم البرامج التعليمية والتدريب العسكرى على أسس علمية صحيحة .

5 – علاج المصابين بالصدمات النفسية الناتجة عن أهوال القتال .

6 – تقوية الروح المعنوية للجنود .

7 – الدعاية .

8 – توجيه الجنود لحياة مدنية سعيدة بعد انتهاء الحرب .

وقام بارتليت F. G. Bartlett سنة 1926 بدراسة توافق الجندى وروحه المعنوية والأثار التى تنجم عن أنتقال الفرد من المحيط المدنى الى المحيط العسكرى .

وفى هذه الفترة كان السيكولوجيون الالمان يوجهون عنايتهم نحو الحرب السيكولوجية ، وبعد ان تدبروا أسباب هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الاولى أخذوا يوالون اهتمامهم الى موضوعات اخرى وخاصة أثناء حكم النازى ومن بين المسائل التى درسوها (6) :

1 – المعنوية الدفاعية أى رفع الروح المعنوية للالمان جنودا ومدنيين .

2 – المعنوية الهجومية أى العمل على تحطيم معنويات الاعداء .

3 – سيكولوجية القيادة .

4 – اختيار الجنود .

5 – سيكولوجية الحياة العسكرية .

6 – سيكولوجية القتال .

وأثناء الحرب العالمية الثانية شرع مجلس الابحاث فى الولايات المتحدة فى دراسة مشكلة التوافق النفسى الاجتماعى للجندى وقد أشرف على هذه الدراسة خمسة من العلماء هم :

صموئيل ستوفر S. Tsouffer وادوارد ستيتسمان E. Suchman وليلاندس ديفنى L. Deviney وشيرلى ستار Ch. Star وروبين ويليامز R. Williams ، وقد عنى هؤلاء الباحثون بدراسة نجاح توافق الاخوان باختلاف أصولهم الشخصية وأختلاف الخبرات التى تعرضوا لها أثناء خدمتهم فى الجيش ومدى توافقهم مع العمل الذى يؤدونه .

كما قام أطباء العمل بدراسة الانحرافات السلوكية فى الجيش الامريكى وبلغ عدد الحالات التى قاموا ببحثها حوالى نصف مليون حالة وقد عنوا بتتبع حالات الجنايات العسكرية مثل الهرب والتمارض والسكر ، والجنسية المثلية ، وادمان المخدرات ، والمشكلات الانفعالية المتعلقة بالتدريب والانتقاء والتعبئة واتمام الخدمة العسكرية والعودة الى الحياة المدنية .

وأما فى بريطانيا فقد أقتصر السيكولوجيون على اختبارات الانتقاء لاستقصاء حالات الاضطراب الانفعالى واستبعادها منذ البداية .

وهكذا أصبحت سيكولوجية المحارب تشغل جانبا كبيرا من جهود الباحثين فاهتموا بدراسة شخصيته وروحه المعنوية قبل المعركة وأثناءها . وتتبعوا حالته بعد أن يسرح ويعود الى الحياة المدنية .

---

5 – بوتهول ن . م . م ص 107

6 – عثمان نجاتى علم النفس الحربى ص 14 ط : 3 – النهضة العربية – القاهرة 1960 .

ومن أهم الاسباب التى جعلت السيكولوجيين يعنون بهذا الميدان (7) :

1 ـ ان الجيش اصبح اليوم منظمة تضم أكبر عدد من الافراد وتمثل أضخم تجمع فى الامة بعد المجموعة المدرسية وهو بذلك يضع على عاتق القيادة مشاكل لا نظير لها فى أى مؤسسة أخرى

2 ـ يعتبر موقف الحرب من اشد المواقف خطرا واطولها زمنا فيها يتعرض الانسان لاعنف صراع بين واقعين يدعوه الاول الى المحافظة على حياته وتجنب الهلاك ويحرضه الثانى على أداء الواجب وأتقاء العار .

وتنجم بعض أسباب هذا الصراع عن المعركة التى تجعل الجندى يتردد بين حاجته الى الامن وبين الواجب الذى يدعوه الى القيام بمهمته والمخاطرة بحياته وينجم بعضها الآخر عن ضروب الالـزام Contraintes التى يتعرض لها الفرد ابان خدمته العسكرية وتضطره الى التخلى عن المثل وأنماط السلوك التى تعود عليها فى حياته المدنية وتقبل النظام العسكرى بما فيـه من دواعى الضبط الصارم .

3 ـ ان الوسـط العسكرى يضخم بطريقـة ملحوظة بعض مظاهر السلوك الانفعالى ، اذ لا يوجد فى أى تجمع آخر ظروف أكثر مساعـدة على ظهور السلوك الانفعالى .

وقد وجد الادب فى هذه الظاهرة مجالا خصبا للوصف والتصوير لكنها قلما حضيت بدراسـة موضوعية . فبمجرد أن ينخرط الفرد فى الخدمة العسكرية يواجه أزمة حادة اذ عليه أن يقطـع صلته فورا بمحيطه المعتاد فيتخلى عن جو العائلة والمدرسة والمهنة . وهـو يجـد نفسه مع اقران ينتمون الى أصول مختلفة من الناحيتين الجغرافية والاجتماعية . ينبغى أن ينشىء معهم نسيجا جديدا من العلاقات الاجتماعية ويتخلى فى نفس الوقت عن مجموعة من الروابط الوجدانية والعاطفية التى اكتسبها من قبل .

وعلى الرغم من دواعى الانضباط فان الفرد يجد نفسه فجأة متحررا بطريقة لم يالفها من قبل حتى لتبدو له هذه الحرية وكأنها وحدة أو عزلة خالية من كل سند ويعلل فرانز الكسندر F. Alexender فشل بعض المجندين فى التوافق مـع المواقف الجديدة بفشل استجاباتهم القديمة فى التـلاؤم مع المثيرات الجـديدة وعجـزهم عن استبدالها باستجابات أخرى تستعيد لهـم حالة التوازن النفسى .

وقد تبين من دراسة تتبعية قامت بها الوحدة العلاجية فى دارتفورد (بريطانيا) باشراف جونز Maxwell Jones على مائة حالة من الجنـود الذين تعرضوا للاسر وأمضوا فى الحرب فترة تصل الى خمس سنوات ، أن الاسر قد عانت الكثير من المتاعب بسبب محاولات الفرد التوافق مع البيئة ، وتمثل الارقام التالية الصورة العامة للمرضى فى الدراسة التتبعية وذلك فيما يتعلق بالاعـراض المرضية :

22 شفوا تماما
66 تحسنوا
12 لم يتحسنوا

أما الذين ذكروا أنهم شفوا تماما فقد قرروا أنهم عادوا الى الحالة التى كانوا عليها قبل الحرب ، أما الذين لم يتحسنوا فقد أكدوا أن حالتهم قد تحسنت نوعا ما خلال اقامتهم بالمستشفى ولكنها ساءت مرة أخرى بعد مواجهتهم لظروف المجتمع الخارجى . أما الباقون فقد قرروا أنهم ما زالوا على حالتهم السابقة .

وفيما يتصل بناحية العمل فقد كانت الصورة العامة كما يلى :

34 عادوا الى عملهم السابق للحرب .
18 اشتغلوا بنفس حرفهم القديمة مع تغيير مكان العمل .
40 اشتغلوا بحرف جديدة تماما .
8 كانوا متعطلين .

ويعـلل فرانز الكسندر F. Alexender فشل بعض المجندين فى التـوافق مـع الموقف الجديد بفشل استجاباتهم القديمة فى التلاؤم مع المثيرات الجديدة وعجزهم عن استبدالها باستجابات أخرى تستعيد لهم حالة التوازن النفسى .

---

7 ـ ن م م ص 14
8 - Charles Chondessais : La psychologie dans l'armée P. 9, P. 32, Paris P.U.F. 1959
9 ـ بول موكور علم النفس العسكرى ص 118 ـ 119
10 ـ محمد عاطف السعيد

نحو انثوغرافية جديدة

في الوقت الذى بدا الزحف العربى يخطو خطوات متباينة فى الايقـــاع ليحطم تدريجيـا اسوارا من الخمول والخرافات ، ويستيقظ بعد سبات عميق ، ويتوقف متاملا الدرب الطويل الذى قطعه فى زمن قصير يتحتم علينا ان نتوقف بدورنـا وان نعيد النظر فى بعض المفاهيم ، وبعض المعـايير التقليدية التى ورثناها وحفظناها واحتفظنا بها - عن حسن او سوء نيـة - وذلك لنخرج من حصار وان لا نلج سياجا آخر ..

ان هذه اليقظة هى وعى . هـذا الوعى الذى تمخضت عنه حروب تحريرية أدت بالمجتمـــع العربى الى نوع من التمزق فى الشخصية . وان الثورات والحروب التحريرية التى اجتاحت الوطن العربى أدت الى تحولات - بدرجـات متباينـة - وفتحت مجالا للشعب للتنفس ، غير أن الجو يبقى مكدرا ما لم يعقبه استقلال اقتصادى وثقافى ..

ونهتم فى هـذا الحديث الموجـز بالتحـــرر الثقافى أى التحرر من الطرق التقليدية فى التفكير. وأول شىء يصادفنا هـو ما يسمى بالعـــلوم الانسانية . ان العلوم الانسانية تاخـذ القسط الوافر أو سهم الاسد من اهتمامنا اذا أردنا أن لا نبقى ميدان تجربة للباحثين الغربيين الذين نادرا ما يتصفون بالنزاهة العلمية عندما يتصدون لبحث

ابن عمار الصغير

مجتمعنا . واذا كانت المجلات الغربية المختصة تهتم يوميا بالمناهج فى العلوم الانسانية ، واذا كانت الدول المتقدمة تعقد مؤتمرات للبحث والمناقشة فى هذه المادة بالذات وترى بأن المنهج ملتصق دائما بالايديولوجية ، فنحن أولى بهذا الاهتمام لاننا لم نتحرر بعد من المناهج العقيمة التى تجاوزتها الاحداث وتخلى عنها الغرب وفضحها بعض الغربيين .

وأود فى هذا الحديث العابر أن ألقى نظرة على الاتنوغرافيا . هذه المادة التى نجد لها فى بعض جامعات العالم الثالث كرسيا وهيئة تدرسها وتقوم بالبحوث المتعددة ضمن مناهجها ..

فما هى الاتنوغرافية ؟

الاتنوغرافية هى دراسة المجتمعات العتيقة : أى المجتمعات التى ما زالت فيها رواسب بدائية . ولتعريف المجتمع العتيق لنا أن نقول بأنه مجتمع ضيق فى مظهره التقنى والقانونى . وعلماء الاجتماع يفضلون نعته بالمجتمع العتيق ، ويتهربون من نعته بالبدائية لان البدائية تتضمن حكما معياريا وبالتالى فهو ادخال عنصر قيمى فى الموضوع .. ويقال كذلك بأن المجتمعات العتيقة ليست لها صيغة تاريخية أى انها مجتمعات لا تتصف بتشعب الحضارة .. فالمجتمع العتيق اذن هو مجتمع بسيط وضيق .

كذلك نجد العالم الفرنسى دوركايم E. Durkheim يخصص كتابا لدراسة المجتمعات الطوطمية وحاول تقديم تعريف للمجتمع البدائى وذلك فى كتابه : الاشكال الاولية للحياة الدينية.

Les temps modernes le N° de Mars 1971

ويرى بأن المجتمع البدائى هو : أبسط المجتمعات وتتجلى بساطته فى أنه يفهم ويشرح بدون أن نستعين بمجتمعات سابقة له ... ونجد وصفا آخر للمجتمع العتيق هو كونه متماسك ، وهذا التماسك يؤدى الى وحدة المظهر Uniformité أى اننا اذا أخذنا عينة فهى ممثلة . فالاسرة مثلا نموذج ممثل وعينة صالحة للدرس ، فالاسر متشابهة متماثلة وكذلك السلوكات والذهنيات . ففى المجتمعات الطوطمية أو البدائية نجد وقوع كارثة او افراح تؤدى الى استجابة تلقائية وعامة بل ان الفرد صورة للمجتمع وعينة ممثلة له .

وما هى مهمة الاتنوغرافى ؟

ان مهمة الاتنوغرافى تنحصر فى الوصف المحلى أى : ان الدارس الاتنوغرافى ينتقل الى المحيط المدروس أى الى البيئة التى يعيش فيها هذا الشعب الذى هو موضوع للدرس .. ولكن قبل أن نستمر فى ذكر مراحل البحث لنا ان نتوقف قليلا لنلاحظ بأن الدراسة الوصفية الشاملة قد لا تتغلغل الى صلب الموضوع للتعرف على الظاهرة فى مختلف مظاهرها ، بل أن الملاحظة الدقيقة قد تمكننا من التعرف على كثير من وجوه الظاهرة ولكن ، قد لا نفهم الاسباب الاولية المنشئة لهذه الظاهرة ... هذه هى العقبة الاولى التى تصادفنا فى البحث .

وأما الصعوبة الثانية فتبرز عندما نريد الادلاء بنتائج البحث ، فهذه النتائج بدورها تتضمن

عيبين : فالعيب الاول هو كون النتـائج مرتبطة بآيديولوجية الباحث ، والعيب الثانى هو ادخال النتائج فى نسق مذهبى معاصر للباحث وبعيـد عن واقع المبحوث . هذه الفكرة الاخيرة قد تثير نقاشا وقد يقال بان مهمة الباحث هو الجمع ثم الهدف الذى يريد الوصول اليه هو تكوين نظرية وادخالها فى نسق معين . ان تكوين النسق فى حد ذاته شىء مرغوب فيه اذا لم تكن العملية عملية تلفيقية بدل التوفيق بين الاجزاء المختلفة . وان محاولة التوفيق او الحصر فى نسق معين عليها ان لا تنسينا الوحدات المتباينة وفى الرياضيات نعلم بأنه لا يمكن جمع وطرح وحدات مختلفة ... ان قولنا هذا لا يقضى على علم الاجتماع كعلم ولكن الدفاع عن العلمنة شىء والتوصل الى معرفة الحقيقة فى مجتمع معين شىء آخر ..

ولعل من الاحسن أن نذكر بهذا الصدد رأيـا آخر حول خطورة هذا النوع من الدراسة كمـا فعل صاحب مقال « الاتنولوجية ما فائدتها ؟ » (مجلـة طـان مـدارن عـــدد مـارس 1971) .
Les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse
وصاحب المقال يرى بأن الدراسات الاتنولوجيـة والاتنوغرافية لم تكن فى يوم ما دراسة نزيهـة اذ أن وراء كل اتنولوجى شرطى أو سياسى لا تهمه الدراسة فى حد ذاتها بقدر ما تهمه النتائج العملية التى ينبغى التوصل اليها .. وهـذه النتائج هى الفهم لتسلط أحسن واستغلال أكثر .

ولكن هل المجتمع العربى صالح لهذا النوع من الدراسة ؟

وهذا السؤال يؤدى بنا الى سؤال آخر : ما نوعية المجتمع العربى ؟ .. لقد قيل بأن المجتمع العربى مجتمع زراعى . فاذا سلمنـا بذلك بدون أن نتطـرق الى بحث دقيق لهـذا الجانب الذى يستحق وحده اهتماما خاصا . واذا علمنـا بأن الزراعة ترتبط بالتنظيم البـدوى الذى يعتبر — حتى فى أبسط اشكاله — الاساس الاول لقيام العمران الحضارى نظرا لانه يتطلب ارتباط الناس بالارض والاستقرار فى مكان محدد بالذات وما يترتب على ذلك من الرغبة فى الارتفاع بمستوى المعيشة وتحسين ظروف الحياة من كل النواحى ، والميل الى الخلق والابتكار والعمل على المحافظـة على التراث الاجتماعى والثقافى .

وكذلك الرعى الذى يرتبط بالتنظيم القبـلى وحياة البداوة والنجعة التى تحتمها نفس الظروف العامة السائدة فى الصحراء وبخاصة الظروف الجغرافية والحالة الاقتصـادية (والمعاشية التى تجعل الاقامة من مكان واحد أمرا صعبا الا حيث تتوفر شروط معينة بالذات . ويقوم النمطان جنبا الى جنب فى العالم العربى ككل وفى كل بـلد من البلاد العربية على حدة مع اختلاف حظوظهـا منها . ولكن هذا التسرع فى الحكم قد يجعلنـا نتناسى عاملا هاما هو العامل الذهنى . ان هـذه المجتمعات بل هذه الانماط لم تكن قارة ومنغلقة ، وهذه المجتمعات لم تكن تحيا منعزلة . لها حياة خاصة وبعيدة عن التيارات الفكرية السائدة بل استفادت ولو قليلا من فوائد الحضارة العالميـة . فالتأثير الخارجى موجود ولو كان ضئيلا .. اما ان يقال بأن هناك مجتمعات بعيدة عن الحضـارات الانسانية وعاشت منغلقة تحيا حياة خاصة ولم تكن لها أى علاقة مع المجتمعات البشرية الاخرى فهذا من قبيل الميثولوجيا .

ان الدراسة الاتنوغرافية والاتنولوجية قـد تكون لها فائدة حقيقية . هـذه الفـائدة تتمثل بالدرجة الاول فى بعث التراث الحضارى .. وهذا البعث ليس بعثا للانغماس فيـه ولكن لانتقـاء الصالح والاعراض عن الطالح .. هنا فقط تكون للاتنولوجية فائدة وفائدة حقيقية .. ولنا عودة الى الموضوع .

الاستعمار المقنع

2

محمد عزيز الحبابي

الاستعمار مدفوع الى تآمر بشع بطبيعة تكوينه : يتآمر ضد خيرات الارض وما تحت الارض ، وضد كرامة « الاهليين » . تتجلى فعاليات القضاء على تلك الكرامة ، مباشرة وبكل وضوح ، فى اقبار الثقافات الوطنية بالبلدان المستعمرة . فأينما مر أشبال وعشاق (أتيلا) المعاصرون ، تقلص الفكر وذبلت الثقافة القومية . من أولئك الهدامين من يعمل عن جهل ، ومنهم من يخرب ليستقيم الامر لارباحه واستغلاله . نعم ، « ما ضاع حق وراءه طالبه » ، ولكن ، اذا قضى على شخصية هذا « الطالب » سهلت السيطرة على « المطلوب » : بلدوا ووحشوا « الاهليين » ، باسم الحضارة والتمدين ، يستقر لكم الامر ! تلك هى « الفلسفة » السياسية للاستعمار .

قد يكون ، احيانا ، من بين أنصار الاستعمار ، « مثاليون » ينخدعون بنظريات مغرية وبأساطير غذتهم ، منذ الصبا ، فترعرعت فى مخيلتهم ، اذ « صادفت قالبا خاليا ، فتمكنت » . فهؤلاء ، عن حسن نية ، يندفعون والتيار ، مع شيء من العطف على « الاهليين » . قد تنطبق عليهم قولة سقراط : « لا أحد يفعل المنكر عمدا » .

* * *

لهذه الطائفة نخصص هذا الحديث .

ان الميثولوجيا ، اليوم ليست فقط تاريخا خرافيا عن القدماء ، بل أيضا انعكاسا نرجيسميا لـ « الممدنين » (بكسر النون) المعاصرين . فنحن ، وان كنا لا نعثر ، فى أساطيرنا ، على حروب بين الآلهة والابطال ، نشاهد صراعا ، حاميا ، من نوع جديد ينبعث عن ذهنية خرافية : الصراع من أجل سيطرة بعض الشعوب وبعض الاجناس على أخرى ، فى كل حلبات الحياة ، باسم أفضلية « الدم » ، أو باسم الرقى ...

طبقا لتلك النظرية العنصرية ، تأخذ نشوة القوة بالشعوب المتقدمة تقنيا واقتصاديا ، وتلعب برأسها ، مما يجعلها تعتقد أن القوة تكسب الفضائل ، وتفرض واجبات لها على الضعفاء . وأول مهام « العظماء » « التبشير » ، ولو عن طريق القوة ، بأن الاشتراكية ، أو الاقتصاد الحر ... هو النظام الصالح لكل العالم ، و « كل ما ليس عليه أمرنا فهو رد » ... فالقيم والمقاييس للتفكير والسلوك والحكم ، يجب أن تقتبس كلها من النظام الذى ارتضاه الشعب القوى لنفسه ولمجموع الشعوب . فمن اختار غير ذلك نظاما فى الحياة تعرض للمضايقات الاقتصادية والمؤامرات السياسية . « فاما أن تتعشقنى ، بالرغم عنك ، والا أعلنتها حربا شعواء عليك وعلى من يناصرك ! » لو كان التاريخ يعيد نفسه لصرحنا بأننا دخلنا مرحلة جديدة من الحروب الصليبية ، حرب الفكرولوجيات ، وأن العاقبة لمن هو أكثر قوة سلاحية تدميرية !.. اذ لا مكان للضعيف . .

* * *

من هنا كان انتشار الثقافة والمبادىء العليا لا يتجاوب سويا مع المثل وحاجيات الشعوب ، بل مع الامكانيات الحربية : الدبابات أولا ، والمفاهيم الحضارية ، ثانيا ، وبتعبير أصح : فى البداية ، توجد القوة النارية الصماء ، ثم عنها تتولد أسس الباقى .

أليس تقدم الحضارة هو الذى مكن الانسان من الاختراعات والاكتشافات الهائلة ، ومن بينها الاسلحة للدفاع عن تلك المكاسب وتوسيع نطاقها ؟

لكن جدلا ديالكتيكيا غريبا وغريبا قلب الوضع رأسا على عقب : قد أمست الاكتشافات والاختراعات موجهة لصالح الاسلحة والتسليح ! فالحضارة والتقدم جميلان وجيدان ، ولكن القوة غدت أجمل وأنبل : فلنركع ، ولنسجد للقوة ! (قوة النار والحديد والتفجير النووى ...) فما دامت الثقافات تعمل لصالح تلك القوة ، ولم تبق للقيم الاخلاقية والفنية والفكرية والروحية الا القدر النزر من الجاه والقداسة ، سهل طمس كثير من معالم الثقافات « الاهلية » .

* * *

هناك ما هو أنكى وأفظع ، عندما تتقدم الثقافات « الاهلية » مزيفة ، محنطة ، مشوهة الى أبنائها ، يستبشعها بعضهم ، ويتنكر لها ويهاجمها ، مفضلا عليها ثقافة الغالب ، ولغة الغالب ، وتاريخ الغالب ، لان النتيجة الحتمية لفعل القوة فى الضعفاء ، هى انحلال الشخصية الفردية والتنكر لشخصية الشعب ومقوماتها ، وهنا الخطر الاكبر على مصير الانسان بوصفه انسانا .

يحاول « الاهليون » المتنكرون لشخصيتهم القومية أن يكونوا لانفسهم كيانا جديدا ، مقتبسين من ثقافات الاقوياء ، بعض العناصر ، لكنهم سرعان ما ينطحون جباههم على الحصون المنيعة ويكسرون أرنبتهم ، بنى المستعمرون المتطرفون ، بآسيا وبافريقيا ، السدود كى لا تتسرب ثقافتهم الا بالقطرات ، ولقلة من المحظوظين ، ويقيم العنصريون أمثال (فوبوص Faubus و (والاص Wallace بالولايات المتحدة نفس السدود ، المدرسة لابناء لقدر النزر من الجاه والقداسة ، سهل طمس كثير من معاليم الثقافات « الاهلية » . البيض ، والجامعة لابناء البيض ، لان الاسود لا يستحق أن ينال حظه من الثقافة ، ولان الابيض لا

يختلط بالاسود . ولان الثقافة ميزة للابيض ... وقد استعملت القوة . ضد شبان وشابات سود يريدون مقعدا فى المدرسة والجامعة ، وماتوا ، ومعهم ظمأهم وتعشقهم للثقافة . فانتصرت القوة على الثقافة وعلى مبادىء الحضارة (I) . القوة فوقك يا أنسانية !...

القوة « قضت » . بمنطق البندقية والمدفع والرشاشة . أن « الاهليين » « والسود » ، و « الحمر » و « الصفر » ليسوا كالآخرين . بل ليسوا « آخرين » : انهم شىء ، أو أشياء . انهم شىء من الاشياء . لكنهم ليسوا شيئا فى حد ذاته !..

* * *

فمن سوء الحظ أن النمو العلمى لم يقض على الميثولوجيا التى تعشش فى كثير من الادمغة ، بل على العكس . قد ذكى خميرتها عند بعض الناس الى حد أنهم آمنوا بمعادلات عابثة : بقدر ما تتقوى اقتصاديات وأسلحة أمة . بقدر ما تزداد يقينا ان الحقيقة الى جانبها . وأن التاريخ « يفرض » قيادتها على الامم الاخرى . هكذا ، تتحالف النرجيسية مع نشوة القوة . فيتمخض عن اتصالهما طقس ذهنى جديد تخنق فيه أنفاس العدل والمساواة والحق . وتنتصر فيه العنصرية . اذ ذاك يضفى الاقوياء صبغة الحضارة على قوتهم ويغلفونها بطابع انسانى ليخدروا الضمير ويهبوه طمأنينة زائفة .

النرجيسيون لا يعون وضعهم كما هو . لانهم ثمالى يجترون ... مستواهم الثقافى قد يعلو عند هذا وينخفض عند ذاك . اذ الثقافة وحدها لا تكفى لاستئصال النرجيسية والعنصرية . فلا عجب أن نرى من بين السلاليين المتطرفين ، مفكرين كبارا وأبطالا عظاما . مثل (ارنيست رينان) و (روزامبرغ) .

فهل سبب ذلك أن العنصرية تشكل انحرافا عرضيا للعقلية المعاصرة . ولا تقوم على أى أساس فلسفى أو دينى أو فكرولوجى ؟

يمكننا تفسير هذا الوضع الغريب ولو جزئيا .

* * *

تقدم البيئة المعاصرة لبعض العنصريين صورا ودلالات عنها وعنهم لا تمت الى الواقع بصلة . بل تستقى من الخرافات . فيفترون ظنا منهم أنهم حاملو رسالة التمدين وانهم الانبياء المنقذون . فبطريقة عفوية يضفون ، على ذواتهم ، معانى مصطنعة تلائم ميولهم وسلوكهم فى الحياة كما يتصورونها . وكما يفهمون دورهم فيها . انهم كالعنكبوت تفتل خيوطها بيدها وتنسج منها الغلاف الذى يعزلها عن الخارج . أو مثلهم كمن ينظر فى المرآة لا يجد الا شخصه كما صبغه وزينه. فالمجاملة مع الذات ترمى فى أحضان النرجيسية . ان العنصريين نرجيسيون ينغلقون على نظرتهم الخاصة عن العالم ويتنكرون لنظرة الآخرين لهم وللواقعية ولعالم الآخرين. يعكس سلوكهم منظومة ضيقة ومنحرفة من المفاهيم والدلالات عن الدم والعرق، وعن الاخلاق، والذهنيات، والعلم، والتاريخ، وكل ذلك يتناغم فى عقليتهم ويسير على ايقاع منسجم داخل نظرية عامة .

انه خطر على تلك النظرية . من الداخل . وكل ما يمكن أن يهددها هو احتكاكها بما هو أجنبى خارجى . تقبل البعض ذلك الاحتكار الى أن كشف له الغطاء . فتراجع عن خيوط عنكبوته الفكرية ، أما البعض الآخر فامتنع ، فى كبرياء . من الاحتكاك حتى لا يواجه الحقيقة . فساهم فى القضاء على الثقافات « الاهلية » . لان وجودها يرغم على الاحتكاك . ثم على اتخاذ موقف من النظرة الى الحياة والسلوك مما يقلق ويحدث مشاقات نفسانية النرجيسيون فى غنى عنها .

* * *

القضية . اذن أعمق مما يظهر لاول وهلة .

(I) تشير الى الحوادث المفجعة التى وقعت بمناسبة افتتاح العام الدراسى لسنة 1958 فى جنوب الولايات المتحدة حيث رجمت جمهير البيض الاولاد السود الى أن لفظوا النفس الاخير وداست بارجلها جثث الطلبة الذين ضحوا بأنفسهم دفاعا عن القيم الثقافية وعن المساواة التى منحهم اياها الدستور الامريكى .

فالعنصرية ليست خلقا منطقيا أو تحديا للاخلاق : ان لها جذورا ميتافيزيقية (لانها تتولد عن نظرة الى الكون والحياة) ، وسيكولوجية (الميتافيزيقا توجه السلوك) . أما الميتافيزيقا ، بدورها ، فليست بالشيء البسيط ما دامت تتغذى من ميثولوجيا غامضة تهيمن على ارادتنا وشعورنا وتفكيرنا ، انها تقوم بفعالية كبيرة في حياتنا الفكرية والسيكولوجية ، عن غير وعي منا ، كالغدد التي تسير ، في عمق وبتستر ، حياتنا الفيزلوجية ونحن غافلون ، تمام الغفلة ، عن نشاطها الهائل .

ليس من خاصيات عصرنا أن نرى الاساطير تسير تفكيرنا ، فالعقل كان دائما يرضع من ثديي الميثولوجيا . فمن العبث أن نحاول فصل هذين الاخوين من الرضاع . فالمجتمع العصبي المتطور الذي يحتكم بأحكام العقل ، لا يزال ، في الواقع ، خاضعا لكثير من الخرافات والترهات . فتغلب المنطق على الخرافة هو أكثر صعوبة مما يظن للوهلة الاولى . وقد ذهب (روبير) ، في بحث عن « **فلسفة طبيعة الاسطورة** » ، الى التأكيد بأن هذا التغلب ليس عملا عسيرا فحسب ، بل عملا مستحيلا :

« اذ استقلال الفكر عن الاسطورة لا يمكن أن يكون استقلالا مطلقا كاملا دون تناقض . من الممكن أن نفكر بكيفية عقلية وعلمية في مسألة خاصة لا في الطبيعة أو في الانسان داخل الطبيعة . الانسان عندما يقوم بالنظر الخالص يمكنه أن يدرس الطبيعة ، بمجموعها . لكن ، عندما يشعر أن تلك الطبيعة تتضمنه ، وأنه جزء منها ، لا يستطيع أن يبقى صاحب نظر مجرد » (2) .

كيف العمل على زحزحة الميثولوجيا ، ولو الى حد ما ، من فوق عرشها العتيد ، عسى أن يتحرر العقل البشري ، ولو قليلا ، من سيطرتها ؟

* * *

ذاك ما حاولته بعض الديانات .

أول من قام بمحاولة من هذا القبيل هي الديانات الابراهيمية . فعوضا من معرفة الكون والمجهول عن طريق الاسطورة (نتاج التخيل) ، نجد أن الميتافيزيقا الاسرائيلية (العهد القديم) واللاهوت المسيحي وعلم الكلام الاسلامي توجه كامل عنايتها لنبذ الخوف الناجم عن المجهول الكامن وراء الاساطير لفهمه وافهامه . فالله هو السبب الاول ، الخير الاسمى وينبوع كل خير . انه إله كل الاجناس والاكوان ، وهو عشق وعاشق ومعشوق لذاته . وتزيد الديانتان الاسرائيلية والاسلامية : بأنه اله متعال ، تعاليا مطلقا ، منزه عن كل تشبيه ، مريد بارادة أزلية ، أحكامه غير عرضية،وهو عقل،عاقل ومعقول وينبوع الحياة والعقل ، انه علة العلل المتجلية أبدا :

« وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الخالق »

أحد ، أحد ، فلا معارك بين الآلهة ، أو تدخلات حزبية لرب من الارباب في الحروب الانسانية ، كما هو الشأن عند يونان القديمة ، اعتقد القدماء أن للنواميس الطبيعية أرواحا ، فتمثلوا كل واحد منها في صورة مجسمة ، ثم ألهوا أهمها وأقواها ، مما جعل ذهنية القدماء ، بالشرق وبالغرب ، تسبح في بيئات تلعب فيها الآلهة وأرواح الطبيعة دورا أعظم من دور الكائنات البشرية .

فدعوة الديانات الابراهيمية لم تكن دعوة اصلاح فقط ، بل ثورة جارفة زعزعت مقومات التفكير والسلوك ، أخلاقيا ومجتمعيا ، ونفسانيا . فوحدانية الله وتعاليه المطلق سفهتا خرافة الصراع بين الآلهة ومشاركتهم في الحروب الانسانية ، وقضت على الاعتقاد بأن لظاهرات الطبيعة أرواحا تتأله ، كما قضت على الايمان بتعدد الآلهة . فلا آلهة ، الا « الوهيم » ، الاحد :

« ان الرب هو الاله ، وليس اله سواه »(3) . انه أحد ، عالم ، عنه تفيض المعرفة .

« وفوق كل ذي علم عليم » (قرآن 2 ، 6)
وقادر « فعال لما يريد » (II : 107)

2) - R. Rayer, La philosophie de la nature du mythe, in, R. Intern de philosophie, n° 36 1956 p. 167.

(3) سفر تثنية الاشتراع 4 : 35 راجع كذلك القرآن 2 : 5

التعليم الأصلى في الجزائر

عبد المجيد الشريف
مدير التعليم الأصلى

ان الجزائر عبر القرون التالية للفتح الاسلامى ، حافظت على الثقافة العربية الاسلامية بصلابة ليس لها مثيل ، واغنت التراث العربى بكثير من الشروح ، والتعليقات ، والمؤلفات الهامة ، وانتفعت بالتيارات الثقافية العربية التى قدمت اليها من الاندلس والاقطار العربية الاخرى .

وقد كثرت الجامعات ، والرباطات ، والزوايا ابان العصور الوسطى ، كثرة ادت الى ثورات ثقافية قدر لها ان تستمر ردحا من الزمن ، وقد اشتهرت بعض هذه الرباطات باسماء اصحابها ، واصبحت مركزا للادب والامامة والارشاد .

ويقول « بولارد » المؤرخ الفرنسى فى كتابه (التعليم فى الجزائر قبل 1835) : « كان فى الجزائر فى القرن الرابع عشر وما بعده مراكز ثقافية باهرة وكان فيها اساتذة متمكنون فى علوم الفلسفة ، والفقه ، والادب ، والطب ، والنحو ، والفلك ، وكانت المدارس منتشرة فى ربوع البلاد ، والتعليم فيها شرعى ودينى ، ومدنى » .

وحتى فى المدة الطويلة من ايام الاستعمار التى ابتليت بها البلاد . ورغم الضغط والتنكيل برجال العلم ، ورغم المصادرة والابادة والعمل على محو كل أثر يجعل الفرد الجزائرى يشعر بمقوماته ودينه . حيث اغلق المستعمر المدارس ، واغتصب أوقافها ، ومنع التعليم العربى . وعاقب بالسجن والتشريد من يمارسه أو يطالب به ، حتى خبت منارات الاشعاع الثقافى من بجاية . وتلمسان . وبسكرة . ومازونة ، وتيهرت (تيارت) ، وقسنطينة . وغيرها من دور العلم والثقافة المنبثة فى كامل التراب الجزائرى . أقول حتى اثناء ذلك الليل الطويل المظلم ظلت الجزائر تبعث بابنائها لكل مكان تانس فيه علما طلبا للعلم وبحثا عن المعرفة . وبفضل الارادة الشعبية ووفاء هؤلاء الابناء البررة استطاعت الجزائر ان تحافظ بكل صلابة على دينها ولغتها ، رغم الحديد والنار ، وبطش المستعمر وجبروته ودهائه ومكره . وتجنيد كل الطاقات لتشويه ماضيها التليد ، وطمس معالمه ، والعمل على فصله عنها . وفصلها عنه .

وهكذا كانت المساجد والرباطات فى الاول ، ثم المدارس الشعبية فى المرحلة الاخيرة . مراكز اشعاع للثقافة العربية الاسلامية ، وقلاعا حصينة للحفاظ على الشخصية الجزائرية الاصيلة .

واليوم ... وقد استعادت الجزائر حريتها واستقلالها يحق لها ان تستعيد مجدها الثقافى الاصيل . وتتخلص من التبعية الفكرية البعيدة عن الواقع الجزائرى .

. كما يحق لها ان تسهم فى بعث التراث الاسلامى . وترفع فى ميدان البحوث مشعلها المجدد . وللمساهمة فى تحقيق هذا الهدف تسعى مؤسسات التعليم الاصلى التى تبنت هذا النوع من التعليم وعملت على تطويره بما له من اهداف قريبة وبعيدة . ترمى من ورائها الى الرفع من مستوى الفرد الجزائرى روحيا وخلقيا ، وجعله عضوا نافعا بناء . تكاملت فيه شروط المعرفة والاخلاق . وتفاعلت فيه مثالية الروح وتفتح العقل .

اهداف التعليم الاصلى :

من جملة الاهداف التى تسعى لتحقيقها معاهد التعليم الاصلى :

– تكوين جيل صاعد من الشبان والشابات . يتوفر فيهم التكوين العلمى باوسع واحدث معانيه مع التربية الاسلامية المتينة .

– **تركيز اللغة العربية** حسب الطرق العلمية . ونشرها على أوسع نطاق بالسرعة الكافية لدعمها وفق مقتضيات العصر .

– **انقاذ ابنائنا الذين حرموا من التعليم العام .** أو ممن فاتهم السن القانونى للدخول فى المدارس . أو كانوا دون السن المطلوب للدخول فى المدارس المهنية .

– **تكوين اطارات دينية متينة** ، قادرة على تحمل رسالتها بصدقويقين . وعاملة على ازالة ما يعلق بالتعاليم الاسلامية من شوائب المغرضين . وافتراءات الدساسين .

الوضع الحالى لمؤسسات التعليم الاصلى :

ان مؤسسات التعليم الاصلى منذ نشأتها تتقدم تقدما حثيثا من ناحية اقبال الشعب عليها ومن ناحية تطويرها واعادة بنائها حسب الاساليب العصرية الحديثة . وفى مستوى الثانويات العامة الاخرى بفضل ما أولته القيادة الثورية من عناية خاصة بها ضمن المخطط الرباعى . حيث قال الرئيس الاخ هوارى بومدين غير ما مرة : لا أريد

ان تكون هذه المؤسسات من الدرجة الثانية ، حتى لا تتملك روادها مركبات وعقد ، ويوصم محتواها بالتخلف والرجعية .

وبالفعل فقد تم لهـــذه المؤسسات ترسيمها والاعتراف بشهاداتها وتركيز الاطار المشرف على تسييرها وخولت له نفس الحقوق المتمتع بهـــا نظراؤه فى التعليم العام .

وبذلك فتحت آفاق جديدة امام هذه المؤسسات حسب متطلبات التعليم المتجـددة ، فتمكنت من اعادة النظر فى البرامج الدراسية المتبعة لكافـة السنـــوات وجعلهـا فى مستوى العصـر ، مـع اعداد ما يلزم لها من الكتب والمراجع الضرورية للاساتذة والطلاب معا ، والمتماشية مع البرامج من جهة ، والمستجيبة للواقع الذى يعيشه الطالب من جهة اخرى .

ان مؤسسات التعليم الاصلى الآن تشرف على تخريج افـــواج من الطلبة المحصلين على أهلية التعليم الاصـــلى ، وبكالوريا التعليم الاصــــلى ، وهؤلاء بدورهم يفرد منهم من يرغب فى التخصص فى التعليم العالى للعلوم الاسلامية أيضا ، وبهذا تغدو هذه المؤسسات حقولا حية لانتاج التفكير الاسلامى الحق المتماشى مع تيارات العصر السريع ، والاهداف الثورية الطلائعية فى بلادنا .



معهـد التعليـم الاصـلى بالـوادى

معهـد التعليـم الاصـلى بالـوادى

ويبلغ تعداد مؤسسات التعليم الاصلى حاليـا عشرين ، وهى موزعة على الاماكن التالية :

العاصمة ـ البليدة ـ المـدية ـ الاصنام ـ معسكر ـ وهران ـ بلعباس ـ تلمسان ـ بنى دوالة ـ العثمانية ـ قسنطينة ـ عنابة ـ باتنة ـ بسكرة ـ بوسعادة ـ الهامل ـ الاغواط ـ الوادى ـ آدرار .

هذا وقد فتحت فى السنة الدراسية الحاليـة 91 ـ 1392 هـ (71 ـ 1972 م) مؤسسات أخـرى فى كل من الاماكن الآتية :

تيزى وزو ـ بجاية ـ سطيف ـ قسنطينة ـ وهران ـ تجديت (مستغانم) .

كما ان هناك عددا من مؤسسات أخرى قـررت فى المخطط الرباعى أو فى البرامج الخاصة وهى الآن بصدد الانجاز فى عدة مدن من مختلف انحاء الوطن .

برنامج التعليم الاصلي :

ان التعليم ذا الاتجاه الواحد كثيرا ما يدفع صاحبه الى الانزواء والانطواء على النفس . أو ينمي فيه روح المعاكسة أو المضادة للغير . وذلك نتيجة تفكير محدود الجوانب . تنشأ عليه مدارس واتجاهات فكرية غير متفاعلة ولا متلاحقة ولا حتى متقاربة في المشارب والميول بين ابناء جيل واحد . ووطن واحد .

وابتعادا عن الوقوع في هذا المضيق . وتجنبا لمزالقه الكثيرة جعلت مؤسسات التعليم الاصلي برنامجها الدراسي في كل من المرحلتين التكميلية والثانوية يشتمل على العلوم الشرعية واللغوية والعصرية مما يسمح لخريجيها بفرص التخصص حسب اختيارات الشخص واتجاهه الدراسي .

وعندما يختار الدارس الاتجاه الديني مثلا يكون في مستوى العصر ، لانه مشبع بمتطلباته من أول مرحلة حتى لحظة التخرج . ويصبح في امكانه ان يناقش المثقف بلغته وفي مستوى تفكيره . دون مركب ولا ضعف مبعثه التعقيد . ويخاطب الشباب بروح طلقة يتحسس انحرافاته عن خبرة ويسعى الى توجيهه دون تبرم أو يأس . ويعمل على تقويم المجتمع . وينير له سبيل الرشاد .

ومن المنطق ، ودون مبالغة . ان مثل هذه النوعية من المتخرجين والمتخرجات سيكونون حماة طبيعيين للشخصية الجزائرية الاصيلة وامتدادا للتفكير الاسلامي السليم المتفتح ، لذلك حرصت مؤسسات التعليم الاصلي على ان يكون برنامجها الدراسي في كل من المرحلة الاعدادية والثانوية جامعا بين الاصالة والتفتح . آخذة بعين الاعتبار ملابسات المستقبل بما تقتضيه من تنقيح أو تعديل .

التعليم الاصلي التكميلي :

وطبقا لما أشرنا اليه فان برنامج المرحلة التكميلية (الاعدادية) يشتمل على جزئين اثنين :

1 ــ العلوم الشرعية والعربية ، وموادها :

القرآن الكريم ــ الفقه ــ التوحيد ــ الحديث ــ السيرة ــ الفرائض ــ الاخلاق والتربية ــ النحو ــ الصرف ــ الادب ــ النصوص ــ المحفوظات ــ المطالعة ــ الخط .

وهذا الجزء هو خلاصة دراسة البرامج المتبعة في المؤسسات المماثلة في البلدان الشقيقة . بعد أن اضفى عليه من الطابع الجزائري ما جعله يتلاءم واتجاهنا القومي . وتاريخنا الاصيل .

2 ــ العلوم العصرية وموادها :

رياضيات ــ علوم ــ فيزيا وكيميا ــ تاريخ وجغرافيا ــ لغتان أجنبيتان ــ الرياضة البدنية ــ الرسم ــ الموسيقى .

وفق برنامج وزارة التعليم الابتدائي والثانوي حرفا بحرف وذلك للعمل على وحدة المدرسة الجزائرية باقامة قاعدة من الثقافة العامة تربط بين النوعين وتجعل منهما عنصرين متكاملين يعملان من أجل هدف واحد للنهوض بالوطن ودفعه الى الامام مع الحفاظ على المميزات الذاتية والمقومات الشخصية .

الشهادة الاهلية للتعليم الاصلي :

ان ثمرة الاكتفاء بهذه المرحلة هو الحصول على شهادة الاهلية للتعليم الاصلي التي بدأت بواكيرها منذ سنة 1962 م . وشرعت هذه المؤسسات تتوفر على تخريج مجموعات متفاوتة العدد ، تبعاً لنموها الطبيعي .

وبما أن الجزائر في هذه المرحلة الانتقالية في حاجة الى الاطارات وخاصة في مجال التربية والتعليم فان أفواجا كبيرة من هؤلاء الطلبة والطالبات الناجحين في الاهلية التحقوا بالتدريس في المدارس الابتدائية كمعلمين ومعلمات بعد أن يكونوا قد مروا بفترة تدريب من طرف وزارة

التعليم الابتدائي والثانوي تمكنهم من ممارسة المهنة ومنهم من ذهب في بعثـات دراسية الى بعض البلدان الشقيقة ومنهم من فضل العمل في قطاعات أخرى ، على ان الذين ما زالوا في سن يسمح لهـم بمتابعة الدراسة ، ظلوا يدرسون المرحلة الثانيـة من التعليم الثانوي .

جدول الناجحين والناجحات في شـهادة الاهليـة للتعليم الاصـلي

السـنوات	عدد الناجحين والناجحات	عدد المعاهد التي شاركت
1965 – 64	0092	04
1966 – 65	0257	07
1967 – 66	0390	12
1968 – 67	0628	12
1969 – 68	0788	14
1970 – 69	0813	15
1971 – 70	1080	17

التعليم الاصلي الثانوي

لما كانت وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية تهـدف الى تكوين نخبـة متضلعة في التشريع الاسلامي ، قادرة على سبر غوره ، عارفة بمكنوناته في جميع الاغراض التي يشتمل عليها الاسلام ، من أحكام ، وفلسفة ، وتوجيه ، وتسعى في ايجاد اطارات صالحة في ميدان التعليم والامامة والتربية الدينية ، والوعظ والارشاد والافتاء ، والى ايجاد اطارات وطنية كفوءة على مستوى التعليم العـالي في مختلف فروعه ، فقد عملت على انشاء ثانويات للتعليم الاصلي في مختلف المدن الجزائرية لتدريس المرحلة الثانية من التعليم الثانوي . والبرنامج الدراسي لهذه المرحلة يشتمل في المرحلة الاعدادية على جزئين اثنين ايضا :

1 – المواد الشرعية ، واللغوية ، وهي : القرآن الكريم ، تفسير ، حديث ومصطلحه ، توحيـد ، فقه واصوله ، فرائض ، قواعد اللغة العربية ، الادب العربي وتاريخـه ، العروض ، البلاغة ، منطق ، فلسفة ، تربية وعلم النفس .

2 – العلوم العصرية ، وموادها :

رياضيات – علوم – فيزيا وكيميا – تاريخ وجغرافيا – لغات أجنبية – تربية بدنية .

وبانتهاء الطالب من دراسة هذه المرحلة يكون محرزا على شهادة بكالوريا التعليم الاصلي ، التي صدر مرسوم رئاسي بشأنها بتاريخ 18 ربيع الاول عام 1391 هـ الموافق 13 مايو سنة 1971 م يقضي باحداثها عطفا على شهادة الاهلية الآنفة الذكر ، ولقد تحصل عليهـا فـوج الطليعة هـذه السنة 70 – 1971 كباكورة أولى بلغ مجموعها ثلاثـة وثلاثين طالبا نجحوا في هذه الشهادة .

وهؤلاء حسب اختيـاراتهم فمنهم من يلتحق بجامعات الجزائر ، ومنهم من يوفد الى جامعـات الدول الشقيقة لمتابعـة تخصصهم في الشريعـة واصول الدين واللغة العربية ، ومنهم من يوجه الى أوربا وذلك بطلب من ودادية الجزائريين في اوروبا التي تحملت منحهم لمتابعة دراستهم العليا هنالك ، واعطاء دروس بالعربية لابناء المغتربين .

وبهذا تقوم مؤسسات التعليم الاصلي بدورها التكاملي في مجال التربية والثقافة ، وتسهم بجهد مأثور على الصعيد الوطني في الداخل والخارج .

التعليم الاصلي العالي

ان تخريج عناصر واعية متشبعة بالروح الدينية متفهمـة لاسراره ومتـوفرة في نفس الوقت على العلوم العصرية ، يستوجب انبعاث جامعة اسلامية كنتيجة حتمية وملحة : دعتها الضرورة كمرحـلة طبيعية يرتقي اليها التعليم الاصلي بعد التكميلي والثانوي ، ونظرا لذلك فقد اعدت الوزارة مشروعا لاحداث ثلاث كليات تضمن لطلبتها المتابعة على أرض الوطن ، وتوفر لهم من الامكانيات ما يشجعهم على المواصلة بنفوس مطمئنة وصدور منشرحة ،

لا ينغصها بعد أو اغتراب . ولا تفكير في عدم كفاية المنحة أو توقع تأخرها ، فتنحصر جهودهم في التحصيل ، والدراسة ، والبحث ، ويحصل التنافس على الانتساب والتخرج ، وتتضاعف النتائج ، وهذا كله مع البقاء على صعيد الوطن .

ان المشروع يشتمل على ثلاث كليات موزعة على القطاعات الثلاثة الكبرى : الجزائر ، قسنطينة ، وهران . على ان تدرس احداها الشريعة الاسلامية والقانون المقارن . والثانية اصول الدين والفلسفة المقارنة ، والثالثة ، اللغة العربية وآدابها وبعض اللغات القديمة المرتبطة بها .

والوزارة تسعى حثيثا للتطبيق وفق مراحل مدروسة ، مبتدئة بكلية الشريعة والقانون المقارن للحاجة الماسة اليها في ميادين التعليم والاطار الديني والقضاء ، وتليها باذن الله وعونه الكليتان الباقيتان .

النشاط المدرسي

لقد دأبت مؤسسات التعليم الاصلي منذ نشأتها على العمل دون ضجيج ، ايمانا منها بأن النتائج الايجابية التي ستحصل عليها من وراء هذا النشاط ستكون وحدها اللسان المعبر بصدق وواقعية عن مدى جهودها لتحقيق النتائج المثمرة ، التي حرصت على ان تكون مسايرة لروح العصر بمعطياته من علم وفن محتضنة بذلك أهم المبادىء الحية لبلوغ الغاية من انشاء جيل مؤمن بشخصيته ومثله العليا ، بعيد عن التعصب والتعقيد .

ولقد كان للتوجيه الهادف اثر بالغ في خلق روح متوثبة في اوساط طلاب هذه المؤسسات الذين وجدوا أنفسهم أمام منهج تعليمي يسمح باتاحة كل الفرص للخلق والابداع ، بما كشف عن طاقات علمية وفنية كامنة ، وساعد على صقل المواهب في مختلف النشاطات المدرسية ، وأظهر بواكير ناطقة بالنبوغ ، ومبشرة بطالع موفق في شتى المدارك الثقافية ، والفنية ، والرياضية الى جانب ما تضطلع به من رسالة دينية ، واخلاقية ، وقد امكنها من ان تساهم بقدر في كل من المجالات المذكورة .

فعلى الصعيد الثقافي تكونت لجان ثقافية من بين طلاب مؤسسات التعليم الاصلي للتدرب على الكتابة والخطابة ، ومختلف المواضيع الادبية ، من قصة ، ورواية ، وشعر ، ودراسات تتناول اهم شؤون الساعة ، وخاصة تلك التي تعنى بمشاكل الشباب.

وقد تمكنت بعض هذه اللجان من ابراز خامات دسمة ، واقلام غزيرة ، استطاعت ان تقدم انتاجا حسنا صالحا للنشر ، وقد ظهر بعضه في شكل مجلات مدرسية تبادلتها المعاهد والثانويات فيما بينها ، كما اذيع البعض الآخر بواسطة الاذاعات المحلية والتلفزيون .

غير أنه بالنظر للامكانيات التي يجب ان تتوفر لمثل هذا وغيره والتي ما زالت بعد في طور النمو ، فان هذه اللجان لم تتمكن من نشر وتوزيع كل انتاجها على نطاق واسع .

كما كان من ضمن طلاب هذه المؤسسات لجان تعنى بالتوجيه الديني ، والوعظ والارشاد ، وذلك بحكم وضعيتها الهادفة الى خلق جيل متكامل الخبرات ، فسعت الى ابراز هذا الجانب الروحي وتنميته في نفوس الطلبة الذين آمنوا برسالة مؤسسات التعليم الاصلي ، ودورها الكبير في معركة التعريب ، والعودة بالامة الى الاصل الذي هو أساس شخصيتها والدعامة المتينة لمقوماتها ، وللتخلص من العادات النابية عن تقاليدنا فان هذه اللجان قامت وما زالت تقوم بحملة توعية شاملة ، انطلاقا من المسجد الى كل مكان يقام فيه نشاط ثقافي ، طبقا لما نادت به السلطة الثورية في بلادنا كهدف يجب تحقيقه .

وهكذا فقد كان للدروس والمحاضرات التي القيت بالمساجد والاندية ، والمساهمة الفعالة في حملة محو الامية والمواضيع الاخرى المقترنة بالمناسبات الدينية والوطنية عامل ايجابي في الدلالة على الدور الذي تلعبه هذه اللجان في معركة التعريب والتوعية .

اما في ميدان الفنون الجميلة ، فان اللجان المؤلفة لهذا الغرض قامت بمجهود ينم عن اهلية وولوع ، واستطاعت ان تقدم اعمالا فنية يصح القول فيها بأنها محاولات ناجحة في العديد من الرسوم التي لا تخلو من ابداع ، فقامت برسم خرائط جغرافية مختلفة ، عالمية واقليمية ، في شتى الاغراض. سياسية واقتصادية ، وديموغرافية وطبيعية ، كما قامت برسم لوحات تاريخية لبعض المشاهد الحربية التي تتصل بكفاح الشعب

الجزائرى ضد الاعداء . الى جانب صور الشخصيات العلمية والسياسية والوطنية .

وهذا بالاضافة الى رسوم المناظر الطبيعية الاخرى والرسوم العلمية على اختلافها ، كما أن هذه اللجان لـم تهمل جانب النحت والتصوير المجسم ، والتطريز فى اشكال جمعت بين جدية العلم ومرح الفن .

أما الرياضة البدنية فان هذه المؤسسات أولتها اهتماما كبيرا لما لهـا من أثر سليم فى النفوس والاجسام . فكونت فرقا لمختلف الالعاب سـواء فى كرة القدم . أو السلة . أو الكرة الطائرة ، أو



تكميلية التعليم الاصلى بسطيف

تكميلية التعليم الاصلى بسطيف

فى مختلف العاب القوى . وهى مزودة تزويدا عصريا بكل المعدات الضرورية لمثل هذا النشاط .

وقد أخذت هذه الفرق تحتل مكانها فى الاوساط الرياضية ففاز بعضها فى سباق العدو الذى اقيم على المستوى المدرسى داخل التراب الوطنى . كما فاز بعضها فى كرة القدم على نفس المستوى فى جهات أخرى .

وهكذا فان هـذه البراعم الرياضية ستنمو ويشتد عودها بما يؤهلها لاقتعاد المكانة اللائقة بها فى دنيا الرياضة فى المستقبل .

الاسـاتذة

ان المخطط الاساسى الهادف من وراء هـذه المؤسسات . والذى يرمى الى تكوين افـواج من المثقفين الاكفاء المتخصصين فى مختلف المجالات سيما فى المـواد الشرعية واللغوية والفلسفية ، يتطلب منا أن نوفر لها ما تحتاج من أساتذة ذوى خبرة ومهارة . ودربة واختصاص لتخريج اطارات واعية بحسب الحاجة ، لها من القـدرة والكفاءة والاستعداد ما يؤهلهـا لتحمل المسؤوليات فى ميدان التوجيه والارشاد . وتربية الاخلاق . مما يساعد على تكوين جيل متكامل المواهب والخبرات، ومجتمع فاضـل مسنح بالعقيدة الحقـة والايمـان العميق .

ونظرا لهذا فقد كانت الحاجة ملحة وأكيدة الى توفير العدد الكافى من الاساتذة الذين توفرت فيهم شروط الاختصاص والدربة من حاملى شـهادة الليسانس . والاجازات العالية أو ممـا يعـادلها للاضطلاع بمهمة التدريس بهذه المؤسسات .

وقـد عملت وزارة التعليم الاصلى والشؤون

الدينية على استجلاب العدد الكافي من هؤلاء منذ أول انطلاقة حيث بلغ مجموعهم حتى غاية السنة الدراسية 70 ـ 1971 : 483 استاذ وهم موزعون بحسب اختصاصاتهم على النحو التالي :

جـدول الاساتـــذة وتوزيعهـــم بحسب المـواد

عـدد اساتذة العلوم الشرعية والعربية	عـدد اساتذة الرياضيات والعلوم	عـدد اساتذة العلوم الاجتماعية	عـدد اساتذة التربية البدنية	عـدد اساتذة اللغة الاجنبية
315	73	52	20	21

هذا وسيرتفع الاساتذة الى 554 أربعة وخمسين وخمسمائة اسـتاذ فى مستهل السنة الدراسية 71 ـ 1972 م تبعا للنمو المطرد .

الطلبة الافريقيون والآسيويون

ان مؤسسات التعليم الاصلى عملت على ان تكون ابوابها مفتوحة للجميع طبقا للمبدأ والهدف من تأسيسها . ومنذ الانطلاقة الاولى غداة الاستقلال الوطنى ومنذ ان ذاع عن هذه المؤسسات انهـــا تعنى بالتثقيف الدينى والدنيوى . أخذت أفواج من الطلبة الافارقة وغيرهم تؤمها وهى الآن تحتضن عـددا من مختلف البـــلدان الافريقية . مثـــل : السينغال . فولتا العليا . غينيا . ساحل العاج . بوروندى . الكونغو . موريطانيا . غينيا (بيساو) . السودان . سيراليون . غمبيا . ارتيريا . تيلانده (آسيا) وهم يحظون بالنظام الداخلى ، وبمنحة دراسية من طرف الدولة ، تضمن كل الالتزامات الدراسية .

وقد تحصل الفوج الاول من هؤلاء على شهادة الاهلية للتعليم الاصلى وهم الآن يتابعون المرحلة الثانية من الثانوى ، كما فاز بعضهم هذه السنة فى بكالوريا التعليم الاصلى .

آفـاق المستقبل

ان التعليم الاصلى بمؤسساته العاملة . وانبعاث جامعة اسلامية منبثقة عنه فى القريب . سيوفر ولا شك حاجياته من الاساتذة . وتطعيم المجالات التربوية الاخرى بذوى الاختصاص منهم . ويهىء عناصر صالحة فى ميدان الوظيف وغيره من مختلف القطاعات .

كما ان التعليم الاصلى يرمى الى ايجاد الاطـار الحقيقى فى ميدان التوعية والتوجيه الدينى والافتاء ويعمل على تكوين دعاة للاسلام . ومرشدى فضيلة على النطاق الواسع .

ولا يخفى على الاذهان ما نتعرض له اليوم من تيارات دخيلة بعيدة عن طبيعتنا من غزو فكرى يهدف الى ابقـــاء السيطرة الاجنبية والنفــوذ الاستعمارى ، ونحن الآن بحاجة ملحة الى دعـــاة ومرشدين اسلاميين واعين لما يحيط بهم . ومتفتحين على العالم دون تهيب او انحراف ولا انجراف .

ان الجزائر التى كافحت بصمود ، وكانت قدوة حسنة فى كفاحها الوطنى بالنسبة لشعوب افريقيا تشعر اليوم بان عليها واجبا أكبر وابعد شأوا ، فى ان تظل تلك القدوة والرائدة فى طريق المثل العليا والاخلاق السامية لبعث جيل واع يقظ .

من اجل هذا وغيره من الاهداف المتعددة كان العزم معقودا على النهوض بهذه المؤسسات وجعلها فى مستوى نموذجى يسمح باتاحة المنطلق الطبيعى، كى تثمر بالنتيجة المرجوة منها فى اقرب وقت وايسر سبيل . والله الموفق .

الجامعات

والمشاكل الصناعية

في الدول المتخلفة

حمزة الجارى

ليس هنـــاك شك فى ان الدول المتخلفة تعانى مشكلتين رئيسيتين هما :

1 ـ التربص او الهجـــوم الاستعمارى بواسطة الاستعمار المبـاشر او الانقـــلابات التى تؤدى الى اســـتبدال النظـــم الوطنية بنظم تتيـــح للاستعمار القديم او الجديد ان يستمرا فى حرمـان الدول المتخلفـــة من ثرواتها وان يوقف تقدمها .

2 ـ قضية التخلف الراهن علميا والاقتصـاديا واجتمـاعيا وحضاريا . بل قضية استمرار هذا التخلف (بسرعة المتوالية الهندسية لا بسرعة حسابية) اذا مـا قورن هـــذا التخلف بالتقدم العلمى والحضــارى فى الدول المتقدمة .

واحب ان أؤكد ان ايجاد الحلول لهاتين المشكلتين الحيويتين . لن يتم عن طريق العلماء أو الجامعات فى الدول المتخلفة فقط ، وانما سيتم الى جانب ذلك بواسطة التحول الاجتماعى الثورى الذى يعتمد على سواعد ملايين العاملين المجتهدين فى مؤسسات يملكها الشعب ، ويديرها الشعب بواسطة مؤسساته الديمقراطية الحرة . التى توفر وسائل التعبير الحر ، والنقد والمراقبة الشعبية الحازمة فيها . الشروط والمناخ الملائم لارتفاع صرح البناء الاقتصادى والحضارى والاجتماعى . هذا الطريق السياسى والاجتماعى هو الذى يمكن ان يفتح للجامعات وكلياتها العلمية فى الدول النامية مجالات لكى تسهم اسهاما له شأنه وخطره فى اقامة الامة ، وانقاذها من التخلف . المجتمعات اذا . يقدمها ويطورها التغير الاجتماعى والثورى الذى يساعد الجامعات على أن تؤدى وظيفتها بدورها فى خدمة التقدم . واذا كنا سنعتمد فى تطور جامعاتنا علميا على اساس اقتطاع الاعتمادات الكافية بملايين الدنانير من الميزانيات المرهقة للدول المتخلفة لصالح البحث العلمى فنحن واهمون نجرى وراء السراب يكفى ان ندرك ان الانفاق الشهرى على التدخين بواسطة افراد الشعب البريطانى يصل الى 3500 مليون دولار ، وهو يزيد عن الدخل الكلى لعدد مماثل من افراد الشعب الهندى .

واذا كان الدخل السنوى للفرد الاوربى أو الامريكى يصل الى 400 جنيه استرلينى ، فان دخل الفرد الافريقى والآسيوى واللاتينى يقل عن 40 جنيه استرلينى ! فمن اين لدولنا النامية ان تحلم بان تخصص للبحوث العلمية نفس النسبة المالية التى تخصصها الدول المتقدمة ؟ ان ما ينفق على البحوث فى بريطانيا (سنة 1962) كان 2ر7٪ من الدخل القومى (630 مليون جنيه استرلينى) فى حين لم تكن تنفق الهند ما يزيد عن 2ر0٪ من الدخل القومى .

ليس هناك طريق امام الجامعات فى الدول النامية الا ان تشارك ويشارك اساتذتها فى عملية بناء الامة بالوسائل التى تتيحها لها ظروفها ، وحسب الاولويات التى تفرضها عليها حركة النضال فيها ضد الاستعمار وللقضاء على التخلف. وهذه الاولويات يحددها الشعب بتنظيماته الديمقراطية وبواقع احتياجات الغالبية المحرومة .

وحين تسرى فى الامة الروح المقدسة للعمل ، وللعمل الجاد ، وللعدالة : العدالة فى كل مؤسسة ومزرعة ومدرسة ومستشفى ومكان ، ولمراقبة الشعب لكل طوبة فى بناء ، وكل انتاج فى صناعة وكل غلة فى أرض ، وكل خدمة فى مرفق ، فان حصيلة هذا كله ، تستطيع ان تضيف الكثير الى الجامعات ماليا وانشائيا وتدعيميا ومن ناحية الهدف الذى تعيش الجامعات من اجله .

ولقد اتسعت مجالات البحوث وتفرعت بشكل يفوق كل تصور سابق . ويفوق قدرات الجامعات المنفردة أيضا ، بل يفوق قدرات الدول المنفردة ، واصبح هناك ميل واضح فى العالم الى انشاء مؤسسات للبحوث على المستوى القومى بل المستوى الدولى . بل ان التعاون فى بعض المجالات مثل ابحاث الفضاء ، أو فيزياء الاجسام الدقيقة والبيولوجيا والعلوم الطبية قد اصبح واجبا على مستوى عالمى شامل . ويطرح هذا الوضع تحديا وتساؤلا خطيرا فى وجه الجامعات فى الدول النامية : كيف ستتمكن من تنظيم عملها بصورة تمكنها من المشاركة الفعالة فى مثل تلك المواضيع الضخمة ؟ ان مساهمة الجامعات فى مثل هذه البحوث يجب ان يكون لها وزنها الحقيقى ، اذ ان اجراء البحوث الثانوية والوصول الى نتائج ثانوية امر غير هام ومضيعة للوقت . ومثل هذه المشاكل يرزح تحت وطأتها كثير من الجامعات الكبيرة ويفرض تشعب البحث العلمى ظروفا جديدة للعمل فى المجتمع العلمى فى العالم ، وستتجه مجالات البحث اكثر فأكثر فى كل الدول المتقدمة والمتخلفة على السواء الى تحديد رقعة عملها والى التركيز فى مواضيع بحوثها .

طبعا ، تستطيع اى جامعة ان تفسح المجال فيها للبحوث البحتة ، ولكن من الضرورى ان تكون هذه البحوث جيدة وذات قيمة ، كما انها يمكن ان تصبح اكثر فائدة لو ارتبطت بالاحتياجات الملحة التى تواجه الامة . ومن هنا فان كل امة

ستسعى الى اختيار مجالات البحث التى يمكن ان تستمر فيها بنجاح ملحوظ وتتهرب من الموضوعات التى قد تلائم غيرها فقط . ويمكن للجامعات فى الدول المتخلفة ان تطرق موضوعات جديدة للبحث ولكن ذلك يكلفها فى احيان كثيرة مالاطاقة لها به.

ولذلك فان جامعـات الدول النامية يجب ان تعتمد اساسا على المعـلومات العلمية والتكنيكية الكثيرة المعروفة فى العـالم المتقـدم ، وان يقل اعتمادها فى المراحل الاولى على خلق التطـورات الجديدة فى العلم والتكنولوجيا . ما تحتاجه الدول النامية ـ هو تطبيق ما هــو معروف سلفا من معلومات علمية على مشاكلهم الخاصة . وتشكل المعلومات العلمية المتجمعــة الآن لدى الــدول المتقدمة ، اضافة ضخمة تقدمها هــذه الـدول المتقدمة مجانا للدول النامية . ولكن من المهم ان تطور الدول النامية بشكل فعال وسريع يتطلب قلب الاوضاع المتخلفة الموجودة حاليا لديها فى مجال الاطــلاع والمكتبات حتى تجعل المعلومات العلمية العالمية سهلة التناول امام علمائها وحتى يتم اقتباسها ومحاولة تطبيقها على ظروفها الخاصة بالسرعة الملائمة لملاحقة التطور فى العلم والصناعة

ثم ان كثيرا من المشاكل الضاغطة يمكن حلها بتطبيق المبادىء العلمية المعروفــة على المشاكل الحديثة .

الا ان مجرد اقتباس هذه الحلول العلمية يقتضى تصورا علميا خلاقا من علماء الدول المتخلفة ولا يجب ان يتصور احــد ان الاستعانة بالمعلومات العلمية المعروفة . هو شيء لا يثير همة العلماء ولا يعطيهم الراحة النفسية أو السرور . وان الـذى يعطيهم هذه الاحاسيس هى البحوث الجــديدة فقط . ان تطبيق المعلومات المعروفة فى العالم عمل صادق وجاد من الناحية العلمية كما .نه يؤتى نتائج عملية مفيدة جدا وبسرعة لصالح الامة . بل ان كل مشتغل بالبحـوث العلمية لا يستطيع ان يفكر فى بحث جديد أو يضع له خطة ـ فما بالنا بالمضى فيه واستخلاص نتائجه ـ الا بعد ان يقرأ ويستفيد من كل ما كتب فى العالم من قبــل فى موضوع بحثه ، حتى يأتى عمله الجديد اتماما لما تم عمله من قبل ، واضافة حقيقية للعلم . ليس هناك اذن ما يخجل منه علماء الدول المتخلفة عندما يطبقون ما سبقهم اليه علماء العــالم المتقدم على ظروف بلادهم . فالاقتباس والتطبيق على ظروف البلاد المتخلفة فى مجال العلوم والصناعة هــو عمل مفيد جدا . ويحتاج الى تصور علمى مبدع وخلاق ، كما انه فى النهاية اضافة حقيقية وجديدة للعلم والآلات التى يصنعها العالم المتقدم يتفـق تشغيلها وانتاجيتها وتحملها مع الظروف الجغرافية والجوية فى البلدان التى صنعتها ، ولكن تطويرها بحيث تلائم الجو والرطوبة والخامات الموجودة فى الدول المتخلفة يعتمد على علماء الدول المتخلفـة وقدرتهم على تطويع الآلات للظروف الجديدة فى ميادين الفحوص والتشخيص والعلاج والدوار الى فتح الباب امام آلاف من الابحاث الجادة حين نطبق هذه الاكتشافات على الامراض المتفشية فى البلدان المتخلفة . وليس هناك ما يمنع من ان تدور ابحاث الدكتوراه حول التطبيقات الجــديدة لوســائل الفحوص المعروفة فى العالم المتقـدم على ظروف العالم المتخلف .

ويقول الاستاذ (برنال) : « ان كل الامم ـ حتى افقرها ـ هى فى حقيقة الامر اغنى بكثير مما تتصور ، وان مشكلة رفع مستوى المعيشة ، ان هى اساسا الا مشكلة اتقان استخدام مصادر الثروة . ونعنى بها الثروة الموجودة فى المنطقة ، ولكن اهم من ذلك ، الثروة البشرية الكامنة فى الشعب ؟ ان المسألة ليست مسألة بناء ، بمقدار ما هى مسألة اطلاق الطاقات اللازمة لاقامة البناء . ان العامل الايجابى الكبير فى التطور هو المساهمة النشطة للجماهير ، وهذا يضمن سرعة أكبر للتطور مما كان يعتقــد ان فى الامكان أو فى التمنى حدوثــه » .

ويضيف برنال « ان خلق ثقة الشعب بالنفس يجب ان تكون هدفا حاسما للتطور بحيث لا ينبهر ولا تشل قدراته : امام القفــزات التكنولوجية للعالم المتقدم ؟ » .

فاذا تواجدت ثقة الشعب وجامعاته وعلمائــه بنفسه ـ ويجب ان تتوافر أولا ـ فأى الطــرق تسلك الجامعات فى بحوثها العلمية .؟ هل تجرى البحوث العلمية فى المواضع التى لم تطرق من

قبل ؟ أم تحاول اقتباس وتطبيق البحوث العلمية الجديدة التى توصلت فيهـــا الدول المتقدمة الى نتائج ايجابية ؟

ومن الاهمية بمكان ان يدرك علمـــاء الدول المتخلفة ضخامة الثروات الموجودة والمكنوزة فى بلادهم والاحتمالات الكبيرة لاكتشافها من خلال البحث النشيط . ولكم كانت كثير من البحوث الجيولوجية الماضية والقديمة سطحية . ففشلت فى كشف النقاب عن الكثير من المعادن التى عادت البحوث الحديثة فتوصلت الى اكتشافها . وقـد اصبح العلماء فى الوقت الحاضر متأكدين من ان الارض التى نسكنها اغنى بكثير مما كنا نظن منذ عشرين عاما خلت . ولا يزال هناك الكثير امام الامم الناشئة كى تبحث وتنقب صخورها ومعادنها واراضيها ومساقط مياههـا ومجـــرى انهارها ومسارب مياههـــا الجوفيـــة ومصائد اسماكها واستغلال غاباتهـا وتنمية مراعيهـــا وتخصيب اراضيها واستنبات بذورها واستكثار محاصيلها وتهجين حيواناتها وتصنيع منتجاتها ... الخ . ولا يزال عدد العلماء والباحثين فى كل هذه المجالات فى الدول المتخلفة قلة قليلة ، مما يشكل عقبـة كؤودا فى طريق التخطيط والتنمية (ولقد كانت الايدى العاملة فى الزراعة فى اوروبـا تستهلك 80٪ من المحصول الزراعى فيما مضى . اما الآن فقد انخفض الاستهلاك الى 5٪ . وفى الولايـات المتحدة الامريكية ينتج 5ر2٪ من السكان اكثر من ضعف كمية الطعام اللازمة لاطعام الجميع) ! وتبشر الاكتشافات الرائعة فى ميادين الكيمياء والبيولوجيا باضافات تطبيقية رائعـة فى ميادين الزراعة وتربيـة الحيـــوان واستزراع النباتات وتصنيع المخصبات والاسمدة)

اما البحوث البيولوجية فتكشف عن مصـادر غير متوقعة للثروة . فالصحارى المهجورة لسنين طويلة يكتشف بها احواض البترول والمعـــادن والمياه الجوفية التى تعوض الاتفاق الكبير عليها . كما ان الظروف الدولية مواتية للحصـول عـلى المزيد من المساعدات الفنية القيمة والتدريب فى مجالات التنقيب والاستغلال والكشف .

وفيما يتعلق بتقدم العلوم الهندسية فان اختراع ماكينات جـــديدة واستعمال اساليب التشغيل الـذاتى سيـــؤدى الى زيـــادة الانتـــاج . ورغم توافر الايدى العاملة فانه لا مفـــر أمام الـدول النامية من اختيار الاساليب التكنيكية الحديثـة والاكثر انتاجية مهما كانت مكلفة لاننـــا بذلك نحصل على فائض انتاج كبير يمكن من اتاحـــة الفرصة ـ باعادة التنظيم الاقتصادى السليم ـ لاعادة توزيع بقية قـــوى العمل والانشغال فى بقية فروع الاقتصاد والى توزيع الزيادة الانتاجية ـ اذا توافرت العدالة ـ على الشعب .

واذا كانت هذه هى النظـــرة الجديدة لاتساع آفاق الثروة والانتاج امام البحوث العلمية الفاحصة فان على التعليم عموما . وللتعليم الجامعى والعالى خصوصا ـ فى الدول النامية ـ ان يعد نفسه حسب هذه النظرة للمساهمة العملية فى اغنـاء الشعب بثرواته المطمورة بالربط بين نوع التعليم وظروف الامة المتخلفة .

ونظام التعليم فى أى أمة ينشأ ثم ينمو ويتطور فى ظروف حياتية وجغرافية وتاريخية خاصة . ويرتفع بناؤه فوق اساس ثقافى معين ويمهد له ويسبقه ميراث حضارى ومزاج انسانى خاص بكل امـــة . وعلى الامم المتخلفة وهى تحاول جاهدة ان تبنى صناعتها الناشئة وتنشىء من المدارس ما يساعدها على ذلك . عليها الا تنسى فى نفس الوقت ان يهـــدف التعليم الريفى الى التمهيد للدراسة العملية والنظرية لمشاكل الريف . ومن هنا يصبح محتوى التعليم قضية هامة ، كما يصبح التوازن بين التعليم الابتدائى والثانوى بأنواعه والعـالى قضية هامة ثانية . وتصبح العلاقة بـين التعليم الثانوى ومختلف مواقع الانتاج قضية هامة اخرى. وكذلك يصبح تصنيف مختلف انـــواع التعليم العالى . وتحديد القدر المناسب من العلوم التطبيقية او العلوم البحتة ، والقدر المناسب من التكنولوجيا أو العلم . التى يدور حولها التدريس وتجـــرى حولها البحوث . يصبح كل ذلك قضـــايا هامة تستحق الجدل والبحث والمناقشة العميقة فى مجال البحث الذى نطرقه .

الجزائر في تاريخ الحضارة

3

مصطفى الاشرف

ترجمة حنفي بن عيسى

شهدت الجزائر في القرن الخامس عهدا (1) من الظلم والجوروالصراع الديني العنيف، وهو صراع تميز بالبدع التي ادخلتها الشعوب الآرية ، وبالخصومات التي قامت بين اتباع « مونتانوس Montanus ومريدى « بيلاج » Pelage وأصحاب مذهب الفيلسوف« مانيس » Manès ، حتى ان اسقف هيبون (عنابة) نفسه تاثر بها الى حد ما ...

كما شهدت الجزائر آنذاك جوا من الشقاق والاضطهاد والتقتيل الجماعي ، ونشات فيها حركات ترمي الى اقرار المساواة والعدالة ، مثل حركة الدوناطيين النوميديين (اتباع دوناط ، اسقف قرطاجنة في القرن الرابع م) ، وحركة الفلاحين الفقراء في جبال أوراس .

---

1) راجع العدد الثاني والثالث من مجلة الاصالة

وهكذا أخذ ذلك العهد من تاريخ الجزائر ينهار ويتداعى بعد غزو الوندال واستيلاء البيزنطيين للمرة الثانية على البلاد ... كما اخذ عهد جديد يظهر ويمد بالعناصر الفتية تلك الحضارة التى آل أمرها الى الانحطاط فى حوض البحر الابيض المتوسط . وهنا نلاحظ أمرا يستحق الذكر ، خاصة أنه لم يحصل على سبيل المصادفة ، وهو أن الشعوب الغربية المتوحشة التى نهبت أملاك الدولة الرومانية ، وورثت قيمها وأمجادها الغابرة ، من غير أن تستفيد منها فائدة عظمى ... هـذه الشعوب لم تستطع أن تواصل العمل البناء الذى بدأ به الرومان . بل ان أبناء حوض البحـر الابيض المتوسط هـم الذين أخـذوا من جديد ينشئون حضارتهم الاصيلة ، بالتعاون مع جيرانهم الاقربين ، وأعنى بهم العرب الذين طالما رأيناهم ـ وان كانوا غير منتظمين ـ يخوضون عباب البحر المتوسط ، ويجولون فى أرجائه وينشئون امارات . وينقلون بذور الحضارة اليونانية ـ اللاتينية الى الجزيرة العربية فى البتراء Pétra وتدمـر Palmyre ، وفى الاراضى التابعـة للغساسنة بسورية ... بل كان منهم أحد القياصرة فى روما ، وهو فيليب العربى .

ان العرب مرتبطون بصـلة مع الفينيقيين فى اللغة ، وتعاطى التجارة ، وموطنهم هو شبه جزيرة تعتبر كأنها لوحدها قارة من القارات . من حيث التضاريس الجغرافية والامكانيات البشرية ، ومن حيث انها مكان تجمعت فيه الطاقات الكبرى ، وانطلقت منه الهجرات العديدة ، وتمازجت فيه الحضارات المختلفة . وليس العـرب كما يصفهم بعض المؤرخين بكونهم رحــلا ، ولا يستقرون بمكان . فمدنهم وأسواقهم التجارية ، مثل عدن وصنعاء ونجران ومكة والطائف ويثرب والبتراء ، وواحاتهم ، ومحطات قوافلهم فى شمال الجزيرة العربية ، مثل واحة تيماء ، والطرق التىأنشأوها للاتصال بغزة ودمشق ... كل هذه تعتبر من أقدم المنجزات الحضارية وأنشطها فى العالم . وكانت قوافلهم لا تنى تجوب البــلاد من الشمال الى الجنوب ، وتصل أحيانا ، بل مرارا وتكرارا ، الى الشاطىء الشرقى من افريقيا . ورجالهم مشهورون بالشجاعة والاقدام ، ولا يهابون الفيافى والقفار ، ويشنون الغـارات فى تنقلاتهم الدورية ، عـلى حـدود الامبراطوريتين الفارسـية والبيزنطيـة . فالعرب شعب موحد الشمل ، وان كانت امكانياته مشتتة فى بعض المناطق . وله لغة واحدة مكتوبة ، مكتملة النمو ، وهى خير أداة لنظام اقتصادى يتميز بالحيوية والنشاط ، كما أنها أحسن وسيلة يعبرون بها عن ثقافتهم القائمة بالدرجة الاولى على الخطابة والشعر ، اللذين اعتبرا كأنهما من أركان الدين ، لما كان للكلمة من سحر يأخذ بالالباب ، ولما كان لها من نفوذ وقوة .

ان جميع هذه العوامل ، وغيرها مما لم نذكره ، قد تكون قليلة الاهمية ، لو لم يحدث فى حوالى القرن السادس ميلادى أمر تفتحت له عيون العرب ـ وهم ذلك الشعب الحر المقدام ، المحب للمغامرة رغم الظروف المعاكسة ـ عندما شاهدوا الدولتين الكبيرتين : الدولة الفارسية والدولة البيزنطية (وهذه الاخيرة قد أخذت آنذاك بالانحطاط ، وتلك كانت تحاول منذ زمن بعيد أن تجد منفذا على البحـر الابيض المتوسط) ... يتصـارعان فى حروب فتاكة ، ويتطاحنان فى معارك ضارية ، طلبا للمجد الذى لا طائل من ورائه بالنسبة الى الشعبين اللذين دفعا الثمن غاليا ، مما أدى الى كراهية الناس للحكم السائد فى الامبراطوريتين . أضف الى ذلك ظهور دين جديد هو دين الاسلام الذى ما لبث أن وحد القبائل المتفرقة ، المتقاتلة فيما بينها بدافع المصلحة الشخصية ، فجمـع شملها بعد أن كانت ذات نظام عشائرى ، وجعلها أمة تدين بمذهب واحد وتؤدى رسالتها على مسرح التاريخ لنشر مبادىء على غاية من البساطة : وهى المساواة والقضاء على عبادة الاصنام مهمـا كان نوعها ، واقرار مبدأ التضحية بالنفس ، وتحـديد السيرة المثلى للانسان ، وهـذه المبادىء يقـوم بخدمتها ونشرها قوم لا تزال فيهم روح النضال متأججة ، فعملوا على كسر شوكة الامبراطوريتين اللتين سرى فيهما الفساد . ورغم قلة عددهم ، فان العرب استطاعوا بفضل ما لديهم من رجال أكفاء ، وقـادة محنكين ، وبفضـل خبرتهم فى التجارة والمبادلات ، ودهائهم بالنسبة الى الوضع

الداخلي في الامبراطوريتين ، استطاعوا رغم قلة عددهم أن يجندوا بين صفوف أمتهم الفتية ، قادة الجيش ، وولاة مقتدرين ، مما جعلهم يحرزون انتصارات باهرة ، بكتائبهم القلية أمام جيوش أعدائهم الجرارة الكاملة العتاد . كما استطاع العرب في مدة قليلة ، وبفضل فتوحاتهم الجديدة ، أن يتبوأوا مكانة سمحت لهم بالاستفادة من الشعوب السامية والآرامية ، من حيث العادات والتقاليد والتجارب ... ومكنتهم من اقتباس أنماط الفكر والعمل السائدة في الشرق وفي السواحل السورية من البحر الابيض المتوسط . وهي المنطقة التي ينتمون اليها من قديم الزمان ، ويتعاملون مع أهلها بالتجارة والصنائع البسيطة ، واستقروا بها منذ أن هاجروا من سبأ ، وأصبحوا يمارسون بها نشاطهم ، ويقومون بشعائرهم الدينية ، ويتناقلون أخبار أدبهم الجاهلي .

وهكذا فان الجزيرة العربية رغم عزلتها الجغرافية ، استطاعت منذ أن كانت تسمى أرض العرب السعيدة ، ومنذ أن انضم اليها الشرق العربي ، استطاعت بفضل تجارها والمهاجرين منها النشيطين ، أن تبعث الى منطقة البحر الابيض المتوسط وآسيا وافريقيا وقسم من أوربا ، رسلا جددا ما بين عرب رحل وبدو وحضر ... وأن تنشر لغة كانت منذ القرن الثامن ، خير أداة للحضارة ، وأن تبرهن بأن أهلها العرب والمستعربين يتمتعون بذكاء عملي ممتاز ، اذ أنهم كانوا يتسامحون مع الثقافات الاجنبية ، بل يستفيدون منها ، ويعملون على نشرها ، ويجهدون فكرهم لتعميق الفلسفة والعلوم اليونانية ، وتطعيمها بحضارة أصيلة وافكار غير معروفة الى ذلك العهد .

واما من الناحية العسكرية ، فانهم ، بعد ما أخرجوا البيزنطيين من قواعدهم في المنطقة الشرقية من البحر الابيض المتوسط ، أخذوا يعملون بدون هوادة من أجل السيطرة على الشواطىء المحيطة بهذا البحر . ونحن نعتقد أن هذا الدافع لفتح شمال افريقيا ، وتطويق البحر الى حد مضيق جبل طارق ، بعد ما كان خاضعا لسيطرة الشعوب اللاتينية ، كان لا يقل تأثيرا في النفوس من دافع الجهاد في سبيل نشر العقيدة .

ونلاحظ مرة أخرى أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن هناك نظاما بسيطا ليس فيه تعقيد في بداية الامر ، وما لبث هذا النظام أن ارتبط من جديد بالحضارات الام ، فأضاف اليها ما يفيد وينفع وبث بذوره الطيبة في شواطىء افريقيا ، حيث ترك السابقون الاولون من الفينيقيين آثارهم الروحية التي تتجلى لدى الطبقات الشعبية من بلاد البربر ، في اللغة والنظرة الى الحياة والعقلية والصنائع ... في حين أن روما ، بالرغم من أنها شيدت المباني وعمرت البلاد ، وفتحت الطرق ، لم تستطع مع ذلك أن تؤثر سوى في الفئات المتمتعة بالامتيازات ، وفي المواطنين الموالين لها ، وفي المثقفين بالثقافة اللاتينية ، وفي الملاك الكبار من الاقطاعيين الموجودين في امبراطوريتها الافريقية ... وبصورة عامة لم تؤثر سوى في سكان المدن . ونحن نعلم أن الوندال كانوا ، خلال قرن من الزمان ، أي من حوالي 535 م ، قد خربوا المدن وأحدثوا الاضطراب في النظام الاجتماعي القديم الذي أخذ ، قبيل وصولهم ، يتميز بالظلم ، فزادوا الطين بلة ، بادخال عوامل الانشقاق الديني والاضطهاد والثورة . وقد أشرنا على سبيل التلميح الى الفتح البيزنطي الثاني في 535 م ، ورأينا كيف ان قادة الامبراطورية السفلى الذين عرفوا بالقصور والفساد ، حاولوا أن يجددوا في الجزائر عهد الرومان المجيد ، ولعل الشعب النوميدي قد وجد آنذاك ، كما حدث له في عهد انحطاط قرطاجنة ، لعله وجد فرصة للنهوض من كبوته والتحرر من قيود المجتمع البالية القائمة على أساس النظام الطبقي ، وخدمة مصالح الافراد . ولقد كان يتمتع بالحرية ، فاستعاد الجزء الاكبر من تلك الحرية في عهد الاحتلال البيزنطي . ولذلك لا نستغرب اذا وجدنا البربر يبادرون الى المقاومة عندما دخل العرب شمال افريقيا عام 647 م . وقد كان فتح البلاد طويلا وشاقا ، وذلك ان الشعب النوميدي أصبح يدرك أمام الدمار الذي خلفه الغزاة الاجانب ، والتخريب الذي أحدثه الرومان والوندال والبيزنطيون ، وبعد الفتوحات المتكررة التي جلبت اليه الخير والبركة احيانا ،

وحملت اليه الخراب والعذاب والانحطاط أحيانا أخرى ... أصبح هذا الشعب يدرك أن مصيره مهدد ، وأنه لا بد من استرجاع السيادة المفقودة .

ان المؤرخ بروكوب Procope الذى كان كاتبا للقائد البيزنطى بليزير Belisaire يرى أن شمال افريقيا فقدت خمسة ملايين من سكانها فى عهد يوستينيان Yustinien وحده . ولا شك أن هذا الرقم لا يخلو من مبالغة ، ولكن اذا قبلنا ثلاثة أرباعه فقط وأخذنا بعين الاعتبار معلومات أخرى تساعد على التقدير الدقيق ، فاننا نستطيع أن نتصور كيف كانت الجزائر آنذاك بسبب ما عرفته من محن وأهوال ، وكيف كان أبناؤها يستبسلون للدفاع عن حريتها واستقلالها . ومهما يكن من أمر ، فان الاحداث أخذت تتطور بشكل غير معهود فى تاريخ شمال افريقيا ، حتى ان المؤرخ الفرنسى فليكس جوتيى Felix Gautier قال رغم تحامله الشديد ، بأن دخول العرب الى المغرب ، وما نتج عن ذلك من امتزاج بين الشعوب ، يعتبر من أهم الثورات التى عرفها تاريخ البشرية .

واذا تساءلنا عن الخطوط العامة لتلك الثورة فان النقاط الآتية تقدم ملامحها الرئيسية . ففى سنة 710 م تم نهائيا فتح بلاد البربر وتنظيمه الادارى ، بفضل العمل السياسى والمعنوى ، والى حد ما ، بفضل العمل العسكرى الذى قام به موسى بن نصير الذى أصبح واليا على الاراضى المفتوحة فى افريقيا ، ولم تمض الا سنة واحدة حتى تقلد فى 711 م أحد رجال البربر ، وهو طارق ، قيادة الجيش العربى ، فأنقذ اسبانيا من سيطرة الفيزيقوط ، وربط مصيرها بالخلافة الاسلامية الجديدة الواسعة التى وصلت آنذاك الى أطراف الهند وتغلغلت فى أعماق آسيا الوسطى . وكانت مقاليد الحكم بيد الدولة الاموية التى اتخذت دمشق عاصمة لها ، فأخذت على عاتقها النهوض بالحالة الاقتصادية وتخفيف الضرائب الباهظة التى فرضها البيزنطيون والفرس ، ووضع نظام سياسى وادارى يتميز بالمرونة والعدل ، بحيث أن رعايا دولتى الفرس والعجم أصبحوا بفضل المساواة التى أقرها الاسلام ، متحررين تماما من الاستغلال والاضطهاد من طرف أعيان العهد البائد وقساوسته وحكامه الظالمين . ونحن ممن لا ينساق للتمجيد الاعمى ، ومع ذلك فلا يسعنا الا أن نلاحظ بأن الاسلام ، سواء فى المشرق أو فى المغرب حل فى قلوب الشعوب المسخرة المستضعفة المتعطشة للعدالة والكرامة ، حل فى قلوبها المكان الذى احتلته المسيحية الاولى فى قلوب العبيد من الامبراطورية الرومانية . وهناك عوامل كثيرة يمكن أن نفسر بها لماذا اعتنق عدد كبير من الاهالى الدين الحنيف ، بسرعة ، وبنية صادقة . ومن جملة تلك العوامل الخلاف بين الناس والصراع بينهم والاضطهاد والالحاد وتعدد المذاهب المسيحية نتيجة الاختلاف فى تأويل العقيدة خلال القرنين الماضيين، وخاصة فى افريقيا ... الا أن أهم تلك العوامل هو أن الظاهرة الاسلامية قائمة على أساس توحيد الامة ورفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى ، وهذا أمر يهم الطبقات المحرومة من الشعب بالدرجة الاولى . وبالاضافة الى ذلك فان مفهوم المواطنية Citoyenneté أصبح عالميا ، وهو خاضع لقوانين خاصة بالامة التى يدها واحدة وكلمتها واحدة ، مما ادى الى صيانة حقوق الناس أجمعين ، حتى الفقراء منهم ، ورفع المظالم عنهم من أى كان ، ولو كان هو الخليفة بالذات . ونحن نعرف كيف كانت افريقيا عندما اعتنق أهلها المسيحية ، وكيف كانت ، الى حد القرن السادس موطن العلماء والشهداء الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل الدين . ويقول أحد المؤرخين بأن : « **الكنيسة الافريقية المضطهدة تفتخر برجل مثل القديس سيبريان** St Cyprien **. وعندما انتصرت الكنيسة ارتفع صوت القديس اوغسطينوس يدوى فى جميع الاقطار المسيحية .** » ويضيف هذا المؤرخ قائلا : « **الا أنه لم يكد يمضى قرن حتى اعتنق اغلب المسيحيين الاسلام بحماس دفعهم الى الاستشهاد فى سبيل دينهم .** »

ان السبب فى ذلك هو أن المغرب عندما فتح صدره لهذه العقيدة الروحية السامية التى ليس فيها فضل لاحد على أحد الا بالتقوى ، وليس فيها رئيس ولا مرؤوس ، ولا بابوية ولا كهنوت ، ادرك أهله البربر أن مصير وطنهم أصبح بيدهم . فقد استعادوا استقلالهم المفقود ، نتيجة دخولهم فى

الاسلام ، وهذا الدخول فى الاسلام جعلهم فى نفس الوقت يرتبطون بأمة متطورة وشعب أخذ ينهل من حضارات بلاد فارس ومنطقة البحر الابيض المتوسط ، ويقتبس الصنائع الفينيقية والفلسفة اليونانية والتشريعات الرومانية ويحيى كنوز حضارة بنى ساسان ، ويستخدم لغة جزلة هى خير أداة للتعبير عن الثقافة ، وأحسن وسيلة للتعامل بين الناس ... وربما أمكن القول بأن تلك اللغة هى التى استمالت القلوب الى الدين الحنيف .

وبعد فترة من الحكم المباشر دام أقل من قرن ، وأسهم فيه البربر بنصيب كبير (وطارق بن زياد ، فاتح الاندلس خير مثال على ذلك) ، فان ممالك عديدة نشأت فى اقطار المغرب ... على أن شمال افريقيا ، برقعتها الواسعة الشبجزيرية ، اصبحت مرة أخرى ، من أقصاها الى أقصاها ميدانا فسيحا انطلق فيه ذلك الشعب الذى طالما كتبت طاقاته وقيدت حريته فى العمل والحركة ، ان السيطرة العربية الرسمية فى حد ذاتها لم تدم الا بضع عشرات السنين ، لان دول البربر التى انقرضت بعد يوغورطا ويوبا الثانى ، بدأت تتأسس منذ نهاية القرن الثامن ، وتركزت دعائمها فى القرنين التاسع والعاشر وما بعدهما . ويمكن القول بأن تأسيس تلك الممالك تم بكل حرية ، وبقى دائما فى الاطار الذى حدده ملوكها وأولو الامر فيها وشعبها الذى تبنى بدون تحفظ اللغة والقوانين والثقافة العربية الاسلامية ، وأخذ يساهم فى حل القضايا الاجتماعية والاقتصادية ، ويعمل بحسب مقتضيات الخطة العالمية ، ومتطلبات أداء الرسالة الى البشرية جمعاء . وتلك هى المهمة التى نهض بها العرب بعد ما اجتمع شملهم فى أمة ذات حضارة واحدة ، شغلت منطقة البحر الابيض المتوسط ، وجزءا كبيرا من الاقطار النائية فى آسيا .

وقد تعرب البربر من تلقاء انفسهم . والى ذلك يشير جورج مارسى قائلا : « **ان التعرب فى حد ذاته لم يساير فى تطوره الزمنى الدخول فى الاسلام . فتعرب الاهالى لم يحصل عن طريق هجرة افراد او مجموعات كبرى من العرب الى تلك المنطقة الواسعة من بلاد البربر ، من أجل تعريبها بشريا . بل وقع التعرب عن طريق تبنى الاهالى البربر لحضارة جعلتهم على قدم المساواة مع الوافدين العرب . ولا شك أن أعمق عناصر هذه الحضارة وأبعدها تأثيرا ، عنصر اللغة . ان نشر اللغة العربية فى شمال افريقيا ، وكتابة تاريخ البلاد بتلك اللغة يعدان بحق نقطة البداية لعهد جديد .** » . ولم يبق لنا بعد هذا الا أن نقول بأن تلك اللغة قيض الله لها رجالا أفذاذا فى الثقافة والعلم ، وأن الشعب الذى يرجع أصله البعيد ، بما فيه من البدو والحضر ، الى الشرق ، اندمج فيه العرب بالبربر ، وامتزج فيه البربر بالعرب ، فعاشوا فى تلك الاراضى التى شملت المغرب كله أولا ، ثم انحصرت فى الجزائر ثانيا ... فى تلك الارض التى ارتبطت بعلاقات ، عن طريق الفتوحات والمبادلات ، مع اسبانيا وصقلية وجنوب فرنسا ، وذلك طوال العصور الوسطى والعصور الحديثة ، فأنشأوا حركات فكرية ، وأثروا فى غيرهم من الشعوب ، وقاموا بأعمال ومنجزات اقتصادية واستحدثوا أنماطا من الحياة استطاعت بها بلادها ان تساهم فى تطور الحضارة العالمية وسيرها الحثيث أو البطىء نحو الرقى والازدهار .

وما ان انتهت فترة الفتح الذى كان القصد منه بالدرجة الاولى القضاء على الحكم البيزنطى ، وما ان بدأ عهد التنظيم السياسى والثقافى ، حتى أخذت الحكومات الوطنية تمسك بمقاليد الامور ، وتستقل عن الخلفاء الامويين والعباسيين المستقرين فى دمشق وبغداد ، لان هؤلاء الخلفاء لم يكونوا يعتبرون الا كممثلين للسلطة الروحية الموحدة لشمل الامة ...

وهكذا اخذت مدن جديدة تنشأ فى الجزائر ، ومدن اخرى تستعيد نشاطها بعد أن هدمها الوندال او خربتها الفوضى السائدة فى عهد البيزنطيين ... وامتدت عبر الصحراء طرق كثيرة للوصول الى موارد الذهب الافريقى الذى احتكره العرب مدة قرون عدة ، كما أن السفن اخذت تشق البحار وتتجاوز فى رحلاتها البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندى .

وهكذا أصبحنا نرى فئة كثيرة من الرحالة

والعلماء والمستكشفين والفاتحين ، سواء منهم البربر المعربون أو المهاجرون من الشرق المختلطون بالبربر ، أو اللاجئون من الاندلس ، أو غير هؤلاء ممن ولد بأرض المغرب الغنية بالرجال العظام ... أصبحنا نرى هؤلاء جميعا يربطون مصيرهم بمصير الامة العربية ، ويتمتعون بجنسية واحدة قوامها التعامل بلغة واحدة ، والانتماء الى حضارة روحية ومادية واحـــدة ، وينشرون أنـوار علومهـم فى شتى الاقطـــار .

ويحدثنا بعض المؤرخين من القرن التاسع عشر ، عن نهضة كبرى شبيهة بالحضارة التى ازدهرت فى عهد الرومان ، بل هى أوسع نطاقا ، نظـرا للحرية التى أصبح شعب العرب والبربر يتمتع بها ، وللاراضى الشاسعة التى يعيش فيها ذلك الشعب من غير أن يخضع لاى قيد ولا لاية سلطة أجنبية ... فقد أصبحت أراضى المغرب الفسيحة بيد ثلاث دول مستقلة ، ولكنها جميعا منتمية الى نفس الثقافة والحضارة العربية الإسلامية ، وتسود فيها نفس الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، حتى انه تكون من مجموعها ما يشبه العـالم المستقل بذاته ، اذ تشمل منطقة البحر الابيض المتوسط والاندلس والشرق الاوسط وبلاد فارس وآسيا الوسطى .

ويقول جورج مارسى فى هذا المجال :

« من الملاحظ ان حضارة هذه الدول الثـلاث ازدهرت فى القرن التاسع بثلاثة مدن هى : مدينة القيروان التى بلغت آنذاك الاوج فى الازدهار ، ومدينة تيهرت الواقعة فى السهوب الجزائريـة واخذت تنمو فى منطقة خالية من المدن الكبرى ، ووصلت شهرتها الى آسيا . ومدينة فاس التى ما لبثت أن برهنت عن قدرتهـا على البقـاء عبر العصور ... ولا شك ان نمو هذه المدن وغيرها من المدن الاخرى يعد من اهم الاحداث المميزة لازدهار الحضارة . »

وقد انطلقت فيما بعد ، أى فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، انطلقت من الجزائر حركة انبثقت عن انشاء الدولة الفاطمية التى تعد بحق أكثر عهـود الحضـارة الاسلامية ازدهـارا وأصالة . وتوسعه الى تونس والى مصر ، حيث تأسست عاصمتها القاهرة ، والى سورية والى جزء من الجزيرة العربية . ولكن هذه النهضة ان هى الا حلقة من سلسلة طويلة الحلقات ، وعهـد من عهود التاريخ عرفت فيه البلاد الرخاء أحيانا والمحنة أحيانا أخرى ... الا أن الجزائر ما فتئت تبرهن خلال مختلف عهود التاريخ عن قدرتها على مسايرة التقدم ، رغم المحن والاهوال . وهكذا نشأت مدن كثيرة ، وبلغت أوج ازدهارها ثم انقرضت ، كقلعة بنى حماد ، وسدراته فى بلاد ميزاب ... كمـا نشأت مدن أخرى ، وتحولت الى عواصم ، وكثر فيها العلماء والفقهاء والمهندسون المعماريون ، مثل بجاية وعنابة وتلمسان ، فازدهرت بفضلها البلاد كلها . وبذلك نجد فى تاريخ حضـــارة الجزائر مصداق الكلمة التى قالها لوسيان لوفيبر من أن سر الحضارة كامن فى العلاقة الوطيدة بين **« الطرق والمدن ، والمدن والطرق »** ... كما نجد أيضا فيه مصداق نظريات فرنان برودال حول أهمية أشباه الجزر فى تاريخ الحضـــارة ، وحول المسيرة التى يحتمها الوضع الجغرافى فى البحر الابيض المتوسط الحافل بالنشاط ، ذلك البحر الذى تتجه اليـه الطرق ويتوافد اليه الناس وتتجمع فيه الافكار ، وتصدر من شواطئه البضائع . فالبحر تمخض عن امـارات نشيطـة وجمهوريـات من التجـــار والقرصان ... والجبل ازدهرت فيه ممالك متمسكة باهداب الشريعة والفضيلة ، وتوسعت أحيانا حتى وصلت الى السهول ... وحتى الصحراء تأسست فيها دول ما لبث القائمون عليها ان ألفوا الحياة فى المدن وأصبحوا من العاملين فى سبيل النهوض بالعمران . وهكذا تمضى القرون ولا تنقضى معهـا تلك الصفحات المشتركة المتنوعة المتجددة باستمرار من تاريخ المغرب النوميدى القديم ، المغرب الذى امتزج فيه العرب والبربر ، واندمج فى الثقافـة العربية وأصبح عربيا بلغته ومثله العليا ، مثلما أصبحت مناطق أخرى من العالم ذائبة الى الابد ، بحكم الضرورة والميل الطبيعى ، فى بوتقة الحضارة الاسبانية او الفرنسية .

(يتبع)

حمدان خوجه ومنهجه في كتابة التاريخ

عبد الحميد زوزو

مميزات الفترة التى عاشها حمدان خوجه

شهدت الفترة التى عاشها حمدان خوجه (75 17 ـ 40 و 1845 م) (1) حدثين خطيرين ، حدثا فى بلدين ، اوروبيين ، فى وقت متقارب ، وقع اولهما بانجلترة ، وثانيهما بفرنسا ، وبقدر ما اتسم به الاول من تثبت وهدوء بقدر ما كان الثانى عنيفا ودمويا ، وبالرغم من ذلك فلهما خصائص مشتركة كالحدوث فى فترة واحدة تقريبا ، اى خلال العقود الاواخر ، من القرن 18 المعروف بقرن « الفلسفة » ، وقابليتهما للوصف بالثورية ، وما اسفر عنهما من نتائج هى فى توالد مستمر حتى ايامنا هذه ، وان كانا يختلفان فى طبيعتهما ، ذلك أن الاول كان ثورة صناعية اقتصادية أحدثت انقلابا فى وسائل الانتاج وطرقه ، وخلقت مقاييس ومفاهيم جديدة . أما الثانى فهو تلك الثـــورة الفرنسية التى امتازت بالقساوة ، والعنف الدموى لتتمكن من هدم اركان مجتمع كانت وطاته عنيفة على السواد الاعظم من الفرنسيين ، وتقوى على ازالـة ما تبقى من ترسبـات القرون الوسـطى ،

واجتثاث جذور الانظمة القديمة الجائرة اجتثاثا كليا . وما قدر لكل هذا أن يحدث لولا ما بشر به الفلاسفة الانجليز في بداية القرن الثامن عشر عصر الانوار ، وعبادة العقل والتفكير الديمقراطي والحقوق الطبيعية (2) . وغير ذلك من الافكار التي تصدت لنشرها الطبقة المستنيرة (جان جاك روسو – منتسكيو – فولتير ...) في اوساط الطبقات المختلفة . كما تصدت لانتقاد الاوضاع القديمة الموروثة . والعمل على ضرورة التغيير ومسايرة العصر باقامة أسس جديدة لصرح مجتمع جديد . فساعدت بذلك على تعميم التوعية . والاعداد للانتفاضات الجماهيرية . فكانت الثورة الفرنسية ذروة هذه الانتفاضات . التي أثبتت مفاهيم جديدة (الحرية ، المساواة ، الاخاء) حلت محل مفاهيم اجتماعية بائدة . كما قضت على خرافة « الحق الالهي المقدس » الذي أقامته أسرة « البوربون » (1589 – 1830 م) وتوارثه ملوكها ودعموه .

وباختصار فان تأثير كل من هاتين الثورتين . لم يقتصر على مكان الحادث . بل تجاوز نطاق المحلية ليشمل القارة الاوروبية باكملها أولا . ثم غيرها من القارات ثانية .

أو لم تكن شعارات الثورة الفرنسية المذكورة قد هزت عروش ملوك أوروبا وجعلتهم يتنادون . للوقوف في شكل أحلاف ضدها . ومضادة من كان يلوح بها . لتحقيق امجاد ومكاسب . فعرف العالم الاوروبي سلسلة من الحروب المتواصلة ، تعرف بحروب الثورة الفرنسية ، أو الحروب النابوليونية لتتحول الى حرب سياسية . بين الدول المتحالفة ذاتها . كما كان الامر في مؤتمر فينا (سبتمبر 1714 – جوان 1715 م) وفي غيره من المؤتمرات التي اعقبته .

أو لم تكن هذه المبادىء قد تفاعلت معها الشعوب الاوروبية . دون ملوكها وأباطرتها . فتحول الصراع بين الملوك وشعوبهم . أو لم تتبلور هذه الشعارات لتاخذ أبعادا اخرى فتخلق مفاهيم جديدة . تجعل الشعوب تعي كنه ذاتيتها وتتعرف على نفسها تدريجيا . طوال القرن التاسع عشر ، فاذا بالتيار القومي يطغى على غيره من التيارات ، فيسمى القرن بقرن القوميات . كما سمي الذي قبله بقرن الفلسفة ، وما قبل هذا الاخير بقرن العلم واستعمال العقل . فتهب الشعوب في ثورات عارمة . في كامل مناطق أوروبا بقصد التحرر على « شكل قوة تجمع » أو على شكل « قوة تفتت »(3) وما ساير ذلك من حركات فكرية وفنية أخرى . معبرة عن روح العصر . كالرومانطيقية ، التي عبرت عن خيبة أملها وعدم قدرتها على تفهم روح العصر العقلاني . فتركت مكانها لحركة أخرى واجهت الواقع بواقعيتها ، بعد أن سادت نصف قرن تقريبا . وتركت آثارها في مختلف أوجه الحياة : الادبية منها والفنية .

أما تأثير الثورة الصناعية فقد كان عاما كذلك . محدثا مشاكل اجتماعية وسياسية . نتجت عنها مذاهب اقتصادية . هي في تناحر منذ أن ظهرت الى يومنا هذا .

كما تولدت عن الازدهار الصناعي نتائج سياسية كضرورة البحث عن مناطق النفوذ خارج أوروبا لغمرها بالمصنوعات التي عجزت الاسواق المحلية عن استيعابها وجلب المواد الاولية منها ، لضمان استمرارية هذا الازدهار . وتعميرها . بمعمرين ضاقت بهم بلادهم .

تم كل هذا عمليا بتردد وبطء كبيرين ، في النصف الاول من القرن – 19 – أما خلال النصف الثاني منه فقد انطلقت الحركة الاستعمارية المباشرة بأقصى سرعة لها . لتكون لنفسها امبراطوريات جديدة من نوع جديد . تغاير امبراطوريات ما بعيد الاكتشافات الجغرافية .

انني اهدف من وراء هذا الاستعراض السريع لاهم الاحداث خلال الفترة التي عاشها حمدان خوجه . وما بعدها بقليل ، أن أجعل القارىء يتصور الاطار الكبير ، الذي وضعت فيه هذه الشخصية . كسياسي مدرك للتطورات السياسية والاقتصادية ، وكمؤرخ عارف لمعظم مؤثرات العصر واتجاهات تياراته .

كما وليس في امكان اي شخص . خاصة في عصر مثل عصر حمدان خوجه أن يكون في مستوى هذا الفهم . الا اذا أعد اعدادا خاصا . وتهيات له ظروف اجتماعية ومادية .

المستوى الاجتماعي لحمدان خوجه

ولد حمدان خوجه بالجزائر سنة 1775 م ، من عائلة ذات مكانة اجتماعية عالية (4) . في مجتمع يتأثر بكثير من الاعتبارات والمقاييس تبعا للعناصر المكونة له ، كالعرب والكراغلة واليهود والاتراك والقبائل ، تتجلى هذه المكانة العالية سواء في الوظائف ، التي تولاها ، كل من أبيه وعمه ، ثم هو ، من بعدهما أو فيما كانت تملكه هذه العائلة من أملاك بالجزائر العاصمة وضواحيها (5) ، وأي مقياس غير هذين المقياسين ، يصلح لقياس المستوى الاجتماعي لدى فرد من الافراد .

كان أبوه كاتبا أول للدولة ورئيسا للكتبة ، شغل منصب « المكتوبجي » وهو « ... من أخطر المناصب في الدولة ، اذ هو في مستوى شيخ الاسلام ، أهمية واعتبارا ، يستشار في كــل الظروف والمناسبات ، من جانب الداي ، وبذلك كان اتساع معارفه التشريعية مطلوبا ... ونظرا لاهميته ينعم عليه بلقب « افندي » الذي يختص به عادة ، الداي والمفتي . » (5) .

كما كان عمه موظفا ساميا في الدولة شغل منصب أمين السكة » أي أمين بيت المال ، وكلف بسفارة سنة 1784 م الى الباب العالي ، لتسليمه الهدية التقليدية ، وليس هذا التكليف بالامر الهين لان تسليم الهدية ، يتبعه احتمال تسليم مقابل للفرمان ، أو وعود بتقـــديم مساعدات مختلفة للنيابة ، لذلك كانت الدقة في الاختيار ، لتولى أمر هذه السفارة ، تتناسب مع الكفاءة والمكانة ، التي تجلت في أكثـــر من مناسبة ، كالتي كان حمدان خوجه وعمه موضع حفاوة واكرام ، عند توقفهمـــا بتونس ، سنة 1801 م ، عائدين الى الجزائر من قبل حموده باشا (1782 ـ 1814 م) ورئيس وزرائه ، وتشكى هذا الاخير لهما من بعض تصرفات الجزائريين (7) وتكليف حمدان خوجــه باعباء اخرى أثناء عملية الاحتلال ، وبعدها ، هذا من ناحية .

أما فيما هو من شان الاملاك فحمدان خوجه يذكر ذلك بنفسه فيقول : « على أن أصرح بملكيتي لقطعة كبيرة من الارض كافية ، من هذا السهل توارثناها أبا عن جد » (8) ثم يقول : « فأنا مالك لاملاك بسهل متيجة يقدر ما أبذره بهذا السهل سنويا 160 حمولة ابل من قمح وما بين 100 و 120 حمــولة من شعير » (9) ، يتضح لنــا اذن بمقارنة مقدار الحبوب التي تبذر سنويا بمدى اتساع الاراضي التي توارثها أفراد هذه العـائلة التي تغلب الظن أنها من أصل العنصر العربي ، ومن طبقة اجتماعية حضرية (10) ، وان كان يخالف في ذلك البعض من الكتاب الذين اهتموا بهــذه الشخصية .

ولربما كان هذا الرأي الاول صحيحا ، لمـا يذهب اليه حمدان خوجه من أن الكراغلة قد ابعدوا عن الحكم ، وتولية المناصب الهامة في الدولة ، بعد ثورتهم سنة 1830 م ، ثم يضعف هذا الرأى عندما يذكر ، بأن تسامح الدايات المتأخرين ، والداي حسين منهم بصفة خاصة ، قد فتح المناصب العليا في وجه هذه الطبقة ، وقد تولى منهم الحاج أحمد باي قسنطينة (11) .

وعلى أي حال فسواء أكان حمدان خوجه من طبقة الكراغلة ، أو من طبقة العرب ، فهو مدين لهذا الوسط ، مدين له بالتكوين الذي أحرز عليه ، والمكانة التي تبوأها ، ومكنته من القيام بالدور الذي لعبه في فترة ما قبل وما بعد الاحتلال . اذ لولا هذه الامكانيات الاجتماعية والمادية لما استطاع أن يطوف بكثير من بلدان الغرب والشرق .

كانت سفرته الاولى الى (اسلام بول) مع عمه أمين السكة ، ولما يتجاوز التاسعة من عمره ، ويبدو أنه لبث طويلا خارج الجزائر ، ولم يعد اليها الا في سنة 1801 م مارا بتونس كما سبقت الاشارة الى ذلك (12) وزار خلال هذه المدة ، الشرق الادنى ، والبلقان . وفي حدود سنة 1820 زار فرنسا حيث تعلم اللغــة الفرنسية ، ورأى لويس فيليب (ملك الفرنسيين فيما بعد) مــع عائلته (13) . « ولم يكن حمدان خوجه متغافلا في اسفاره ... بل كان يزور المصانع والمتاجر ... ويتجسس على المعســكرات ويتحسس عـــلى الادارات » (14) .

فمثل هـــذه الاحتكاكات والاسفار ، لمختلف الدول الاوروبية ، كاليـــونان وبلجيكا وفرنسا وسويسرا وانجلترة (15) ، وغيرها ... قد مكنته من المشاهدة العينية ، ودراسة الحالات الاجتماعية

لهذه الشعوب ، والوقوف على سر الاحداث التى كانت تمر بها اوروبا فى هذه الفترة .

امـــا مقومات شخصيته الاولى فهى ثقافتـــه التشريعية . التى اخذها عن ابيه الذى كان استاذا لهذه المادة ، كما يتممها من مواد آخرى ، كالاصول والمنطق والفلسفة والتاريخ والطب (16) . ونظمه القليل للشعر (17) . وعلى العموم فان ثقافـــة حمدان خوجه هى ثقافة كلاسيكية بحيث أنه أخذ بطرف كل المواد المذكورة . ولعل الشيء الذى ميزه عن الكلاسيكيين هو حذقه لاكثر من لغة واحدة ، كمعرفته للغة الفرنسية ، وان كان لا يستعملها فى المواقف الدقيقة التى تتطلب السيطرة الكاملة على جزئياتها وأسرار أساليبها . فكان يفضل فى مثل هذه الظروف الاستعانة بمترجم ليترجـــم أفكاره ويوضح آراءه . كما فعل عندما مثل أمـــام اللجنة الافريقية (18) . أما اتقانه للغة التركية فلا جدال فيه ، وترجمته لكتابــه « اتحـــاف المنصفين » لدليل على ذلك ، ولو كان الامر كذلك بالنسبة للغة الفرنسية ، لتكلف هو نفسه بكتابة المرآة ، أو ترجمتها الى اللغـــة الفرنسية بدون مساعدة شخص آخر . ثم هو يقول فى مكان آخر بأنه كان يعرف هذه اللغة كمعرفة دوفال للغة التركية . فمعرفته بهاتـين اللغتين المنتشرتين ، بانتشار السيطرة العثمانيـــة الواسعة بالشرق والنفوذ الفرنسى الواسع فى الغرب ، قد مكنتاه ، من الاطلاع على ما يجرى فى هاتين الامبراطوريتين .

انتاج حمدان خوجه ومحتوى كتبه

لحمـــدان خوجـــه كتب مختلفة المواضيع ، كالسياسية والتاريخية والفقهية والعلمية ، وأشهر كتبه على الاطلاق كتابه :

(1) لمحة تاريخية واحصائية عن نيابة الجزائر المعروف (بالمرآة) لسيدى / حمدان بن عثمان خوجـــه ابن كاتب الدولة السابق (المكلاجى) لنيابة الجزائر ترجمه عن الفرنسية ج ... د ... الشرقى .

وفى الصفحة الاولى هذه العبارات (لبن جمال كونستان) الفيلسوف الفرنسى « عندما تتمكن الانانية من الاطاحة بالطغيان ، فهى لا تهتم الا باقتسام غنيمة الطاغى » (19) الجزء الاول — مطبعة ابناء كوتشى وشركاؤه — نهج لوى لوجران — رقم 35 — 1833 م .

أى أن كتاب المرآة قد طبـع فى باريس فى أكتوبر سنة 1833 م بعد ان أتمه صاحبه فى شهر جويليه (20) .

كما يظهر من الصفحة الاولى للكتـــاب ، فـــان النسخة المتداولـــة الآن ترجمت من العربيـــة الى الفرنسية ، بقلم حسونة دغيز الطرابلسى ، كما رمز الى ذلك . أمـــا النسخة الاصلية فما زالت مفقودة (21) وعلى أى حال فمن المؤكد أن النسخة الاصلية العربية تغاير النسخة الفرنسية ، ولو شكليا ، فعبارة « بن جمان » قد لا تكون موجودة فى النسخة العربية ، كما يمكن جدا أن تكـــون الاشكال الممثلة للخيام ، التى أعلن عنهـــا فى النسخة الفرنسية بأنها ستنشر فى آخر الكتاب ، ثم اعتذر صاحبها عن نشرها فى الاخير ، مثبتة فى الاصل ، الى غير ذلك من اختـــلاف فى الاساليب ومدلولات بعض الكلمات ، كترجمة كلمة « سبع » وهى عربية تعنى كل حيـــوان مفترس ، بعبارة « أسد » وكلمة سلطان بـ « الامبراطور » واطلاق كلمة « الجزائريين » على سكان مدينة الجـــزائر العاصمة .

ويظهر على اخراج الكتاب بدون صور ، طابع العجالة ، حتى يكون فى حوزة القراء الفرنسيين للاطلاع على الحقيقة فى الوقت الذى تكون فيـــه اللجنة بصدد التحقيق ، فى أوضاع الجزائر .

والنسخة المتداولة تنقسم الى كتابين . الكتاب الاول يتضمن فصولا عددها ثلاثة عشر ، مسبوقة بمقدمة (22) . وفيها يذكر الاسباب التى دفعته الى اخراج هذا الكتاب وذلك حسب قوله للحالة الشاذة التى يعانى منها هذا الشعب ، كما دفعه الى ذلك اظهار الحقيقة التى تغافل عنها سابقوه فى الكتابة ، فى هذا الموضوع ، ويذكر بأن لسكان الجزائر ، مثـــل ما للشعوب الاخـــرى عـــادات ، وتقاليد ...

اما مضمون الفصل الاول من الكتاب الاول فعن أصل بدو الجـــزائر ، ويصنفهم الى صنفـــين ،

يختلفان عن بعضهما . وهما بدو السهول من أصل عربي وبدو الجبال . وهم من أصل بربري . والفرق بينهما واضـــح في اللسان المستعمل لدى كل صنف . كما يتعرض لاصول نشأة فكرة « تقديس الاولياء » عند البربر . فيضرب مثالا بسيدي علي بن عيسى تلميذ محمد بن عبدالرحمن المتوفى بالقرن الثامن عشر . ويستحسن حمدان خوجه مثـــل وجود هذا المعتقد في الاولياء من طرف السكان ، وخاصة في مجتمع تقوم أسسه على النظام القبلي(23) .

وفي الفصل الثاني ، المعنون « بطبائع وعرف البربر » يصف بعض الالبسة التي اعتاد البربري أن يرتديها . مثل : « القندوره » وهو يصف هذا الثوب وصفا دقيقا ليصوره للقارىء . فيقول : « ان هذا الثوب عبارة على قماش من صوف اشبه ما يكون بكيس مثقوب من الوســـط . ليتمكن الانسان من ادخال رأسه عند ارتيداد الثوب . وبه فتحتان جانبيتان . لاخراج اليدين أما طوله فحتى الركبتين ... فاذا قدر وأصابه بلل . فان الثوب يطلق رائحة كريهة ، من كون الصوف لم تنظف تنظيفا كاملا ، قبل أن يصنع منها الثوب . فيكون وزنه ثقيلا . أما أغنياء القوم فلهم برانس هي بمثابة معاطف . ولم يصف الثوب الاخير . لكونه معروفا باوروبا ... ويبقى البربري مرتديا لهذا الثوب الوحيد طوال حياته . فاذا ما أصابه خرق رقعه لانه لباس العمر الوحيـــد . يلبس شتاء وصيفا . وفي يوم الصحو والمطر . » .

ثم يصف الحائك عند المراة وهو كذلك مصنوع من الصوف ، لكن حواشيه مطرزة بألوان زاهية . والمترفات من النساء يربطن رؤوسهن بمناديل أو بقطع قماشية ... أما الاولاد فيبقون عراة ، ماداموا لم يصلوا سن البلوغ .

والانقــاء من الرجــال يضعون على رؤوســهم « شواشي » لان ذلك من باب الاناقـة . وبحكم أن الشاشية لا تنزع من مكانها الا بعد مدة طويلة . فان لونها الابيض يتحول الى لون أسود من كثرة الغبار والعرق . أما نعالهم فهي خفاف من جلد الماعز يشبه الخفاف التي كان ينتعلها الرومان . وثيابهم تستعمل للباس . وتؤدي دور الوسادة عند النوم . أما اغلبيتهم فينامون على الارض كما تنام اقليتهم على الاحصرة . بعيدين عن بعضهـم صيفا ومجتمعين حول موقد نار شتاء . ومآكلهـم الشعير وزيت الزيتون والتين والبلوط ، أمـــا لحوم الطير والحيوانات فأكلهم لها قليل ، اللهم الا في مناسبات . كمناسبة نزول ضيف عندهم . فتكون تلك مناسبة لدعوة الجيران . لهـــذه الوليمة . أما الاولاد فما أعظم فرحتهم في مثـــل هذه المناسبة .

الفصل الثالث . تابع لطبائع وعرف البربـــر . وفيه يصف مساكن السكان والمواد التي أقيمت منها ، وطريقة حياتهم بها ، فهي مساكن لا أثـــر فيها لأي أثاث الا من الضروريات . كقربة المـاء . والتين اليابس . والحبـــوب . والاسلحـة النارية للدفاع . يذكر في هذا الفصل الاهتمام بصناعـة الاسلحة النارية لوجود بعض مناجم الرصاص في مناطق مختلفة (24) . وسك العملة ... وينتـــهي الى القول بأن ما يورده ليس تاريخا مفصلا ، وانما مجرد محاولة لاعطاء فكرة فقط ، عن البلاد وسكانها ثم ينتهي من الفصل ليحكم في الاخير بأن هـؤلاء عبارة عن أناس رحل لا يختلفون عن الوحوش . وبذلك يعتقد أنه من الصعب على فرنسا . وليس في مقدورها . ولا في مقـــدور غيرها من القـــوى الاخرى أن تخضعهم . وهذا الاستيلاء غير جدير بعظمة فرنسا لانها تملك من الامكانيات البشرية والمالية ما يغنيها عن كل ذلك ... ويتساءل عن الفائدة التي ترمي اليها فرنسا من وراء اتـــلاف أموالها . واراقة دماء جنودها والتعرض للمهالك التي يسببها جو البلاد ومناخها . أفمن أجل ابادة السكان أم بنية امتلاك صحاري جدباء ؟ .

الفصل الرابع سكان السهل . طباعهم وعرفهم ، يتعرض فيه لطبائع سكان التل ، ولطــــريقتهـم الاجتماعية في الحياة من حيث الالبسة . وتملـك الحيوانات . ونوع المساكن . ثم ينتقل الى الحديث عن حياة سكان الصحراء كما سمعها من غـــيره لانه لم يشاهدها . ثم يروي النزعات المختلفة . لبعض المشيخات الصحراوية ، في الفترة الاولى للاحتلال . التي برزت في الصراع بين أحمد باي المتغلب في الاخير ، على ابراهيم باي وقريبـــه الشيخ فرحات . ويذكر في هذا الفصل . فروسية أهل الصحراء . والمخاطر الطبيعية لهذه المنطقـة وهي في نظره من أهم المناطق بالنسبة للايالة .

خلافا لما يدعيه غيره من الكتاب الذين هم من أهل السيف لا من أهل القلم .

الفصل الخامس عن منطقة متيجـة . وعادات أهلها وتقاليـدهم .

يرد على القائلين بصلاحية هذه المنطقة ، بذكر مساوئها الصحية ، والانتاجية ، والاجتماعية ، ويشير الى مصلح القليعة ، وما أعقب سجنه من فقر ونقصان فى المواد ، وسخط شعبى وثورة نفسية ... وبالرغم من ذلك فان روفيقو يطـالب السكان بدفع الضرائب ، كما كان هؤلاء يدفعونها فى عهد الاتراك ، بينما كان السكان يفعلون ذلك فى عهد الاتراك بمحض ارادتهم ، لانه كان عهـد ازدهار تجارى وأمن ، أما العهد الحالى فهو عهـد فتن وقلاقل ، واذا ما دفع السكان الضرائب فذلك خوفا من بطش روفيقو .

الفصل السادس ، سكان القسم الغربى حول تلمسان ، وسكانها ومكانتها التاريخية ، والاحداث التى حدثت بين العرب والاتراك ، وحسم الخلافات فى الاخير ، بعد جلاء النفوذ المغربى وتشكيـل هيأة حكومية حاكمة ، وهذه الصور يعرضهـا مأخوذة عن غيره ــ من الجزائريين القاطنـين بتطوان ، ومدن أخرى بالمغرب الاقصى ــ ويذكـر اهمية تلمسان كمركز تجارى نشيط ، لا بالمنطقة الغربية فحسب بل حتى بالنسبة للمغرب واواسط افريقيا ، اذا ما اعتنى بها ، ويشير باختصار الى مناخ وعرف سكان المدية ، ومليانة ، ووهران ، مدينة الرخاء والتجارة التى حلت محل مدينـة معسكر (27) . ثم يرجع الى ذكر المدية ، وبعض الحوادث التى وقعت فيها كخيبة «بارتوزان» فى حملته على المدية ، واسر صهره ، وينهى الفصل برسم حدود الولاية الغربية فيقول : بانها تمتـد من مليانة حتى وجدة .

الفصل السابع ، حول الجزائر .

سكان مدينة الجزائر ، خليط من الاندلسيين والاتراك ، والعرب ، والقبائل ، والصنفان الاخيران أقلية ، تكون على مر الايام ، من امتزاج هـذه العناصر ، سكان الجزائر العاصمة الذين يمتازون بالمسالمة والوفاء بالوعد ، وبروح التعامـل الجماعى ، والنشاط للكسب ، ودفع الاحتياج ، لان الاسلام يدعو للقيام بالمعروف ، والمعـروف لا يأتى من المعوز ، لذلك ترى نشاطهم يزداد فى طلب الرزق ، وهم الى جانب ما يتحلون به من الاخلاق الفاضلة ، كاحترام الجار وتقديم المساعدة له ، يمتازون بحذقهم لكثير من الصناعات ، كصناعة مختلف الالبسة ، وحظهم من الذكاء والثقافة وافر ، فكان منهم الشعراء ، والعلماء ، والادباء ، والاساتذة وان امتزاج العنصر التـركى والانـدلسى ، فى نظره ، قد تولد عنه جنس متفوق ، سليم ، مـن شتى الامـراض .

الفصل الثامن ، فى أصول الحكم التـركى ، ومختلف تنظيماته ، ثم تأتى الفصول الاخرى حتى ينتهى الكتاب ، وكلها فصول تتناول تنظيمات مختلفة لأجهزة الدولة ، كالتنظيم العسـكرى والديوان ، وعن الحكم التركى ، منذ دخولهم الى الجزائر ، حتى بداية الانحطاط ، الذى حـدد بدايته بسنة 1791 م ، ويستمر حتى ولاية حسـين داى ، ويتعرض لاسباب هذا الانحطاط وعن بعض الثورات ، والحملات ضد تونس .

اما الكتاب الثانى ، فيتناول فترة الاحتـلال الفرنسى فى عهـد دوبـورمان ، و كلـوزيل ، و روفيقو (28) .

اما مكملات كتاب المرآة فهى :

1 ــ الرسالة التى ارفقها بالمذكرة ، وبعث بها الى اللجنة الافريقية التى كلفت بدراسة أوضاع الجزائر عن قرب ، وتقديم تقرير الى الحكـومة الفرنسية تتخذ على ضوئه قرارا بالانسحاب من الجزائر ، أو البقاء بها ، فدام مكوث اللجنـة حوالى ثلاثة أشهر بالجزائر ، من 2 سبتمبر 1833 الى 9 نوفمبر 1833 م (29) .

والرسالة » يناشد فيها حمدان خوجة اللجنة الافريقية باسم المحبة الانسانية ويستعطفها باسم العدالة ، أن تكون غير منحازة فى أحكامها ، عادلة فى تقاريرها ، ناظرة الى الجزائريين بمنظار العاطفة نظرا لما يعانونه من ألم القهر والضغط ، وانترق لحالهم وتعاستهم . فبهذه النظرة ــ على حد آمـال حمدان خوجة ــ يحظى الجـزائريون ، كما حظى من قبلهم اليونان والبلجيكيون بمساعدة وعطف فرنسا ، فيرون (أى اعضاء اللجنة) ما كان يراه

حمدان خوجة من كون « ليس هناك أى حل سوى تغيير الوضع لاستعادة النظام ، وميلاد ثقة جديدة » (30)

اما المذكرة ، فهى مختصر لكتاب المرآة بعث بها حمدان خوجة مع الرسالة الى اللجنة الافريقية (31) وهى موجودة بباريس بالمحفوظات الوطنية تحت رقم ف 9.80 (32) .

3 ـ ثم لحمدان خوجة نشرة أخرى تحت عنوان « الرد على تفنيد كتاب حمدان خوجة » . والمقال نشرته مجلة

Extrait de l'Observateur des Tribunaux

صدر هذا المقال فى 25 جويلية 1834 بالفرنسية وممضى بالعربية كرد على من دحض كتاب المرآة بمقال ، فى نفس المجلة ، وبنفس السنة ، والمرجح أنه كلوزيل .

4 ـ كتابه « رسالة اتحاف المنصفين ، والادباء بمباحث الاحتراز عن الوباء » (33) من تحقيق الاستاذ ابن عبد الكريم ، وفيه ينصح حمدان خوجة بالاخذ ببعض مظاهر التقدم الاوروبى ، كنظام « الكرنتينة » (العزلة الاربعينية) ، والكتاب مترجم عن الاصل العربى ، الى التركية ، بقلم الكاتب نفسه ، ومن هذا الكتاب نسخة تحت رقم 56 24 بالمكتبة الوطنية بباريس (34) .

5 ـ وله رسالة أخرى شخصية بعث بها من لندن ، الى أستاذه محمد بن على فى الجزائر (35) .

6 ـ حكمة العارف بوجه ينفع ، المسألة ليس فى الامكان أبدع مخطوط بالقسطنطينية 1836 م (36) .

المصادر التى اعتمد عليها حمدان خوجة واهميتها بالنسبة للكتابة التاريخية .

ان مؤلفات حمدان خوجة ، مختلفة المواضيع التاريخية (المرآة) والسياسة (المراسلات، والرسالة والمذكرة) والعلمية (اتحاف النصفين) لتعد مصادر أولى للمؤرخ الباحث وللمتبع لمؤثرات العصر ، فى روح الكتابة والاتجاهات المختلفة ، التى سادت الفترة التى عاصرها أو سبقته . وتناولها بالكتابة وذلك لكونه استند هو نفسه ، على مصادر ، من الدرجة الاولى وهى :

ا ـ المشاهدة المباشرة وهى الاساس الذى اعتمده حمدان خوجة فى كتابته «للمرآة» وكذلك لكتابته «اتحاف المنصفين» ، ويصفها هو نفسه بالوثائق لانه فى الوقت الذى تكونت لديه فكرة الكتابة عن الجزائر ، زار مناطق داخلية ، لهذه الاخيرة ، لم يكن قد زارها قبل الاحتلال ، ليتأكد من صحة ما سيكتبه ، فيقول بالنص : «لو لم أكن متخوفا ، ومتألما من وضعية بلدى البئيس بالاضافة الى المتاعب التى سببتها لى شيخوختى ، لجمعت مزيدا من عجيب الوثائق (ويقصد المعلومات) ، حول هذه المنطقة من افريقيا ، (37) ، اذن يدرك بنفسه أهمية المشاهدة المباشرة فى الكتابة التاريخية ، ويعتبرها من باب الوثائق ، وحتى فى كتابه اتحاف المنصفين ، عند ما ينصح بتطبيق نظام «الكرنتينة» يصف ما شاهده خلال أسفاره ، وخضوعه لمثل هذه الانظمة المعمول بها فى أوروبا .

ب ـ الاخذ عن الثقاة (38) ومن ذوى المكانة المباشرين لاعمالهم كالبايات مثلا ، فكثيرا ما يصرح بأنه لم يشاهد ما رواه بنفسه وانما أخذه عن غيره من الثقاة ، كما هو الحال بالنسبة لسكان الصحراء فيقول : «اما بالنسبة لسكان الصحراء فانى لم أقم بزيارة هذه المنطقة بنفسى وانما تحصلت عن أخبارهم واحوال المنطقة ، من أشخاص ذوى ثقة » (39) .

ويقول فى موضع آخر عند ما يتعرض لرسم حدود ولاية الغرب « ان هذه الجزئيات قد أخذتها عن باى تولى ادارة ولاية وهران ثم قسنطينة » ، وكذلك فى شأن مؤسسة بوشناق، وبكرى ، اللذين كانا أصل مشكل النزاع الفرنسى الجزائرى ، فيقول : « لقد أخذت عن هذا الشريك نفسه هذه المعلومات » (40) ، ويقصد النزاع الذى تحول بين الشركاء الثلاثة عند ما تضخم ربحهم ، والامثلة على اسناد الاحداث الى رواتها كثيرة ، فى كتاب المرآة .

أما قيمة محتوى كتبه تاريخيا فتتضح بعد استعراض الاعتبارات التالية :

أ ـ ان وصف حمدان خوجة للعادات والتقاليد الجزائرية فى مختلف مناطقها ، والاحداث التى عاصرها ، تظهر واضحة للقارىء منفصلة عن الاحكام التى يوردها فى نهاية كل فصل تقريبا ، وهذه الاخيرة تدخل فى نطاق الاستنتاج والتنبىء

بما سيقع من أحداث ، وبالتالى تدخل فى نطاق الاغراض التى كتب من أجلها كتاب المرآة .

ب ـ بناء على ما ذكر آنفا من ان الاغراض غير الحقائق التاريخية ، فليس من المنطق فى شىء أن لا نصدق أو أن لا نعتقد بصحة ما كتبه شخص شاهد الاحداث عن قرب ، وشارك فى تسيير اتجاهاتها نظرا لمكانته فى الدولة والمجتمع معا .

ج ـ توافق ما كتبه حمدان خوجة فى فترة الاحتلال عن تصرفات الجيش الفرنسى ، بما كتبه غيره من الكتاب الفرنسيين المعاصرين للاحداث من امثال : بيشون ، وبروسارد ، حول كثير من الاشياء . أما ما يرويه عن الفترة التى لم يشاهدها كنظام الدولة فى القرن السابع عشر ، ونظام الميليشيا ، وثورة الكورغلان ، وخضوع الحكام لرجال الميليشيا ، فيذكرها مشاهدو هذه الاحداث ، فى كتبهم بنفس الدقة التى رواها حمدان خوجة (41) .

د ـ دام وصف حمدان خوجة للعادات والتقاليد المختلفة لسكان الجزائر من بدو وحضر وصفا دقيقا (42) ، وما دمنا لانزال نشاهد نفس هذه التقاليد والعادات ، فلماذا لا نقيس صحة هذه الاشياء على غيرها من الحوادث الاخرى ؟

هـ ـ وحتى ما كان من باب الاستنتاج بالنسبة لحمدان خوجة ، من ان هؤلاء السكان ، هم أشبه ما يكونون بالوحوش ، ويصعب على فرنسا وعلى غيرها أن تخضعهم ، فقد برهنت الايام بصحة هذه النظرية التى تجسمت فى مقاومة الامير عبد القادر وبوبغلة ، وغيرهما ...

و ـ كما يمكننا أن نحكم بصحة أخباره من صراحته التى يقسو فيها على بعض العسكريين لما ارتكبوه من وحشية، والاشادة بأخلاق الآخرين كالجنرال (لويردو) رجل الشرف والعقلية المثيرة للاعجاب ، والجدير بالانتساب الى الامة العظمى» .

ز ـ كما ان ذكره لجميع التصرفات اللاانسانية قد صاغها فى شكل وثائق ، ومذكرات ، للحكومة الفرنسية على مستوى عال ، وليس من المعقول أن تخلو هذه الاشياء من أساس ، يستند هو عليه (43) .

ح ـ تأجيل اخراج كتابه «المرآة» على أمل وقوع اصلاحات ، أو تغيير لصالح الجزائريين ، حتى على حد قوله : يرصع كتابه بها .

ط ـ اعتراف اللجنة الافريقية ، ذاتها ، بخرق الحكام العسكريين للمعاهدات واقرارها كثيرا من تصرفاتهم ، التى ندد بها ، حمدان خوجة (44) .

الغرض من كتابة كتبه والطريقة التى سلكها :

لقد كتب حمدان خوجة المرآة الى قراء فرنسيين من الشعب الفرنسى ، ولم يكتبها ليقرأها بنو وطنه كما كتب ذلك الى الرسميين فى الحكومة الفرنسية مختصره « المذكرة » التى بعث بنسخة منها الى اللجنة الافريقية (45) لأسباب أشار هو اليها من بينها أن «كثيرا من الكتاب ولو أنهم نشروا كتبا، حول الجزائر ، فمعظمهم لم يتناول الموضوع بكتابته ، الا من زاويته المادية (46) ، كما دفعه الى ذلك «الرغبة فى القيام بأعباء مهمة المؤرخ الحقيقى بمنتهى الصراحة ، هذه المهمة التى لم تجد جرأة لدى أى واحد من كتاب تاريخ نيابة الجزائر لاظهارها » (47) .

وليس من المستبعد أن تكون اغراض أخرى لدى حمدان خوجة من وراء كتابته المرآة الذى نشره بباريس ، كالتأثير على الشعب الفرنسى والحكومة معا .

أما التأثير على الشعب فكان بطريقة سرد صور للتصرفات الوحشية ، التى كان يتعرض لها الشعب الجزائرى من طرف العسكريين كالقتل الجماعى والابادة والتشريد والمطاردة ، فهو بذلك يشبه ، حالة الشعب اليونانى الذى ، عانى من مذابح العثمانيين ، وذلك لاثارة عواطف الفرنسيين والهاب مشاعرهم ، وجعلهم يستنكرون مثل هذه الاعمال ، فيضغطون على حكومتهم بطريقة المظاهرات أو الاحتجاجات ، ويشير الى أن « قضية الجزائر قضية خطيرة ، ما دامت تتعلق بحياة أمة » (48) هذه الامة التى لها مقومات شخصيتها ، كالدين والعادات واللغة والتقاليد (49) ، اذن فهى أمة يحق لها ، أن تتمتع بسيادتها لما لها من عناصر ، تميزها عن غيرها كما كان الامر بالنسبة لليونان الذين حظوا بالتأييد للانفصال عن الدولة العثمانية، وبالنسبة للبلجيكيين الذين لعبت مبادىء دينية ، وسياسية دورها فى فصمهم عن الهولنديين ، وأن الشعوب المتشبعة بالحرية لتتطلع الى اليوم الذى

ترى فيه بولندا قد استرجعت سيادتها (50) وبالطريقة العاطفية الرومنطقية التى يعبر بها حمدان خوجه عن مآسيه نتيجة ، ما تعانيه بلاده من آلام الاحتلال ، كقوله : « ان ما يرسف فيه وطنى كان يقلقنى باستمرار ، وكثيرا ما كنت خلال تسجيلى لهذه التعاسة ، أضع القلم ، لاترك دموعى تنهمر » (51) ، يعكس تيار العصر الذى ساد خلال هذه الفترة والذى كان مزيجا من الحركتين الرومنطقية والقومية ، هاتان الحركتان اللتان سادتا مختلف الدول الاوروبية ، والتى كانت بهما شعوب هذه الدول شديدة الحساسية ، فهو بذلك يريد أن يدخل الجزائر ، فى هذا الاطار لعلها ، تحظى بشىء من حساسية الشعوب الاوروبية .

اما محاولة تأثيره على الحكومة فهو الى جانب الاسلوب النفسى الذى استعمله فى مخاطبة مسؤولى الحكومة الفرنسية ، على مختلف مستوياتهم كالتماسه من الملك « لوى فيليب » بفعل شىء حتى لا يعانى (أى لوى فيليب) من قساوة التاريخ ، لان هذه الاعمال التعسفية قد حدثت فى عهده(52) . وكذلك مخاطبته لاعضاء اللجنة الافريقية بكونهم ممثلى شعب فرنسا ، المتشبع بافكار الحرية ، وبكونهم ينتمون الى دولة لها عظمتها ودورها فى مناصرة قضايا القومية ، والحرية (53) وعلاوة على هذا فهو يستعمل أسلوب التخويف ، باظهاره شتى المصاعب التى ستتعرض لها فرنسا ، كاحتمال مواجهتها ، مقاومة الاهالى ، أو بدو الجبال الذين لا تقدر فرنسا ولا غيرها على اخضاعهم (54) وأن لهؤلاء من امكانيات الفروسية ، والقدرة على تجييش عدد لا يستهان به عند الحاجة (55) ، بالاضافة الى مخاطر الصحراء ، التى يعجز عن السير فيها كل غريب عنها ، مع ما فيها من حيات متنوعة قاتلة لا يعرف سر تجنبها ، الا من ألف حياة الصحراء(56) . ومع ذلك فهى من أهم مناطق الايالة أهمية ، بالنسبة للبلاد اقتصاديا ، فى نظر حمدان خوجه (57) .

ويصر على أن يقلع من ذهن قارئه فكرة صلاحية الجزائر للاستعمار نظرا ، لسهولها ، الساحلية الواسعة ، فينفى ذلك حمدان ويؤكد بأنها أشد مناطق البلاد خطرا ، وأرداها انتاجا ، فهى مصدر للامراض المختلفة ، نظرا لانتشار المستنقعات فيها، وانتاجها من الحبوب ردىء الطعم (58) . وتتضح فكرة حمدان خوجه هذه فى قوله : « ان احتلال البلاد عديم الجدوى لفرنسا ، بالنسبة لامكانياتها الطبيعية والبشرية » (59) .

يكون حمدان خوجه اذن قد قصد ببعض ما أورده تزهيد فرنسا فى الجزائر ، واضعاف لديها نسبة احتمال بقائها فيها ، ما دامت محفوفة باخطارها الطبيعية ، ومكتظة بسكانها البالغ تعدادهم عشرة ملايين نسمة ، الغير القابلين للخضوع بالمرة . وان كانوا قد رضوا بالحكم التركى فذلك راجع الى سياسة اللين التى سلكها الاتراك ، معهم ، مستغلا الفكرة السائدة فى هذه الفترة ، ومفادها ، أن الاستعمار المباشر ، عديم الجدوى وخاصة بالنسبة لفرنسا التى كانت ، فى تردد ، وحيرة بشأن الجزائر ، وخير لها أن تدخل فى مفاوضات وعقد اتفاقيات لصالح البلدين ، على غرار ، ما هو قائم بمصر ، ويتحدى حمدان خوجه (وهو العارف بمجريات الامور) من يرى غير حله هذا بالنسبة لقضية الجزائر بعد أن ذكر حلين أخريين ، من الصعب تطبيقهما (60) .

اما كتابه اتحاف المنصفين والادباء الذى أظهر فيه حمدان خوجه ثقافته الواسعة ومقدرته العلمية (61) ومدى تشبعه بأوجه الحضارة الاوروبية المختلفة ، فقد كان يرمى من اصداره وتقديمه ، هدية للسلطان العثمانى محمود الثانى، عملية الاصلاح التى خطت خطوتها الاولى فى عهد هذا السلطان ، الى الاخذ بأسباب العلم والدعوة الى تطبيق نظام الكارنتينه الذى شاع تطبيقه فى أوروبا .

وكما فهم حمدان خوجه محور الاتجاهات الفكرية فى أوروبا اذ خاطب قراءه الفرنسيين بأسلوب معين وبطريقة خاصة فانه متفهم ، كذلك للعقلية الشرقية ، فسلك طريقة خاصة لاقناعهم بضرورة مسايرة الموكب الحضارى . فلم تظهر فى كتابته رومنطيقية ، ولم يحاول ان يقنع قراءه بتصديق ما يقول ، بالنظر الى مكانته ، بل استعمل لغة القرآن والسنة (62) فى تحامل كبير على بعض المتزمتين والمتعصبين . يكون بذلك قد ساهم فى حركة الاصلاح العامة التى كانت الدولة العثمانية لها مجالا ، وبخاصة فى عهد السلطان المذكور .

طريقته في الكتابة

يلاحظ القارىء أن حمدان خوجه يربط الحوادث التي يريد ذكرها بالزمان والمكان ، كحديثه عن منطقة المدية فهو يشير الى الحادث الذي وقع بها ، كحملة « بارتوزان » الفاشلة (63) . وفي حديثه عن قسنطينة يورد النزاع الذي تم بين أحمد باي وابراهيم باي (64) الى غير ذلك . كما يستعمل طريقة المقارنة لتقريب صورة الشيء أو الفكرة الى ذهن القارىء كتشبيهه نظام الاوقاف الدينية بدار (الانفاليد) بفرنسا ، وأشياء أخرى كثيرة ... وكوصفه « للقندورة » بدل تسميتها ، وذلك لتقريب الصورة الى ذهن القارىء (65) . وما عدا ذلك فأفكاره مرتبة مسلسلة وكتابه اتحاف المنصفين والادباء في الاحتراز عن الوباء ، فقد صاغه بأسلوب معقد ، وسيقت فيها مختلف الادلة للتأثير على قارئيه . وان كان هذا الكتاب الاخير ثمرة تجارب طويلة ، ودعوة الى الاخذ بمظاهر الحضارة الأوروبية فان الكتاب الأول مرجع له قيمته السياسية والتاريخية ، يكتسي قيمته الاولى في عكسه لنا الصراع السياسي الذي خاضه حمدان خوجه ورفاقه في غمرة الاحداث العالمية في تلك الفترة ، ومرجع له قيمته التاريخية لمكانة المؤلف الاجتماعية والثقافية ، ومعاصرته لفترة ما قبل وبعد الاحتلال ، والدور الذي ساهم به في توجيه سير الاحداث ، وصراحته المتناهية في تناوله لها .

وان كانت الفترة التي سبقته ، وكان قد أرخ لها ، لا يتسرب اليها أدنى شك لصحتها بالمقارنة كما سبق ذكره ، فالفترة الاخيرة ، التي عاصرها وما كتبه عنها ، فان أقل ما يقال في أحداثها أنها كتبت ، من وجهة نظر جزائرية ، معاصرة متمكنة من الكتابة ، لمعرفتها بخطورة التأريخ ، ومقدرة للامانة التاريخية ، وعارف بأسرارها ، وبمصاعبها معا (66) .

ولعل ما يؤخذ على حمدان خوجه واضر به هو كتابته للقدمة وللرسالة ، بأسلوب رومنطقي وبعاطفة فياضة ، جعلت القارىء المتسرع الذي لا يربط تأثير تيارات العصر في الكتابة التاريخية يحكم على انحياز الكتاب (67) . كما أن البعض الآخر قد اتخذ من مطالبة حمدان خوجه ببعض حقوقه ، والدفاع عن بعض مصالحه ، منفذا لجعل حركة حمدان خوجه حركة ذاتية مصلحية (68) ، واعتبارها ثغرات يستدلون بها على ما يذهبون اليه كنفي بعض تصرفاتهم والتهم التي الصقت بهم .

ومن خلال بعض الفقرات من كتاب حمدان خوجه نستشف عجزه في فهم بعض حركات العصر ، كعدم فهمه ، للحركة الاستعمارية المعبر عنها بالاستعمار الحديث والتي ترمي الى الاحتلال المباشر للاسباب المذكورة في التمهيد . فهو يتساءل تساؤلات تنم وتؤكد عدم فهمه لهذا الاتجاه الجديد ، كقوله « بأن فرض الغلبة كان دائما يتم على مستوى الحكومات بفرض شروط ، معينة على الحكومة المغلوبة على أمرها ، أما الاحتلال المباشر فلم يسبق أن مارسه متغلب » (69) هذا الاتجاه الذي سيندفع وراءه الشعب الفرنسي بعد سنوات قليلة يدفعه الحنين الى الامجاد القديمة ، والانتصارات السابقة ، ناسيا ما جلبه عليه نابليون بونابرت من آلام (70) لان وطنية شعب حر مستقل ليست للحرية ولكن عليها فهي تطمع في مزيد من التوسع والاستعمار » (71) .

وبذلك يكون قد فاته شيء لم يضعه في اطاره العام ، وان كان قد ربطه بالاحداث المحلية (72) ومهما كانت نظرة المؤرخين الى حمدان خوجه (73) ومهاجمة الكتاب المعاصرين له لاغراض مختلفة ، فالكتاب العسكريون قد استفادوا من كتابه « المرآة » فوائد جلى من حيث الاطلاع على أحوال الاجتماعية والنفسية لشعب الجزائر ، ومن حيث خصائص كل منطقة ، من مناطق الجزائر ، وعن تاريخ البلاد ، وبالاخص في العهد العثماني »

أما ما وعد به حمدان خوجه من اخراج الكتاب الثاني فقد حال دون ذلك قرار الحكومة الفرنسية القاضي بالحاق الجزائر بفرنسا ، كما أن مثوله أمام المحكمة لتبرير التهم التي اتهم بها غيره ، جعله يشعر بخيبة أمل على حد تعبير ايفان ، وان استمر في العمل بالصحافة وساهم في التيار الاصلاحي ، بتأليف من نوع جديد .

الهـــوامش :

1) قدر تاريخ ميلاده د/سعد الله في كتابه « الحركة الوطنية الجزائرية » بسنة 1773 م ص 37 ـ كما قدره ايفار بسنة 1967 ـ م

2) نور الدين حاطوم ـ تاريخ الحركات القومية ج 1 ط 1775 م بالمجلة الافريقية لسنة 1913 م

3) نور الدين حاطوم : المرجع السابق

4) خلافا للدكتور سعد الله في كتابه الحركة الوطنية الجزائرية الذي يقول : بانه من عائلة جزائرية متوسطة الحال ص37

5) المرآة صفحة 103 ـ 104

6) نفس المرجع

7) المرآة ص 150

8) المـرآة ص 49

9) المـرآة ص 49

10) سعد الله ـ تاريخ الجزائر الحديث (بدايت الاحتـــلال)

11) المرآة ـ الفصل 13

12) يستبعد أن يبقى حمدان خوجة كل هذه المدة خارج الجزائر اذ من الممكن ان يكون قد عاد اليها مرات خلال نفس الفترة يفترض ذلك ايفار في مقاله بالمجلة الافريقية لسنـــة 1913

13) د سعد الله ـ الحركة الوطنية الجزائرية ـ ص 37

14) ابن عبد الكريم ـ حمدان خوجة ـ «اتحاف المنصفين والادباء في الاحتراس عن الوباء» ص 13 طبعة أولى ـ الجزائر 1968

15) المرآة في مقدمتها

16) ابن عبد الكريم نفس المرجع ص 15

17) من قصيدته التي مدح بها محمود الثاني وكالتي بعث بها الى أحد اساتذته بالجزائر

18) د سعد الله ـ تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال ـ ص 121

19) ترجمة بتصرف

20) ايفار المجلة الافريقية

21) يبدو أن هناك من ترجم النسخة الفرنسية الى العربية

22) أوردت الافكار دون النص

23) بتصرف كبـــير

24) انظر المرآة ص 19 ـ 20 ـ 21 ـ 22

25) المرآة صفحة 24

26) ان الفصول السابقة لهذا الفصل وبعده ليست ترجمتهـا حرفية بل ذكرت المعاني والافكار التي بها فقط

27) كانت مقر بايلك الغرب قبل استرداد مدينة وهران من الاسبان حوالي سنة 1792 م

28) لقد سقت ملخص هذه الفصول للاستدلال بالنص على بعض الافكار الواردة في البحث

29) د سعد الله ـ تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال ـ ص 94 و 98

30) د سعد الله ـ الحركة الوطنية الجزائرية ص 432

31) تكون اللجنة قد تسلمت كلا من الرسالة والمذكرة وهي بالجزائر يظهر ذلك من تاريخ الرسالة 26 أكتوبر 1833 م بينما اللجنة وصلت الى الجزائر في 2 سبتمبر من نفس السنة

32) عن ايفار بالمجلة الافريقية لسنة 1913 م ص 122

33) ايفار في الهامش ص 122

34) ابن عبد الكريم ـ اتحاف المنصفين والادباء ص 37
35) فى حوزة ابن عبد الكريم ولا اعرف بالضبط مضمونها عدا انها تنتهى بقصيدة شعرية
36) انظر اتحاف المنصفين ص 32
37) حمدان خوجة ـ المرآة ـ
38) اشار الى ذلك تيسير فى بحثه عن قيمة المرآة التاريخية
39) المـرآة ص 35
40) المـرآة ص 67
41) كتاب بيردان عن مجلة كلية الآداب عدد 2 لابى العيـد دودو
42) انظر الفصل الثانى فى المرآة وملخصه كما سبق فى هذا البحث
43) انظر نسخ المراسلات بآخر كتاب المرآة
44) سعد الله ـ تأريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال ـ ص 108
45) سعد الله المصدر السابق
46) المرآة فى المقدمة ص 11
47) نفس المصدر السابق ص 11
48) المرآة ص 11
49) المرآة ص 42
50) المرآة الصفحة الاولى من مقدمتها
51) أشار الى ذلك ابن عبد الكريم فى كتابه ـ اتحاف المنصفين والادباء ـ ص 9
52) المرآة ص 363
53) الرسالة التى بعث بها الى اللجنة
54) المـرآة ص 24
55) المرآة الفصل الرابع
56) نفس المصدر نفس الفصل
57) نفس المصدر نفس الفصل
58) المـرآة ص 24
59) المرآة الفصل الرابع
60) المرآة ص 324
61) سعد الله تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتـلال ـ ص 79
62) انظر اتحاف المنصفين والادباء من تحقيق ابن عبـد الكريم
63) المرآة الفصل السادس ص 25
64) نفس المصدر الفصل الرابع 37 و 38
65) انظر الفصل الثانى من المرآة
66) المـرآة ص 11
67) انظر المقدمة والرسالة
68) ايفار المجلة الافريقية ص 98
69) المـرآة ص 83 و 84
70) تأمبرلى وجرانيت ـ تاريخ أوروبا فى القرنين 19 و 20
71) نشرة حزب الشعب الجزائرى
72) انظر بحث تيسير السابق ذكره
73) سألحق بالبحث فصلا عن نظرة المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين الى حمدان خوجة

المراجع المعتمدة فى هذا البحث

(1) **حمدان خوجة :**
لمحة تاريخية واحصائية عن الجزائر المحمية (المرآة) الاصل بالعربية مفقود ، ترجم الى الفرنسية من طرف . . . . د . . . الشرقى (حسونة دغبر) باريس 1833 .

(2) **حمدان خوجة :**
رسالة اتحاف المنصفين والادباء فى الاحتراس عن الوباء ، تحقيق : محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الاولى ، أكتوبر 1968 .

(3) **ايفـــار :**
سى حمدان بن عثمان خوجة ، المجلة الافريقية لسنة 1913 من ص 93 الى 138 .

(4) **د أبو القاسم سعد الله :**
تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية ـ 1970 .

(5) **د أبوالقاسم سعد الله :**
الحركة الوطنية الجزائرية ـ منشورات دار الآداب ببيروت ط أولى ـ مارس 1969 .

(6) **التمـــيمى :**
ثلاث رسائل من الحاج أحمد باى قسنطينة الى الباب العالى ـ مجلة المغرب العربى ـ عدد 3 .

(7) **شارل اندرية جوليان :**
تاريخ الجزائر المعاصر (1827 ـ 1871 م) باريس 1964 .

(8) **بيشـــون :**
الجزائر وضعيتها الراهنة وماضيها ـ باريس 1833 م .

(9) **بيليسييه دى رينو :**
الحوليات الجزائرية ـ الكتاب السادس ـ ج 1 باريس 1836 م .

(10) **تيســـر :**
بحث عن قيمة المرآة التاريخية .

(11) **د أبوالعيد دودو :**
مقاله بعنوان «الجزائر من خلال تاريخ بيردان» عدد 2 من مجلة كلية من كلية الآداب .

(12) **هارولد تمبرلى ، وجرانيت :**
ترجمة بهاء فهمى ـ أوروبا فى القرن 19 و 20 ـ 1950 م القاهرة ـ الطبعة السادسة .

(13) **جيفرى براون :**
ترجمة عبلة حجاب ـ الحضارة الاروبية فى القرن 19 (1815 ـ 1914) بيروت 1963 .

(14) **محمد قاسم واحمد نجيب هاشم :**
التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة دون ذكر تاريخ الطبع .

(15) **نشرة حزب الشعب الجزائرى 1951 .**

(16) **نور الدين حاطورة :**
تاريخ الحركات القومية ج 1 ط دار الفكر الحديث ـ لبنان ـ طبعة أولى 1967 .

.مقابلات .

مع المؤرخ الفرنسي أجرون

زار الجزائر الاستاذ آجرون بدعوة من قسم التاريخ بالجامعة لالقاء سلسلة من المحاضرات على طلبة قسم التاريخ . واغتنمنا هذه الفرصة فوجهنا له هذه الاسئلة ، واجوبته توضح وجهة نظر تستحق الاطلاع والبحث .

وهذه نبذة عن نشاطه وبحوثه :

الاستاذ **آجرون** مبرز فى الجامعة ، مارس التعليم باحدى ثانوية باريس ثم بثانوية الجزائر ، ومن 1947 ، الى 1957 ، درس بمعهد الدراسات السياسية بالجزائر . ثم عين مساعدا فأستاذا مساعدا بالسوربون . وفى سنة 1968 حصل على دكتورة الدولة فعين أستاذا بكلية أورليانس ثم أستاذا صاحب كرسى التاريخ المعاصر بكلية تورس .

بحوثـه :

يقول الاستاذ : « بمجرد قدومي الى الجزائـر سنة 1947 أبـديت اهتماما خاصـا وقررت أن أخصـص لهم أطروحة الدكتوراة ــ ولكن الموضوع ضخم وصعب لا سيما بالنسبـة لفرنسي قدم للجزائر للمرة الاولى ، فاستغـرق البحث مدة طويلة . ولهذا شرعت في نشر عـدة مقالات بعد 1956 .

1) في المجلة الاشتراكية

1 ــ ملخص لتاريخ سياسة الاندماج .

2 ــ الحركة الوطنية الجزائرية : من الاسلام الى الثورة (جوليت 1956) .

2) في مجلة التاريخ الحديث والمعاصر

1 ــ سياسة لبرالية نحو الجزائر في أيـام الجمهورية الثالثة (أفريل ــ جوان 1959) .

2 ــ جول فيري والقضية الجزائرية (أفريـل ــ جوان 1963) .

3) في مجـلات مختلفـة

1 ــ جوريس والاشتراكيون الفرنسيون أمـام القضية الجزائرية (مجلة الحركة الاشتراكيـة جانفي 1963) .

2 ــ الجزائر الجزائرية أيام نابليون الثالث ، (مجلة بروف 1961) .

ــ المفـاوضات الاولى بين الجزائر وفرنسا : معاهدة التافنة (مجلة بروف) .

ــ السياسة القبائلية للامبراطورية الثـانية : (مجلة تاريخ فرنسا لما وراء البحار) .

ــ تخطيط سياسة بعد احتلال قسنطينة (..)

ــ التطور السياسي للجزائر في عهد الامبراطورية الثانية (مجلة الاخبار الجزائرية) .

ــ هل كان الامير خالد أول وطني جزائري ؟

ــ حركة الشبيبة الجزائرية (مجموعة مقالات تكريما لأندري جوليان) .

وهناك مـوجز لتـاريخ الجزائر المعـاصـر (سلسلة كوسيج ؟)

على أن البحث الاساسي والعمل العمدة هـو أطروحتي في مجلدين (1200 ص) وعنوانهـا : «الجزائريون المسلمـون وفرنسا» (من 1871 الى 1919) .

س : لمـاذا اهتممت بهذه الموضوعات ولمـاذا اشتغلت بتاريخ الجزائر ؟

ج : درست في بداية الامر ــ علاقات الجزائريين المسلمين مع فرنسا لانني لاحظت ــ وأنا استاذ شاب آنذاك ــ الجهل السائد المتعلق بتطـور الجزائريين خلال الفترة الاستعمـارية ، وحاولت عبثا أن أطلع فلم أجد شيئا يرضيني .

ومن جهة أخـرى كان الاروبيون يقولـون ان « الفرنكاوي » لا يستطيع ان يفهم شيئا .

وكانت صداقتي للجزائريين الدافع على محاولة الاطلاع والفهم . فهل بلغت الغاية ؟ لا أستطيـع الاجابة على ذلك .

على كل فان فرنسيي الجزائر لاموني بشدة وعنف على أبحاثي لاسيما وان النتائج التي وصلت اليها ضايقتهم . فقد بينت انه كان بفرنسا تقـاليد ليبرالية اصبحت معدومة التأثير في الجـزائر بسبب معارضة المعمرين . ويريد هؤلاء أن يحملوا

فرنسا وحدها مسؤولية سياستهم القصيرة النظر.

ولكن المـؤرخ الذى طالـع – مدة 15 سنة – الصحافة الفرنسية بالجزائر التى صدرت ما بين 1870 و 1919 يعرف جيدا مشاعرهم الحقيقية فى الفترة الاستعمـارية .

س : يزعم بعض المؤرخين الاجانب ان الجزائر لم تكن يوما من الايام دولة ذات سيادة ، فمـا هو موقفـكم ؟

ج : كيفما كان جوابى فلا يستطيع أن يـكون له قيمة علمية ، لانى ما استعملت أبدا وثـائق يعود تاريخها قبل القرن التاسع عشر .

ومن المعلوم انى لاحظت ان الاتراك قبل 1830 كونوا دولة بالجزائر وقد قدرت – حدة الشعور الوطنى المناهض للاتراك فى سنوات 1831–1834.

ولكن فيما يتعلق بالعهد الذى سبق القرن 19 فليس لى أخبار من الدرجة الاولى تسمح لى بتقديم جواب موضوعى .

س : هل تعتقد أن المؤرخين الفرنسيين الذين تصدوا لكتابة تاريخ الجزائر كانوا موضوعيين ؟

ج : نعم ، ان بعض المؤرخين الفرنسيين كتبوا تاريخ الجزائر بنظرة استعمارية مثل اقستين برنار الجزائر ، ومثل فكتور ديماتيس وغيره .

ولكن لا ينبغى أن نعمـم ونقول ان جميـع المؤرخين كانوا فى خدمة الاستعماريين .

فقد ترك بيليسى دى رينو فى حوليـاتـه 1847 وقد سمى أحد ابنائه «حجوط» . واظهـر الجزائرية أحسن كتاب تاريخ لسنـوات 1830– – فى كتابه استقلالا كبيرا فى الرأى والحكم –

ومن جهة أخرى فان كتاب «تاريخ ثورة 1871 بالجزائر» الذى ألفه الكومندان رينى قيم من حيث المعلومات ومن حيث عدم التبعية والمشاكلة .

وبلغت به الجراة – سنة 1874 – الى أن تغنى بشجاعة المسبلين وتضحياتهم بينما لم ير عدد من الكتاب الفرنسيين – فى حرب 1871 – سوى « مذابح باليستـرو » .

وتجاسر المؤرخ الفريد رينبو – سنة 1891 – على كتابة ما يلى : « ان هذا القتال فى الحقيقـة كان قتال شوارع ، ولم يؤذ نساء الفرنسيـس وأطفالهم وشيوخهم . ثم يضيف قائلا : انـه لو قمنا باحصاء الفضـائح التى ارتكبها الغـير النظاميين والتى مست بشرف الجنسين فـان الحساب الختامى ربما لا يكون لفائدتنا» .

وفى استطاعتنا أن نذكر مؤرخين آخـرين وبعضهم لازال على قيد الحياة .

وان المؤرخين الذين قالوا كل الحقيقة انمـا أدوا مهمتهم لا أكثـر .

وأول واجب يفرض نفسه على المؤرخ هو أن لا يقول خطأ وان يقول كل ما هو صحيح .

وهناك آخرون كتبوا التاريخ بتوصية من اناس والتاريخ لا يكتب بتوصية من أجل **بيـان هـذا القـول** أو ذاك او اشهار مفاخر الغالب .

س : ألقيتم محـاضرة حول : « الجـزائر فى وثائق الجنرال برتوزين » فما هى أهمية هـذه الوثائق فى نظركم ؟

ج : ان الوثائق التى تركها برتوزين تسمح باعادة كتابة التاريخ لسنة 1831 وتبين السياسة التى اختطها هذا القائد حتى راسله يوما سي حمدان خوجة قائلا : « ترك اشرافك القصير على الادارة بالجزائر أسفا شديدا فى نفوس جميع الجزائريين ... وان كنت لم أتحدث عنك ولا عن ادارتك المعتدلة المستحقة للشكر فى كتابى – المرآة – وذلك من الواجب – فلان الحوادث التى أوردتها تتبع التسلسل الزمنى – ولن يفوتنى الكلام عنها فى الجزء الثانى الذى سيصدر بعد قليل » .

وكانت سياسة برتوزين نحو الجزائريين سياسة نزيهة . فكان يكره المعمرين ويبذل كل ما فى وسعه لكسب ثقة الحضر والبدو . والتفت الى شيخ من القليعة ليكون على رأس القبائل المجاورة للجزائر العاصمة ، واخذ على نفسه أن يوقف العمليات العسكرية ، وقد انجز وعده .

وتسمح لنا هذه الوثائق – من جهة أخرى – بالاطلاع عن النشاط السياسى لحضر الجزائر وذلك بصورة أدق .

وهؤلاء الحضر هم اما من الاعيان القدماء فى العهد التركى مثل سي حمدان واما من «حديثى النعمة» فى ظل الفرنسيين مثل بوضربة . وسبب العرائض التى صدرت من « **اللجنة العربية** » فى 1832 وفى 1833 ، هو ان الحضر كانوا يتوقعون تخلى فرنسا عن مدينة الجزائر أو تسليمها للانكليز .

وكان قنصل انكليتيرا جوهن يغرى حكومته على التدخل زاعما ان خزينة القصبة لازالت لم يعثر عليها أحد .

وأقام الانكليز – وخاصة بانيستر ساكس – ضجة كبيرة الغاية منها المطالبة بانسحاب الفرنسيين . واتصلوا بحسونة داغر – الطرابلسى زعيم الحزب المؤيد للانكليز بتونس كما اتصلوا بسي حمدان .

وكان القنصل جوهن يطلع على جميع الاخبار السرية من طرف سي حمدان ثم أوصى به سفير انكليتيرا بباريس .

ومع ذلك يظهر سي حمدان لمواطنيه كعميل لفرنسا ، مع أن الفرنسيين حاولوا قتله .

وعند ما قدم حمدان الى فرنسا ظن جوهن وظن الفرنسيون انه جاء طامعا في خلف لحسين داى .

وكان سي حمدان يميل الى حكومة متوارثة تكون فى يد اسرة من الكرغلان ، مثل باشاوية تونس المتوارثة . وفى باريس حاول حمدان خوجة انشاء لجنة جزائرية يرأسها الجنرال لافايت الذى عرف بليبراليته ، وكان يؤيد حمدان .

وفى نفس الوقت كان الجزائريون فى المنفى يسعون لارجاع الجنرال برتوزين الى الجزائر ليخلف الجنرال السفاح والطاغية سافارى دوك دى روفيقو .

وبعد 1834 يتصالح الجانبان ويراسل سي حمدان المنفيين الذين عادوا الى الجزائر .

هذا هو ملخص العمل الذى لم ينشر والذى قدمته لنيل الدكتوراة الاضافية سنة 1968 .

الروح الإسلامى ومشاكل النهضة والتطور

د. الحبيب ابن الخوجة

عميد الكلية الزيتونية
للشريعة واصول الدين بتونس

فى القرآن الكريم آيتان جليلتان يتجه الرحمان سبحانه وتعالى بهما فى الخطاب الى المسلمين كافة ، نمر بهما ونرددهما ، ولا نقف عندها لشدة ما ألفنا ذكرهما ، ولا تستوقفاننا او نلقى لهما السمع لنفيد من الدعوة وندرك الاسرار التى تضمنتاها ، فنحاول قدر الطاقة ان نحمل شعارهما فى قلوبنا وفى الاعماق من نفوسنا ولا نتظاهر ابدا بحمله لبوسا ونخلعه حينا بعد حين او مرة بعد اخرى .

يخاطب الرحمان الرحيم عباده المؤمنين وقد جاءهم الهدى والحق مقررا وممتنا :

« كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فاذا هو سبحانه كاشف لدعائم تكوين هذه الامة ، مصور لها ، منبه على خطر هذه الركائز الثلاث بما لم ينبه على مثله عند الحديث عن اية امة من الامم الاخرى السابقة المتقدمة .

وهذه الدعائم التى تقوم روح المسلم وتبرز فى وضوح حقيقة الاسلام صنفان :

الاول منهما يتعلق بالفرد مرتبطا بالجماعة من الامــر بالمعروف كل معــروف امرا ينتهي بالفرد الى توفير الخير واقامة العدل ونشر الامن وتحقيق السعادة المطلقة فيمن حوله . ومن النهى عن المنكر كل منكر نهيا يقضى قضا تاما على الشر . فينفى الجور والظلم . ويقضى على الابنة والامراض النفسية والاجتماعية قضاء يخلص به المجتمع الانسانى من ويلات الشرك والمروق والتفسخ والشهوة والمكائد والحروب .

والصنف الثانى ذاتى هو الايمان بالله يعطى المسلم يقينا ويرزقه سندا ويخلصه من كل تبعية ويسمو به سموا كاملا فيكون به قوام رشاده وحريته وتمحضه للصلاح . واذا هو مخلص لله فى عبادته لا يستعين بغيره ، غير شاعر بالحاجة الى احد سواه ولا يزيده ذلك مع الشعور وعند اليقين الا تمجيدا وحمدا لخالقه . ورفعة وسموا وكرامة وعلوا بين نظرائه من الناس .

ومتى توفرت هذه الصفات فى العلم كان النجاح حليفه وقرينه . وكان الحاضر والغيب له . تلك هى سمات عباد الله المخلصين واوليائه المقربين من المحسنين والصالحين والصديقين والمجاهدين .

ونقف عند الآية الثانية فنستجلى عظم المنــة وكبر النعمة بما مكن الله المجيد لهذا الدين واورث اهله من سلطان يظهرون به على غيرهم . اذ جعلهم دعاة له تعالى ، متولين لدينه الحنيف . قوامين على الناس وذلك قوله جل وعلا :

« اليــوم يئس الذين كفــروا من دينــكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم اكملت لكم دينــكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا» .

فهو يعلن تعــالى بما أكتمل عندهم وفيهم من دعائم الايمان المستوجبة لتفوقهم والتى اشارت اليها الآية الاولى . أنهم اصبحوا فى منعة من عدوهم لا يقــدر عليهم . فحرضهم على تقــديم خشيته ومراقبته على خشية العدو ومراقبته . اذ فى خشية الله كفاء وجنة ، وفى خشية العدو مروق وخذلان . ثم بشرهم بان دينهم هو الدين الكامل لا تعطيل لشرائعه ولا نسخ لاحكامه فهو الباقى السرمدى الى يوم القيامة . « ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » . وامتن عليهم بعد ذلك بنعمته العظمى نعمة الاسلام التى اختارهم لها ورضيها لهم . ليرى بعد ذلك ـــ وقد هداهم سبيله ـــ ما هم صانعون .

بهذه العناصر الايمانية مجتمعة وهــذا الروح الاسلامى مكتملا انطلق المسلمون من الرعيل الاول ينشرون عقيدة ويفتحون عوالما . ويملؤون الدنيــا هدى ونورا . مؤسسين مجدا ومبتنين حضارة .

وقد كانت دعوتهم السمحة البسيطة المستندة الى الفطرة ملغية بين كل الافراد فوارق الجنس ، مبطلة للعنصرية وللعصبية الجاهلية . مناديــة بتوحيد الخالق البارى والمصور الذى فطر السماوات والارض . وباعثه لاكتشاف الاكوان وادراك العوالم الحسية والغيبية على الاغتراف من فيوض العــلم الحاصــل من استخدام الوسائل والآلات . ومن الاستناد الى الاشراق السماوى فيما يتلقاه عباد الله المخلصون والانبياء المرسلون من وحى يهدى الناس من بعد الضلالة ويطهرهم ويزكيهم من ادران الشرك وارجاس الوثنية .

نلمس هذه الحقائق فى تعاليم الاسلام ونجدها فيما أخذ به معتنقيه الاولين من تربية وتهذيب ، حتى اذا عدنا الى تلك الاصــول التوجيهية التى اعتمدها فى تنشئتهم . والى القوانين التربوية التى التزمها فى تخريجهم . وجدناه يعنى باثارة المدركات الغريزية التى هى من فطرة الانسان وكيانه . ثم يحمل الفرد المسلم على طلب المدركات الحسية بما أوتى من وسائل لذلك . حتى اذا تجاوب ما بــين غريزته وحسه ارتقى بــه الى المدركات العقليــة المفضية بطبيعتها الى المدركات الغيبية . وعلى هذا الاساس من التوجيه فى طلب المعارف ما اتصل منها بالعالمين العلوى والسفلى ، تكون المدركات

بسائر انواعها لديه متماسكة متساندة متعاونة مكونة للفرد المسلم المثالى الذى عرفته الاجيال الاولى من الدعوة ، وكانت له قدم الصدق عند ربه بما مكن لدينه ، ونشر واقام بين الناس من ثقافة باهرة وحضارة زاهرة .

وهو فى تلك الظروف ومع هذه الاحوال الملابسة لتكوينه قد وجد من الروح الاسلامى ما ملأ قلبه هدى ونورا ، وصدره أملا وانشراحا ، وفكره قوة وعزما . فلم يكن بالخائر الفاتر ولا الحائر المضطرب ولا المتردد الخائف . ولكنه وجد من مدد تكوينه وأصول تخريجه استقرارا للذات ، وأمنا داخليا ، جعلاه يمتطى الصعاب ويركب الاخطار فى سبيل اكتشاف القدرة الالهية والوقوف على النواميس الكونية ليزداد ايمانا وايقانا وينشر بين العالمين هداية وسلاما .

وقد ظل كذلك واستمر عليه قرنين كاملين أو ما يزيد عليهما قليلا ، يستمد من روحه الدينى ما يكون له ارادته ، ويشحذ به عزمه ، ويقوم به الحياة حتى امتدت آثاره وفتوحاته وكلمته ودعوته الى جزر الفيليبين وبلاد الهند شرقا ، والى المحيط الاطلسى من وراء العدوتين الافريقية والاندلسية غربا ، وامتد شمالا الى بامير سقف الدنيا عند التقاء جبال سليمان والهملايا ، كما بلغ جنوبا الى جزر القمور ومدغشقر . وهو بعد أن جمع الاجناس كلها من عربية وايرانية وطورانية وهندية نشر فيها حضارته وانطلق الى البحوث التجريبية والكونية والعلوم الرياضية والطبيعية ينقلها عن الامم الحالية والحضارات القديمة ، مضيفا اليها كل ما ابتدعته من نظريات وسبق اليه من ابتكارات علمية ، وهو فى ذلك كله مستجيب لروحه الدينى ومستمد منه ما يقوى عزمه ويؤكد مضاءه ، غير غافل فى الوقت نفسه عن العلوم الانسانية والدراسات الاسلامية الشرعية التى كان السابق اليها ، والواضع لها ، والموجه فيها ، والدال عليها ، شهدت بذلك الرسائل والكتب والمعالم والآثار ، واعترف به مؤرخو الحضارة الانسانية من مسلمين وغير مسلمين فيما سبق أوجد من بحوثهم ودراساتهم .

ووقفنا نحن فى عصرنا الحاضر وفيما سبقنا من عصور التدنى والتدهور ننظر الى ماضى الاسلام المشرق ومجده التالد وعهده الذهبى الزاهر الذى كنا نصف . فاذا فيهم وفينا انماط مختلفة من الناس متباينة المشارب والافكار والمواقف . لو اردنا رسم خط بيانى للتعريف بها وتصوير احوالها وما يجول فى نفوسها وضمائرها لرسمنا مثلثا ذا ثلاثة اضلاع ، لقاعدته زاويتان متقابلتان وفى اعلاه زاوية ، تبعد هذه عن الزاوية الاولى من القاعدة مقدار ما تبعد به عن الزاوية الثانية منها . وتمثل هذه الزوايا الثلاث – على الانفراد لا على الجمع – فئة ندعوها بالمنتسبة ، واخرى ندعوها بالهدامة وثالثة ندعوها بالوسطى أو المتفجعة المتنكرة .

اما الفئة المنتسبة فهى المتغنية بذلك الماضى ، المفاخرة المباهية به بالرغم مما نال روحها الدينى من شلل يمنعها من النهوض بعد الكبوة ، ومن الانطلاق بعد الانحباس ، ومن تجديد تلك الايام والعهود التى تحن اليها وتحلم بها بعد ما نالها من عسف ومسها من ضر وباعد بينها وبين المثل الاسلامى لديها من سلوك ووضع وتخلف وتأخر ، هى مقيمة عليه راضية به ، لا تحرك ساكنا ولا تأتى جهدا لتغييره والخلاص منه .

واما الهدامة وهى الفئة المقابلة للفئة المنتسبة فى القاعدة من المثلث ، فهى كالاولى أو شر منها ، لكونها نظرت الى المادة دون الروح ، وظنت الاسلام مملكة ودولة ولم تعتبره عقيدة وتشريعا ، وارادت من اجل ذلك أن تجعله مثل غيره فيما قام به من ادوار فى تاريخ الحضارة الانسانية ، أتى بما عليه

وولى من غير رجعة . فمثله مثل غيره من الحضارات ينسى فيها وينسخها بما يبنى للمجتمعات الانسانية من نظم وأوضاع مبتكرة مستحدثة يقيمها عليها ، كما هو ملاحظ اليوم فى أطراف المعمورة . من آثار قيام الحضارة الاوربية الجديدة . وهى حضارة علمية تقنية ليست بالمادية ولا الروحية .

ونترك القاعدة بعد التنقل بين طرفيها المتقابلين لنتجه نحو القمة حيث نلتقى بالزاوية الثالثة أو بالزاوية الوسطى عندما نقابلها بخط القاعدة المنتشر والممتد بين طرفيها . فاذا نحن مع نمط مغاير للنمطين الاولين ، وفئة مختلفة ومقابلة للفئة الاولى بقدر اختلافها عن الفئة الثانية . وهــــذا النمط الثالث الذى تتكون منه الفئة الوسطى أو الفئة المتفجعة المتفكرة هو فى الواقع فئة الذين لم يحنوا الى الماضى ويرضوا مع ذلك ان يكونوا من القعديين كالفئة الاولى . ولم يعتدوا بامجاد الاسلام ذكرا وتاريخا . ولكنهم انصرفوا عنها وظلوا من الهدامين المقوضين لها . يريدون استبدال اوضاع جديدة بما فيها . باوضاع قدسية قديمة وان اودى ذلك بمقـومات جماعتهـم واتلف مابينهم وبـــين ماضيهم من صلات وروابط كالفئة الثانية . ولكنه الصنف الثالث من النـــاس الذى آمن بماضيه واعتد به وانتسب له وهاله وساءه ما مس الاسلام فى عصوره الاخيرة وفى عصره الحاضر ، ثم رآه ورأى المجتمعات الاسلامية خامدة خافتة بعـــد حيوية واشراق. مضطربة حائرة بعد أمنواستقرار. فراح يبحث عن الداء يتعرف اليه ويصفه ، متطلبا من اجل ذلك العلاج . مريدا من سعيه المجهد وعمله الشاق المضنى ان يضطلع برسالته فى الرجـوع بالاسلام والمسلمين الى عزتهم وما سلف من ايامهم الزاهرة . فهو لذلك داع مصلح ومكافح مجاهد .

ولا اقف عند الفئة الاولى فانها تمثل شنشنة قديمة ووضعا ولى وانقضى بما فيه . وهى بمـــا عليه أو بالاحرى بما كانت عليه من سلبية لا تعنينا كثيرا فى هذا الحديث الا من حيث التسجيل لوجودها تسجيلا تشهد به كثير من الاقطـــار الاسلامية فى الفترات الزمانية الممتدة خاصة فيما بين انتصاب الانظمة والاوضاع الاستعمارية جائمة على صـــدر الاسلام وبـــين الانتفاضات المباركة والتحركات المقدسة التحريرية التى اعادت للبلاد العربية والاسلامية عزتها وارجعت لها سيادتها . فخرجت من محنــة الاستعمار وذل الاحتلال الى نعمة الكرامة وشرف الحرية تنشد الغد الافضل والمستقبل الاكرم الذى يقيها الاخطار ويمنعهـا ان تعود الى ما كانت عليه من قسر واسر .

ولا اقف عند الفئة الثانية الا بمقدار تصحيح اوضاع واسداء نصيحة . وهى فى نظرنا خير من الفئة السابقة وشر منها .

هى خير من الفئة السابقة لانها لم تكن قعدية . أسهمت فى النضـــال التحريرى . وشاركت فى تخليص العالم الاسلامى مما كان عليه وفيه من ويلات ومصائب ، وآمنت بعزها البعيد المـاضى واسفت على فراقه . ثم انطلقت فى حاضرها تنشد مجدا وتطلب عزا . فهم فئة متحركة يقظة . تكد وتعمل من اجل تحويل الوضع بما فيه وتغيـير الواقع بكل ما لديها من وسائل .

وهى شر من الفئـة الاولى لكونهـــا خضعت للتوجيهات المغرضة الهدامة التى قام بها الحكـم الاجنبى فى ديار الاسلام ، فانطلى عليها ما كانت تسمع اليه وتشاهده من اوضاع كلها كيد للدين وتغيير لحقيقته ونيل من جوهره وابطال لاثره .
كانت تستمع الى مقـــالات المبشرين وثلة من المستشرقين وزعماء وطغاة المستعمرين يقولون : ان الدين الاسلامى هو الذى قضى على اهله بالتأخر والتخلف . فهو يأخذ المسلمين بالامتثال والخضوع لاوامره ونواهيه التى لم تعد مواكبة للمجتمعات الانسانية فى عصرنا الحاضر . فاذا بذلك الدين

يصرفها الى العبادة ، ويحملها على الاتصاف بالقناعة والرضا بالمكتوب ، ويحذرها من المغامرة ، ويقعد بها عن الاخذ بوسائل التقدم التى اصبحت ضربة لازب فى المجتمعات الحضرية اليوم .

وانطلت هذه المزاعم على فئتنا المحفزة المتحركة الحائرة الضالة لا سيما وقد رأت من واقع الاشياء فى الحياة العملية ما لا يستقيم الامر معه الا باحد ثلاثة : بنبذ الدين الذى لم يعد صالحا فى نظرها لحكم الحياة العملية وتوجيهها والهيمنة عليها ، أو بفهمه فهما آخر غير الفهم الذى عكفت عليه القرون السابقة فتقدم على تغييره وتبديله ، أو بالاصداع بما لا حيدة عنه من وجـود التفريق بين الدين والدنيا . وهذا كما قال شيخنا المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور يصف هذه الجماعة :

« بقى المسلم وفيا لعقيدته الدينية ، غيـورا عليها من جهة ، متقبلا لحياته العملية مطمئنا الى واقعها من جهة أخرى ، حتى اصبح المبدأ النظرى والواقع العملى عنده متباينين . فسقطت فى نفسه منزلة الحياة العملية التى يحياها باعتبار أنهـا مباينة لدينه الكريم ، فتلقاها تلقى المستهتر يعرف الشر ويعيش به ، فهانت نفسه ايضا فى نظـره لانها تعيش اسيرة لحياة الشر لا تستطيع أن تغيره ولا ان تتنحى عنـه ، وتولدت عن ذلك العقيدة النفسية الخطيرة عقيدة الشعور بالنقص الذاتى ، وعقيدة الياس من استقامة الحياة الدينية ، وعقيدة الالف لحياة الشر مع موت الوازع الذى يصد عنها . وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا باعتبار ان الدين خير واقع ، والدنيا شر واقع ، وان العبد المسلم يحمل بين جنبيه دينا لا يؤثر فيه الا لماما ، ويعيش فى دنيا لا يعرف فيها الاكل ما يبعد به عن الدين . فاصبح الذى كان يصدر عن ارادته القوية ، صـادرا عن ياسه من الدين الذى اضعفه وافناه . ثم هجمت عليه فى حياتـه العملية مدنيات اجنبية عنه ، فيها العلم وفيها الصناعة ، وفيها القوة وفيها الحكمة . فلم يجد من ارادته الدينية ما يتناول " هذه المدنية كما تناول المدنيات التى احتك بها من قبل يوم كانت ارادته الدينية قوية سليمة . فوقف امامها جامدا واعتبرها من جملة صـور الحيـاة التى كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين » .

تلك هى الفئة الثانيـة التى احببنا ان نقف عندها وهى بانواعها ومواقفها الثلاثة ، تلك التى تندرج فى معظم مجتمعاتنا الحاضرة . وهى التى بحكم هذه الملابسات المختلفة تدفع الناس من حين لآخر وفى كل صقع من اصقاع البلاد الاسلامية بدافع الحيرة والقلق وارادة الوصول الى الحل الناجع الى التساؤل أو وضـع اسئلة متعـــددة مختلفة متقاربة تريد الاستفسار من ورائها عن الاسلام ومقتضيات النهضة الحديثة ، وعن مفهـوم الدين الاسلامى ، وعن مفهوم النهضة الحديثة وعما يوفره الاسلام من سلاح أو طرق للانتصار فى طريق النهضة والتقدم .

وهى مشاكل لعمرى لا يمكن ان تعالج أو تجد الحل الا عن طريق الفئة الثالثة المتالفة من ذلك النمط الوسط المتفجج المتفكر لانه لم يكن قعـديا كالفئـــة الاولى وان اشبهها فى تعلقـــه بالدين وبالحضارة الاسلامية ، ولم يكن متمزقا ولا نابذا أو هداما احيانا كالفئة الثانية وان ماثلها فى الحيرة والتساؤل والجد والحماس . وهو بحـــكم جمعه بـين الخيرين : التمسك بالقيم الروحيـة الدينية والحضرية الاسلامية ، والعمل على استرجاع العزة وتحقيق النهضة والتطور ، وبحكم مباعدته ونبذه للشرين القعدية والثورة على الماضى بما فيه ، والتنكر لاصول المدنية الاسلامية ، يقدر بدون شك على بعث الامجاد القومية فى العالم الاسلامى وجعله فى هذا الظرف العصيب مواكبا للنهضة ، قادرا عليها ، متطورا معها تطورا يكتب له التقـدم ، ويعيد به وله من بهجة الاسلام ما سلب .

صدر عن هذا الفريق الثالث من الناس أو كما سميناه النمط والفئة الثالثة التى تحتل من المثلث قمته فى الزاوية العليا الوسطى ـ عن اصل لامراء فيه ولا جدال ، لا يقبل الطعن ، يستخف ويزار بالمقالات المغرضة والدعاوى والافتراءات الباطلة الفاتنة ، حسبما أكدت ذلك الدراسات والانظار والبحوث القديمة والحديثة الاسلامية والغربية على السواء . وذلك الاصل هو سلامة الدين وبراءته مما الصق به ، واحتفاظه دائما بالطاقات والقوى التى يمكن أن تأتى بكل عجيب ويتفجر منها من الحياة ومظاهر الرقى والتقدم ما قامت عليه الدلائل فى الماضى . وليس بمستبعد أن يحصل مثله فى الحاضر أو الآتى القريب .

وهذا النمط من الناس ظهر فى كل فترة من فترات التاريخ الاسلامى ، ابتداء مع الصحابة واستمر مضطلعا بالامانة ، متحملا لرسالته الى هذا العصر . وهو من النمط الثانى واقف موقف الرقيب والموجه فى كل طور . فكلما حلت بالمسلمين كارثة أو ظهرت فى جماعتهم فتنة تصرفهم عن الجادة وتعرضهم للاخطاء الفادحة والاخطار الماحقة ارتفع صوته مدويا بالاصلاح ، مناديا بالعلاج على اساس ما يدركه فى كل مرة من اوضاع دوله انها سبب الداء واصل الانحراف وموجب الخطر والعذاب .

واتسمت الحركة الاصلاحية الاولى بالفردية المطلقة حين استشعر الفرد ما يحيط به من مغريات الدنيا ومباهج الحياة التى قطعت لدى الكثيرين الصلات فيما بين العبد وخالقه ، والانسان وربه . فكانت المتصوفة المحاربة لمسالك الغواية وسبل الضلال ، وكان حرصها على اصلاح الفرد دافعا بها الى توضيح المناهج الربانية ولفت الانظار الى ما اصطلح عليه عدد كبير منها بالمعرفة والطريق الى الله .

وتلاشت العلوم الاسلامية حين نظر الناس الى اشكالها القائمة مسرفين فى ذلك غير منتفعين بما تدعو اليه من حقائق وما وضعت من اجله من معارف ، فكانت صيحة الامام حجة الاسلام ابى حامد الغزالى الذى اسرع الى وضع كتابه احياء العلوم مريدا بذلك احياء الفكر وبعث الحقائق العلمية الدينية بالتنبيه على المنجيات والتحذير من المهلكات .

ثم جاء العالمان الجليلان والمصلحان الشهيران ابو بكر الطرطوشى وابو اسحاق الشاطبى ، فخالفا الاتجاهين الاول والثانى ، واعتبرا ان الادواء المهددة للجماعة الاسلامية مستقرة فى السلوك الجماعى لا فى الوضع الفردى . ومن ثم اتسعت دعوتهما ولم تقصر على الفرد تصلحه أو تنبهه وتحذره ، ولكنها تولت السلوك الجماعى للامة الاسلامية بالنقد منددة بما اقبلت عليه هذه من بدع ، وفرطت فيه من احكام . فدعوا الى مقاومة البدع والاعتصام بالشريعة وتطبيق احكامها وأخذ الناس كافة بالقسطاس العدل وما تستوجبه النصوص .

وفى نهاية القرن السابع وفجر القرن الثامن ظهر بالمشرق علم فذ ورائد اصلاح مبرز هو شيخ الاسلام تقى الدين ابو العباس احمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرانى . فاذا هو يتجه فى دعوته الاصلاحية كالاخيرين ايضا الى السلوك الجماعى ، ولكن من حيث اتصاله بالعقيدة وارتباطه بها . فنعى على الناس البدع ايضا ، ودعاهم دعوة صريحة حازمة الى اتباع مناهج السلفية والاقبال على ما جاءت به التعاليم الاسلامية البسيطة السمحة المشرقة . وقد كان لاثر دعوة هذا الامام صدى بعيد فى النفوس عرفنا من آثاره الثورة الوهابية التى تزعمها فى العصر الحديث رائدها محمد بن عبدالوهاب .

وفترت فيما بين هذا وذاك الحركة الاصلاحية تمثل الاجيال المتلاحقة فيها ارجاع نداءات العاملين

الاولين وآراء الدعاة المتقدمين السابقين الى ان كان العصر الحاضر بما يتطلبه من قوى وطاقات للخروج بالعالم الاسلامى مما هيمن عليه بل غرق فيه من فتن واحن وتأخر وانقسام وجهل وجمود .

وتكونت جمعية العروة الوثقى وجاء السيد جمال الدين الافغانى الذى صدع بما يناسب عصره هو ايضا من آراء فاتجه بدعوته لا الى اصلاح الفرد ولا الى محاربة البدع ولكن الى تدارك الكيان السياسى للامة والبحث عن وسائل تطبيقية . والخروج به من محنته والبلوغ به الى ساحل النجاة كى يبل من مرضه وتعود الى الجماعة الاسلامية عزتها المفقودة وسيادتها المصلوبة . وقد جعل شعار دعوته الصدوف أولا عما تميزت به الفئة الاولى التى اشرنا اليها فى طالع حديثنا من الاعتداد بماضى الاسلام والمفاخرة بامجاده مع الرضى بالدون والقعود عن العمل . ولوح اليه ثانيا فى الاشارات البيانية ونداءات الفزع التى استصرخ بها ضمير الامة كى تهب من سباتها مرددا من أجل توكيد ذلك قوله تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » .

وتلقى من يده باليمين مشعل الاصلاح ولواء الدعوة اخص تلاميذه واقربهم اليه الاستاذ الامام محمد عبده . فكان ـ رحمه الله ـ فى دروسه ومحاضراته وخطبه ومقالاته ومواقفه ومجادلاته يركز العقيدة الدينية ويذود عن الاسلام بقدر ما يشرح للناس واجباتهم ويهيب بهم للاخذ بقسطهم فى الكفاح التحريرى جاعلا من الفوارق القائمة بينهم وبين غيرهم من الامم الحجة للدين على الجماعة الاسلامية بسبب جمودها لا للجماعات الاسلامية على الدين لكمال قدرته وصفاء روحه .

وتلا هذين الامامين والمصلحين الشهيرين زعيم سياسى اشتهر بدفاعه عن الاسلام وذوده عن انظمته وقوانينه . حاول هو ايضا ان يتعرف على الداء الذى نخر كيان الامة واتلف قواها فلم يرده الى ظهور البدع . ولا الى تغير الاوضاع مجملا غامضا . ولا الى الجمود الذى تحدث عنه الشيخ محمد عبده فى رسائله ، ولكنه اراد ان ينفذ الى الاعماق بشخصه ويتولى بعد ذلك وصف علاجه فوضع من اجل ذلك كتابه « لم تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » .

وهذا الرجل هو فقيد العروبة والاسلام المغفور له شكيب ارسلان امير البيان . تشهد مقالاته وكتبه وندواته وتعاليقه الثرة القيمة على حاضر العالم الاسلامى للكاتب الامريكى ستوارد بما كان له من فضل وما بذل من جهود فى سبيل الاصلاح . وتخليص المجتمع الاسلامى مما يتخبط فيه ويعانيه ، غير ان هذا الزعيم المصلح فكك بين الدين والمدنية وهو ينظر الى المجتمعات اليونانية والرومانية وأحوالها قبل التنصر وبعده حتى اذا عاد يتحدث عن الامة الاسلامية نقض الاصل الذى بنى عليه من التفكك بين الجانبين ورجع الى الربط بين الدين والمدنية . فلم يصل بذلك الى محل الداء ورجع الى العموميات والى ما ردده المصلحون من قبل من « ان سقوط المسلمين كان بسبب ما صنعه المسلمون بايديهم وما حادوا به عن النهج السوى الذى اوضحه له دينهم وقرآنهم » .

وتنتهى هذه المرحلة التى كافحت فيها الشعوب الاسلامية وتظهر ثمرات الاصلاح المختلفة التى اجتمع عليها رجال العروة الوثقى ومن لاذ باصولها واعتمد مناهجها فى الدعوة كالامير شكيب . فيخرج العالم الاسلامى دولة دولة واقليما اقليما من وضع الاحتلال والتبعية الى حال الاستقلال والحرية . ويعود المسلمون جميعا بعد ذلك فى سائر الانحاء والاقطار الى الاسئلة التى تعودناها يبحثون عن طريق النهضة وسبيل التطور راجعين بانفسهم الى موقف الاسلام من ذلك كله ورأيه فيه .

وفى الرجوع الى القاء هذه الاسئلة على انفسنا لا نكون فى حاجة الى التذكير بما قلناه اولا ووصفنا

به العالم الاسلامي في ايام عزته وشبابه ، ولكننا ننطلق منه الى بحث ما يمكن ان تذلل به الصعاب لبحث الامجاد الاسلامية ودفع هذه الامة التي تعتز وتتشرف بالانتساب اليهـا الى تحقيق اليقظـة الشاملة بمواكبة العصر أولا ، ثم بالسير على منوال اسلافنا الاماجد في نشر اصول الحضارة الاسلامية الانسانية بما يكفل للمجتمعات في هذه المعمورة أمنا واستقرارا ، ورخاء وسلما .

وهاتان الغايتان الجليلتان ابعدهما وأيسرهما ، وادناهما واخصهما لا يردنا عن بلوغها راد ، ولا يحول دون الوصول اليها مانع ، مهما كان توعه أو شكله ، اذ الاسلام عزم وقوة ومدد للخيرات ومتفجر للقوى الغريبة والطاقات العجيبة .

وهذان الهدفان يتعلق احدهما بالامة الاسلامية خاصة لتحقيق النهضة وسبل الرقي والتطور ، فتخرج مجتمعاتنـا من التخلف وتواكب الامـم الناهضة المتقدمة في مجالات السيادة ومظـاهر التمدن والحضارة . ويتعلق ثانيهما بما على هذه الامـة من واجبات ازاء الانسانية كلهـا حيث استخلفها الله في الارض واصطفاها وجعلها خير امة اخرجت للناس ، ونسخ بشريعتها ودينها كل الشرائع والاديان من قبل اذ لم تقف مفاهيم الدين فيها عند العبادات والطقوس الدينية كما كانت الاديان سابقا ولكنها تجاوزت ذلك عندها الى ما دعا له الاسلام من أنظمة وأوضاع ، واقامه من اصول وقواعد لبناء المجتمعات السليمة وتحقيق التكافل الاجتماعي والنهوض بالانسـان والحفاظ على كرامته وتنظيم ثرواته وتنمية مكاسبه بمـا لم نلمس له مثيلا في أي دعوة من الدعوات الاخرى دينية كانت أو غير دينية .

وهي متى توصلت الى الاضطلاع بهذه الامانة وحققت للعالمين هذه الغاية قضت على المنافسات ، وأطاحت بكثير من المبادىء الهدامة ، وخلصت الدنيا من ويـلات الانتهازية ومظـاهر التحـكم والاستبداد ، ونشرت في الكون معاني الفضيلة والخير بما يكون قد ساد العالم بظهور دعوتهـا من هيمنة الخير على الشر وسلطان الحق على الباطل وقيام العدل على الجور والظلم . وليس هذا بدعا من الامر وقد « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض » .

تلك هي الاهداف التي عمل من أجلها الاسلام ' حققها واضحة رائعة بارزة ملموسة ، واذا تخلفت اليوم وعادت الحال بالمسلمين الى نقيض ما كانوا يسعون الى تحقيقه داخل مجتمعاتهم وخارجهـا فذلك سببه ذهاب الروح الاسلامي منهم ، وفقدان العامل التربوي الاسلامي الذي نبتهج بمثل هذه اللقاءات العاملة على احيائه واذكائه والذي نحرص في هذا البلد وفي غيره من البلاد الاسلامية على العناية به وتقويته للاستفادة منه والاعتماد عليه في بناء المجتمع الافضل .

قال الاستاذ الامام الراحل شيخنا محمد الفاضل ابن عاشور ، قدس الله روحه ، في الدراسة التي عنون لها بروح الحضـارة الاسلامية متحدثا عن الروح الاسلامي الديني وعن هذا العامل التربوي وأثره :

« فاذا كان الناس اليوم يحنون الى عهـود ذهبية ازدهرت بها العواصم الاسلامية مثل دمشق وبغداد والقيروان وقرطبة وسمرقند ، ويتحرقون على احيائها وتجديدها ، فاجدر بهم ان يعودوا الى العامل الاصلي الذي ولد تلك العصور الذهبية ، والذي بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعها الا وهو العامل التربوي الاسلامي .... فهو الذي كون الفرد عقلا ونفسا،وخلقا وسلوكا،وهو العامل الاصلي الذي ولد الحضارة وكون المجتمع الامثل ، ومهد للثقافة طريقها الى ان تتناول عناصر المعرفة وتؤلف كيانها ، فقامت الحضارة الاسلامية على ذلك المجتمع المتلائم ، وبرزت الثقافة بازهارها اليانعة من بلور تلك العناصر المتلاحقة » .

فتـــــاوى :

فتـــوى فى أوجـه خاصـة بالحـالـة العـائليـة للمهـاجـرين الجـزائريـين

بمناسبة الاجتماع الذى عقد بسفارتنا بباريس يوم 12 ذى القعدة 1390 هـ الموافق 9 جانفى 1971م تحت رئاسة السيد أحمد قائد عضو مجلـس الثورة ومسؤول جهاز الحزب ، وبحضور السادة : مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ومحمد بجاوى سفير الجزائر فى باريس ، وعبد الكريم غريب رئيس ودادية الجزائريين بأوروبا ، طرح مندوبو الودادية والقناصل الجزائريون فى أوروبا مشكل الحالة العائلية للمهاجرين الجزائريين

وعبروا بالحاح عن رغبتهم فى ايجاد حل شرعى لمشكلة الانكحة التى وقعت خارج القطر الجزائرى والاولاد الناتجين عنها . فقد ولد العدد العـديد من الاولاد فى الهجرة ، من آباء جزائريين وأمهات جزائريات وغيرهن من المسلمات والكتابيات ، فى حالات خاصة . نظرا للظروف الصعبة التى كان يعانيها مواطنونا فى الخارج . بأنكحة لم تستوف بعض الشروط اللازمة شرعا .

وعند نهاية الاجتماع كلفت وزارة التعليـم الاصلى والشؤون الدينية بدراسة الجانب الدينى لهذه المشكلة وايجاد حل شامل ونهائى لهـا . بمشاركة وزارة العدل .

فتكونت لجنة ترأسها وزير التعليم الاصـلى والشؤون الدينية . لدراسة مختلف جوانب هذه القضية ، واقتراح الحلول المناسبة .

وكانت اللجنة مؤلفة من موظفين بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وأعضاء من المجلس الاسلامى الاعلى ، ومحامين ، وفقهاء ، وأساتـذة ذوى الاختصاص فى الشريعة الاسلامية . ومـن بينهم موظف بوزارة العدل . كان يشغل سابقـا منصب نيابة ادارة الشؤون الدينية .

وبعد دراسة الموضوع من كل نواحيـه . فى جلسات عديدة . وبعد الرجوع الى مصادر التشريع الاسلامى ، وحفاظا على مصلحة الامة خاصة ، بما فيها أبناؤنا المغتربون . وهم جزء منها لا يتجزأ . واعتبارا للخطر الذى يهدد الاطفال الناتجين عـن هذه الانكحة فى حالة ما لم يلحق نسبهم بآبائهم شرعا . رأت اللجنة اصدار الفتوى الآتية :

من المعروف أن الرأى الراجح عند أغلـب المذاهب الاسـلامية . وفى المذهب المـالكى بالخصوص . وهو المذهب المعتمد فى الجزائر . وفى المغرب ، وفى عدد من البلاد الاسلامية يقضى بألا نكاح الا بولى وصداق وشاهدى عدل .

الا ان اللجنة ، عملا بمبـادىء التشـريع فى الاسلام ، واعتبارا للواقع . لجأت لحل هـــذه

المشكلة نهائيا ، الى آراء بعض الفقهاء الكبار ، وان كانت ضعيفة . فصنفت حالة المغتربين كما يلي :

1) **الانكحة التي فيها شبهة** ، كانعدام الشاهدين ، أو عدم تسمية المهر ، أو انعدام الولي ، تفتي اللجنة بصحة هذه الانكحة ، وباثبات نسب الاولاد الذين نتجوا عنها ، عملا بما جاء في الفقه الاسلامي ، فقد روى عن أحمد ابن حنبل أحد الائمة الاربعة ، أن الزواج يصح من غير شهود ، وفعله ابن عمر ، والحسن بن علي، وابن الزبير ، وسالم وحمزة ابنا بن عمر . وقد قال به كثير من الائمة ، منهم يزيد بن هارون ، والعنبري ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، بل ان ابن المنذر لا يثبت في الشاهدين في النكاح خبرا . وكذلك فان النكاح بغير ولي فيه خلاف في الحد . لان الحد يدرأ بالشبهات . فاذا ثبت هذا فان من اعتقد صحة النكاح بدون ولي فليس عليه اثم . قال ابن المنذر : اجمع كل من نحفظ عنه من علماء الامصار على ان الرجل اذا وطيء امرأة بنكاح فاسد ، انها تحرم على ابيه وابنه واجداده وولد ولده . وهذا مذهب مالك والاوزاعي والثوري والشافعي واحمد واسحاق وابي ثور واصحاب الرأي . ولانه وطء يلحق به النسب : «عن كتاب المغنى لابن قدامة الحنبلي » (كتاب النكاح) .

2) **المعاشرة :**

أ ـ بدون اولاد : في هذه الحالة تفتي اللجنة بوجوب الاستبراء بحيضة واحدة ثم يجدد عقد الزواج على أصول الشرع الاسلامي .

ب ـ المعاشرة مع وجود أولاد : بعد الرجوع الى المصادر الفقهية المعتمدة **رأت** اللجنة استنادا الى آراء كثير من العلماء ، منهم أبو حنيفة أحد الائمة الاربعة ، واسحاق بن رهويه ، وعروة بن الزبير ، وهو من التابعين ، وسليمان بن يسار وهو كذلك من التابعين ، **الحاق هؤلاء الاطفال بآبائهم وتصحيح عقد الزواج** .

قال ابن قدامة (في كتاب المغني ، كتاب الفرائض) في فصل وحكم ميراث ولد الزنا في جميع ما ذكرنا كحكم ولد الملاعنة ، والجمهور على التسوية بينهما لانقطاع نسب كل واحد منهما بأبيه ، الا أن ولد الملاعنة يلحق الملاعن ، اذا استلحقه . وخلاف قول الجمهور فان ولد الزنا يلحق بأبيه ، قال الحسن وابن سيرين من مشائخ التابعين : يلحق الواطيء اذا أقيم عليه الحد ويرثه ، وقال ابراهيم : يلحقه اذا جلد الحد ، وقال اسحاق بن رهويه يلحقه ، أي ولو لم يقم عليه الحد .

وذكر عن عروة وسليمان بن يسار مثل ذلك . وروى علي بن عاصم عن أبي حنيفة أنه قال لا أرى بأسا اذا زنا الرجل بالمرأة فحملت منه أن يتزوجها مع حملها ويستر عليها والولد ولد له .

ملاحظات عامة

1) ان النص المعتمد لهذه الفتوى هو النص الاصلي العربي .

2) ان هذه الفتوى لا يمكن **بحال من الاحوال** ان تجعل ذريعة للتمسك بهذه الاوضاع والتمادي فيها . وانما هي فتوى أعدت لظروف خاصة ، ولحل مشكلة معينة ، ولفترة زمانية محدودة ، اذ استند فيها على آراء ضعيفة في الفقه الاسلامي .

3) يجب القيام بحملة توعية في أوساط مهاجرينا ، وخاصة في أوروبا ، تهدف الى افهامهم قواعد الشرع الاسلامي في مثل هذه العقود .

4) يتعين التأكيد على ضرورة اصدار تعليمات دقيقة ومشددة لكي لا تعقد الانكحة في المستقبل الا وفقا للشريعة الاسلامية ، ولدى هيئاتنا الديبلوماسية والقنصلية ، مثلما تفعل أغلب البلاد الاسلامية ـ ومنها المغرب ـ بالنسبة لمواطنيها .

كتاب الأصالة

الثورة العالمية ومستقبل الغرب

تأليف : فريد مان

تقديم : د. محمد العربي ولد خليفة

يعتبر هذا الكتاب على صغر حجمه من اهم الدراسات - فى الفلسفة السياسية - التى ظهرت فى اوائل الستينات من هذا القرن يكشف مؤلفه - و. فريد مان - عن علم غزير بالمذاهب الفلسفية والتيارات السياسية ، التى لاحت بوادرها فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، وهو يستهدف من وراء هذا البحث القيام بعملية فحص للذات وتقويم لما تعطى وتتلقى ، وهو يرى أنه لكى تتم هذه العملية ينبغى ان يتحلى الدارس بالصدق والشجاعة على مواجهة معطيات الحضارة الغربية وتحليلها بدقة بدون خوف او تردد . وتنبنى خطة التحليل والمناقشة التى انتهجها المؤلف على ثلاثة مبادىء اساسية :

١ ـ تناول الموضوع بطرق ومناهج متعددة لا تركن الى التحليل المادى ولا ترى فى المثالية منفذا وحيدا للتفسير . « فان الآراء والمعتقدات والبيئة الاجتماعية والظروف الاقتصادية تبحث كلها على أعتبار أنها ناشئة فى تفاعلها بعضها مع البعض الآخر فى فترة معينة بدون ان يكون لاى من هذه العناصر أسبقية زمنية أو منطقية » .

٢ ـ لا يمكن الحكم من الناحية العلمية على أن أسلوبا من أساليب الحياة السياسية أو الاجتماعية صحيح تماما .

٣ ـ ان التقدم ليس عملية آلية أو محتومة فبين التقدم والتدهور خيط رفيع يمكن أن ينفصم ، ولا يضمن أتصال هذا الخيط سوى ارادة التقدم وحدها .

لا يحدد المؤلف معالم الازمة التى تهدد المدنية الغربية فى صورتين تتمثل أولاهما فى الاضطراب المستمر فى العلاقات والقيم وهو اضطراب بلغ قمته فى فترة ما بين الحربين وما تلاها .

وتظهر ثانيتهما فى انتشار المذهب العدمى وتغلغله فى تلافيف الحياة الشخصية والاجتماعية للافراد والجماعات .

ثم ينتقل المؤلف الى تحديد ماهية المدنية الغربية متتبعا مسيرتها منذ العصور الهلينية باحثا عن بذورها « العالمية » فى الرواقية والتشريع الرومانى والنظام المسيحى والفردية فى عصر النهضة والمذهب العقلى فى القرنين ـ ١٧ ، ١٨ ـ وفى فكرة القومية والنزعة الرومانتيكية فى القرن ـ ١٩ ـ ، فعلى الرغم من التغيرات العنيفة التى طرأت على هذه الحضارة فانها تميزت بالقدرة على الاستمرار والتوازن لسببين : أولهما الاعتقاد بأن فى الانسان جوهر روحى يسمو به عن المادة الخاملة . وثانيهما ايمانها بأن الانسان جزء من الطبيعة ولا يختلف عنها ، الا بقدرته على التحكم فيها بالفكر والسيطرة عليها بالعمل .

وقد تحددت هذه العوامل أكثر فى مطلع هذا القرن وأصبح مدلول المدنية الغربية يعنى على الخصوص المبادىء الستة التالية :

١ ـ الاعتقاد بأن الكون يسوده نظام موضوعى ، لا تتدخل فيه الغريزة ولا تؤثر فيه الرغبات والاهواء ويرى و . فريدمان أن هذه الفكرة تمثل أتجاها عريقا فى المدنية الغربية فهى تنسب الى السفسطائيين اليونان وقد تجلت بدقة ووضوح فى الفكر الرواقى الذى يرى أن العقل جزء من الطبيعة ، ثم اندمجت على يد « توما الاكوينى » فى النظام الالهى للكون وعادت الى الانفصال من جديد على يد كل من جرينوس ، ولوك ، وباين وروسو .

٢ ـ الاعتقاد بمثل أنسانية وعالمية ، وهو أعتقاد لم ير النور فى سياسة الدولة اليونانية التى قسمت البشر الى طبقتين : سادة متفوقون بحكم الجنس وعبيد منحطون لانهم « برابرة » أو أجانب .

الا أن هذه المثل وجدت منفذا فى الفكر الرواقى المبنى على مبادىء القانون الطبيعى ، وقد تم تطبيق هذا الفكر على يد الاسكندر المقدونى ، ولكن هذا الفكر ما لبث أن أصطبغ فى العصور التالية بصبغة دينية لازمته طوال القرون الوسطى . وفى العصر الحديث سقطت الفكرة الدينية لتفسح المجال لنظريات متصارعة . حاول بثها رجال القانون وفلاسفة السياسة وضع مبادىء للقانون الوطنى والدولى تبرر تصرفات الجانب الذى ينتمون اليه ، فقد وجدت كل الحروب التى دارت رحاها فى القرون القليلة الماضية من يدافع عنها على أساس القانون الدولى !

3 ـ تبلور فكرة القومية : يرتبط نمو المدينة الغربية الحديثة بنمو مجموعات كبيرة ومنظمة من الناس يوحدها ولاء مشترك لحكومة مركزية ويعزز هذا الولاء عدة عوامل تأتي في مقدمتها اللغة والثقافة والجنس والجغرافيا والاحداث التاريخية التي عاشتها تلك المجموعات السكانية .

4 ـ الفردية : وهي من أهم خصائص المدنية الغربية وقد مهد لها رجال الاصلاح ودعمتها النهضة العلمية وقد اتخذت الفردية شكلين رئيسيين أحدهما أنغلو سكسوني عبر عنه كل من لوك وباين بوجه خاص وثانيهما فرنسي أوحى به ج . ج . روسو .

5 ـ الايمان بالتقدم : من أهم سمات المدنية الغربية ايمانها الجازم بالترقي في مظاهره العلمية والمادية (الثروة) والاخلاقية . فقد سجل العلم انتصارات باهرة في ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية ضاعفت من ثقة الانسان في التحكم في العالم الخارجي . وقد عبر بنثام عن ذلك في تعريفه للمثل الاعلى فهو في رأيه « تحقيق أعظم قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس عن طريق حرية الفرد في الابتكار والنشاط وخاصة في المجال الاقتصادي . كما جعل « كونت » العالم يتقدم في صورة مراحل يتولد بعضها من بعض . واستخدم « سبنسر » نظرية البقاء للاصلح الداروينية ليبرهن على ان النظام الاجتماعي يتقدم بسرعة تستدعي من الانسان تلاؤما وتكيفا يحفظ حياته ويقيه من الهلاك .

وبعد أن يقرر المؤلف أسس المدنية الغربية متتبعا جذورها منذ أن تجلت في « الفتنة » اليونانية . يلاحظ أن تلك الاسس تحمل بين جنبيها عوامل التوتر والتصارع وهي عوامل تجعل المفكر في حيرة وتوقف . ذلك لان القرن الحالي لا يشارك القرن التاسع عشر اعتقاده الراسخ بضرورة الترقي . فاننا نعلم بدون حاجة الى تقديم الدليل المتوفر على مصير المدنيات الاخرى أنه لا السعادة العظمى ولا المقاييس الاخلاقية قادرة على أن تخلص الناس أو الامم أو المدنيات من الدمار . فالقوة في الواقع لا تستطيع وحدها أن تقيم المدنيات ولكنها تستطيع بكل تأكيد أن تمحوها .

ويحدد فريدما ثلاثة مشاكل رئيسية تواجه المدنية الغربية ويتوقف عليها مصيرها :

1 ـ العلاقة بين المانيا والغرب فان أحداث التاريخ ووقائعه برهنت دائما على أن الالمان كانوا يتحدون المدنية الغربية في مذاهبها وأساليب حياتها وقد بلغ هذا التحدي ذروته في حربين عالميتين وضعتا المدنية الغربية قاب قوسين أو أدنى من الهلاك .

ويفسر الفيلسوف « سانتيانا » في كتابه الذائع الصيت (الاثرة في الفلسفة الالمانية ـ طبع سنة 1916 واعيد طبعه سنة 1936) . هذه الظاهرة بأن تاريخ الفلسفة الالمانية يتركز في تمجيد الذات ويبدو ذلك في درجات متفاوتة في فلسفات كل من ليبنتز وعوالمه الصغيرة التي لا تحصى وكانط في اتجاهه الكوبرنيكي الذي يربط فهم العالم بملكات العقل النافدة ونيتشه في فلسفته المثالية ثم هيغل في عمليته المنطقية التي يوجد فيها بين الفرد والكون . وكذلك نيتشه الذي جعل ارادة القوة محور كل تفكير وتعقل . وحتى « غوته » الرجل العالمي المؤمن بوحدة الوجود يجعل « فاوست » هو مثله الاعلى وهو مثل يتركز فيه القلق الديناميكي الذي يحصر فيه الفرد تفكيره في ذاته فحسب .

كما تميز الفكر الالماني بخاصية أخرى تبدو

معارضة للاولى وهى الاسراف فى الرومانتيكية الذى تولدت عنه نزعة قومية غامضة وعنيفة ، تتخذ صورة نظريات قضائية وسياسية لشكل الدولة ونظامها . بحيث يكون الفرد فيها مجرد ذرة صغيرة لا قيمة لها خارج الكل .

ومن خلال الاسراف فى المثالية والرومانتيكية يستخلص فريدمان مجموعة من الاتجاهات التى اتسم بها الفكر الالمانى :

أ ـ تكشف المقارنة بين فلسفات كل من كانط وفيشته وهيغل أن الفلسفة المثالية الالمانية ترى أن عقل الفرد وحده هو الذى يخلع على العالم معناه .

ب ـ تنزع الفلسفة الالمانية نزعة صوفية تمثلت بوجه خاص فى تعاليم لوثر وفى موسيقى فاغنر التى تجمع بين الغموض الرومانتيكي والعنف الذى يمجد الحرب .

ج ـ يعتبر التفكير الالمانى الامة والدولة نظامان عضويان لهما شخصية معنوية قائمة بذاتها وحياة متصلة ويتضح ذلك بوجه خاص عند الشعراء أمثال شيللر ، ونوفاليس وشبيغل ، والفلاسفة أمثال فيشته وشيلنغ وهيغل والمشرعين أمثال سافينى وجيرك والمؤرخين أمثال تريتشكه ورانكه.

د ـ فكرة الرسالة البروسية فى العالم وتعنى هذه الفكرة أن الامة الالمانية تحمل على عاتقها رسالة فهى الامة الوحيدة التى تتمثل فيها الظواهر الكونية للبشرية قاطبة وقد عبر نيتشه عن ذلك بقوة اذ يقول : « ان الالمانى هو الشخص الوحيد الذى له امة ، وهو الذى يمكن أن يتوقع أن تكون له امة وهو وحده الجدير بأن يحب أمته حبا حقيقيا معقولا . »

هـ ـ دأب الفكر الالمانى على احتقار الاتجاهات الانسانية والقانون الدولى نظريا وعمليا ويبدو ذلك واضحا فى آراء فريدريك البروسى وتلاوزويتز وهيغل الذى ارتأى أن الحرب هى الحكم والقول الفصل فيما نأتى ونذر ، هذا فضلا عن آراء شبنغلر وتلاميذ المدرسة الهيغلية أمثال كوفمان وشميدت وبندر ولارنو وبوكهوف ... الخ .

و ـ عبادة القوة وتمجيد الحرب واحتقار التوسط والتعلق بالبطولة وقد أكد شبنغلر هذه الاتجاهات فى كتابه عن تدهور الغرب .

وبالاضافة الى هذه الاتجاهات التى تعتبر فى نظر الكثيرين انحرافات أو مظاهر سبلية للمدنية الغربية فان الفكر الالمانى والاتجاه الرومانتيكى فيه ـ بوجه خاص ـ قد ساهم الى حد كبير فى تطور المدنية الغربية .

ولكى تنجو المدنية الغربية من تدمير نفسها بنفسها تدميرا لا تقوم لها قائمة بعده ينبغى فى رأى المؤلف أن تستعد لثورة جديدة تقوم على نسق جديد من القيم وأسلوب جديد من الحياة بدأت بعض بوادره تلوح فى الافق البعيد . ويعتمد هذا النسق الجديد على خمسة دعائم متماسكة ومتمالكة :

1 ـ توكيد حرية الانسان وحاجته الى النمو باعتباره فردا قائما بذاته .

2 ـ ضرورة ترجمة هذه الحرية بلغة العدالة الاجتماعية والاقتصادية اى استبدال نظام اقتصادى فردى لا ضابط له توجهه حوافز الكسب بنظام اقتصادى موجه .

3 ـ التوفيق بين السيادة القومية ووحدة الانسانية .

4 ـ اعادة التوازن بين التقدم المادى (فى العلم والثروة) وبين التقدم الروحى والادبى .

5 ـ التعاون بين فئات تتفق فى الوسائل والاهداف على الرغم من اختلافها عقائديا .

بعض الإنطباعات عن الملتقى الخامس
للتعرف على الفكر الإسلامي بوهران

كان للملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي صدى كبير في صحافة العالم العربي والاسلامي ، فبالاضافة الى التعاليق الضافية التي نوهت بالمواضيع التي درسها الملتقى وجرى في اطارها حوار ايجابي مثمر ، وبالجو الحار المتفتح ، وبالحماس المتعقل الهادىء الذي تميزت به المناقشات . بالاضافة الى كل ذلك ، نشرت أغلب صحف ومجلات العالم العربي والاسلامي ـ وخاصة صحف حزب الاستقلال بالمغرب الشقيق ـ نصوص التوصيات التي صادق عليها الملتقى .

وهذه عينة عن بعض هذه الانطباعات :

كان الملتقى عربيا وساده جو من الحرية الكاملة

ساد الملتقى جو مفعم بالمودة والحيوية وهـــذا ليس بالغريب فهو ملتقى اسلامى يتعلق بالمبادىء والسلوك .

وبالفعل فقد منعت ولاية وهران المقاهى طـول مدة انعقاد المؤتمر من بيع الكحول ، وبعد نجاح هذا المنع فان الحكومة تفكر فى تمديد مدة المنـــع شيئا فشيئا حتى يصبح دائما معمولا به وقـــد اوردت الحكومة عند تقديم هذه المشاريع ، النصوص الدينية المتعلقـــة بذلك ، وذكرت انهـــا سوف تستشير مجلس الافتــاء التــابع لوزارة التعليم الاصــلى والشؤون الدينيـــة فى الاجـراءات التى تتخذها .

وكان هذا هو ما فعلته بالنسبة لقضية تحديد النسل عندما صرح العلماء انها محرمة من الناحية المبدئية غير ان هناك حالات شخصية يجب مراعاتها وشروطا يجب توفرها وخاصة فى قضية العــزل (عملية منــع الحيوان المنوى من الوصـــول الى الرحم) حيث يجب اتفـــاق الزوجين على ذلك وعدم استعمال بعض المواد .... الخ .

اذ نظرا لهذه الفتوى ولاعتبارات اجتماعيـــة أخرى قررت الحكومة التريث فى اصـــدار قانون تنظيم الاسرة بشكله النهائى .

وكذلك عندما صرح الوزراء بانــه سيتم قلع اشجار الكروم قالوا ان الجزائر بلد اسلامى يجب ان لا ينتج الخمر ويصدره .

واكثر من ذلك فان وزير العدل عندما تكلم على مبدأ التبنى قال : انه بعد استشارة العلمـاء تبين انه مبدأ مخالف للقرآن لهذا تركت عمليـة التبنى جانبا واعتمد ما جاء فى « المدونة » المغربية بخصوص احلال طفل محل الابن فى حدود الاشهاد الشرعى .

وبخصوص الاصلاح الزراعى وقيام التعاونيات هناك اشارة دائما للبادىء الدينية واختيار مذهب من المذاهب الاربعة غير ان المهم فى كل هذا ليس اختيارا أو عدمــه بل اعتماد مبدأ الرجـــوع الى النصوص الدينية ومصادر القانون الاسلامى وهو ما يؤكد العزم على تطبيق الاشتراكية الجزائرية فى نطاق الدين وبموافقة الشعب الجزائرى باكمله .

لقد كان هذا الملتقى ملتقى عربيا ايضا فالجميع تكلم عن مبدأ العروبة والوحدة العربية والمحاضرات والمناقشات جرت بالعربية ، ولئن القيت فى بعض الاحيان كلمات بالفرنسية فان ذلك اثار احتجاج الطلبة العنيف والمطـالب بالتـكلم بالعربية لان الجزائر بلد عربى مما اضطر المحاضرين الى التكلم بالدارجة أو بالعربية المبسطة .

ولعمرى انها لفرحة كبرى ان ترى الاشخاص الذين منعهم الاستعمار اثناء دراستهم من تعلم العربية يبذلون مجهودا جبارا لادراك ما فاتهم ، ويتحدثون للامة العربية بلغتها .

ولا ابالغ اذا قلت ان هذه العربية البسيطة التى تحترم قواعد النحو كان التعبير بها أحسن . لانها جاءت ثمرة لمجهـــود داخلى يستقى من العربيـــة الاصيلة الصافية .

والمشكلة كما قال قائد أحمد : ليست امكانية لغة ما من مواجهة التطور أو عدم امكانياتها بل مشكلة قدرة الانسان على التعبير عما يفكر بلغته .

وهناك ظاهرة أخرى هى ان الجزائر التى تطبق الاشتراكية لا تخرج عن نطاق مفاهيمها العربية الاسلامية ، فلم اسمع أى محـاضر أو منـاقش يستعمل المفاهيم الماركسية بل العبارات كانت ذات مفهوم عربى ولو عند الكلام عن الاشتراكية أو الاصطلاحات المختلفـة . لان الجزائريين يريـدون الاستفادة من مدنية الغرب باخذ الاشتراكيـــة ولكنهم يدركون فى نفس الوقت ان المهم هـــو المحتوى وليست المظاهر . فنعم للاشتراكية ولكن على اساس المبادىء الاسلامية وبالعبارات القرآنيه وبهذا تندمج الاشتراكية فى حياة الشعب الجزائرى وتكون اشتراكيته اسلامية عربية مغربية .

والمظهر الثالث للملتقى هو الحرية الكاملة التى تركت للمشاركين فى التعبير عن افكارهم ، كما كان المحاضرون صرحاء عند الادلاء بآرائهمولو عند الحديث عن النظام الرسمى للجزائر أو الاشتراكية وتطبيقها .

علال الفاسى

مترجم عن جريدة « لوبينيون » المغربية .

يبدو لى أن هذا الملتقى قد أحرز تقدما حقيقيا بالقياس الى الملتقى الرابع الذى انعقد فى العام الماضى بمدينة قسنطينة . وقد تجلى هذا التقـدم فى عدة أمـور :

الاول ، هو الاهتمام الكبير من جانب المسؤولين فى الجمهورية الجزائرية ومن جانب الهيئـات والافراد : فقد افتتح الملتقى بخطابين هامـين . أحدهما خطاب السيـد وزير التعليم الاصـلى والشؤون الدينية ، بين فيه المبادىء والاهـداف والحاجة الى العمل على تحقيقها وتطبيقهـا فـى مجتمع اليوم . وثانيها خطاب وزير الاعـلام والثقافة،وفيه دعا الشبيبة الصاعدة الى الاستمساك بعرى الاسلام فى مواجهة تحديات العصر . كما أن ثلاثة من الوزراء قد حرصوا على أن يتحـدثوا الى أعضاء الملتقى عن نتائج تجاربهم فى وجـوه الاصلاح فى مختلف المرافق العامة للبلاد من تعليم وتشريع وصناعة وزراعة واقتصاد .

والثانى ، هو التركيز على القضايا الثلاث الكبرى التى تشغل بال الشعوب الاسلامية الناهضـة فى العالم الحاضر . واستبعاد قضايا أخـرى فرعية قد يكون من شأنها اثارة الخلاف بـين الاشقاء ، وهم أحوج ما يكونون الى الائتلاف .

والثالث ، هو المكان المرموق الذى ظفـرت به اللغة العربية فيما ألقى من محاضرات وما أثير من مناقشات عن اللغة والثورة الثقافية . وممـا يلفت النظـر فى هذا الملتـقى حرص جميـع المسؤولين على أن تكون العربية لغة المحاضـرات والتعقيبات والمناقشات . وأحسب انهم قد أصابوا فى هذه المحاولة نجاحا موفورا ، هو ثمـرة للجهود الدائبة المحمودة التى بذلت فى هـذا السبيل . وقد أثبتت هذه التجربة الواعية أن الوحدة اللغوية القائمة فى المجتمع العـربى هى وحدة حقيقية حية لا نظير لها فى العالم المعاصر . وما على أبناء العربية الا أن ينموها وأن يزكـوها على مستوى الافراد والجماعات ، وذلك باستغلال جميع الطاقات والامكانيات المتاحة اليوم ، مـن طباعة ونشر واعلام ، لكى يحققوا من أهداف الثورة الثقافية فى سنوات ما كان يعجز عنه أسـلافنا فى قـرون .

والرابع ، هو المحاولة الجادة للانتقـال مـن مرحلة النظر الى مرحلة العمل : فقد كانت الفكرة الغالبة لدى المنظمين لهذا الملتقى هى فـكـرة التغيير والثورة ، لا مجرد «التعرف» والوصف ، كما كان الشأن الغالب فى الملتقيات السابقـة . وقد كانت توصيات الملتقى ومقرراته معبرة عـن صدق العزيمة على مجاوزة الآراء والتـأملات ، والقصد مباشرة الى التحقيق والتنفيـذ ، مـع الحرص الدائب على الجمع بين المحافظة على التراث الاسلامى والتفتح الواعى على منجـزات العلـم ومسايرة ركب التقدم .

وبعد فلا أستطيع أن أتحدث عن انطباعاتى عن ملتقى الفكر الاسلامى فى وهران ، دون أن أنوه بأمر كان موضع الاعجاب والتقدير لدى جميـع المشتركين فى هذا الملتقى : ذلك هو الجهد الفائق الذى نهض به وزير التعليم الاصلى طوال أيـام الملتقى وبعد انتهائه ، بهمة لاتعرف الكلل ، وايمان راسخ بنبل الرسالة ، وأمل كبير فى مستقبـل الاسلام والعروبـة .

د . عثمان أمين
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

حضارة الاسلام انسانية شمولية

هذه اول مرة اشهد فيها اجتماعا تشرف عليه حكومة عربية اسلامية من اجل التخطيط لقضايا خطيرة في حياة امتنا في اطار الاسلام

لم يكن الامر امر احاديث عامة عن الاسلام والثقافة الاسلامية بل امر بحث جاد يرتكز على قواعد علمية يقصد فيه ان لا تنفلت وجوه التطور في حياتنا من قواعد الاسلام وضوابطه

ولكن الحديث لم يقتصر على الضوابط التي تضبط وتربط ، وتحدد وتقيد ، اذ أن ضبط ما هو وافد من الخارج ، لا يعدو أن يكون عملية تصفية وتنسيق وتوفيق لامور وافدة من الخارج ، غير منبثقة من الداخل . وهذه العملية على اهميتها لا تكون الا جزءا واحدا من عملية التطور التي تمر بها الامة ، في اطار متطلبات الحياة الحديثة ...

لذا ، كان لا بد من عملية أخرى أعمق وأوسع وأبعد خطرا في حياة الامة ، تلك هي الالتفات الى الاسلام في شكله الصادق الصافي لكي نشتق منه وسائل الارتقاء والتقدم حتى لانتأخر عن الركب الحضاري من جهة ، وحتى يكون التقدم الذي نحرزه محفوزا بدوافع الاسلام وتعاليمه ، وهي الدوافع والتعاليم التي صنعت للبشرية حضارة متميزة ...

وفكرة صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ، تصبح خالية من المحتوى اذا ما تحولت الى عبارة ترددها الافواه ، دون أن يوجد الانسان المسلم الذكي النقال ، الذي ينفذ الى أعماق العقيدة ومعطياتها ، فيخرج منها دائما بالجديد الذي يساير الزمن ، بل ويسبق الزمن دائما ...

والحضارة المنبثقة عن الاسلام ، كانت انسانية شمولية ، لا تنحصر في حدود الاقليم والعرق ، وهذا النوع من الحضارة ، هو الذي تحتاجه الانسانية في وقتنا الراهن ، لتكون الحضارة عامل توفيق وتجميع ما بين بني البشر ، بدلا من ان تكون عامل تفرقة وتمزيق ...

وحين اختارت وزارة التعليم الاصلي في الجزائر الشقيقة موضوعات تتصل اتصالا مباشرا بحياتها كأمة مسلمة ورثت عبئا ثقيلا من مخلفات الاستعمار ، وحين تكون هذه الموضوعات مرتبطة كذلك الى حد كبير بمشاكل المسلمين الحالية ، وبتساؤلات تدور على السنة الشباب المسلم بصورة خاصة ، فانها أضفت الصبغة الواقعية العملية على موضوعات البحث ، وخلصتها من الطابع القطري الاكاديمي الذي اصطبغت به بحوث الكثير من المؤتمرات في العالم الاسلامي.

ثم ان تجمع عدد من رجال الفكر الاسلامي في مكان من بلاد الاسلام بصورة منتظمة كل عام، مع ما يترتب على ذلك من لقاءات شخصية فيما بينهم ، يؤدي بصورة تلقائية الى تعميق الشعور بالانتماء الى الامة الواحدة ... وما اجمل ان يشعر المسلم أينما كان ، بأن همومه وتطلعاته ، غير منحصرة في اطار البقعة الجغرافية الصغيرة التي ينتمي اليها ، بل هي هموم الانسان المسلم، المرتبطة بحياة أمة الاسلام ، حيثما كان هناك مسلمون ، وغني عن البيان ، ان امتداد هذا الانتماء في دنيا الاسلام ليصبح شاملا جامعا ، له من الآثار العملية الشيء الكثير ، ولو بعد حين، في عصر تقاربت فيه الشعوب من أجل مصالح آنية تجمع فيما بينها ، فكيف بمجموعة من البشر ، تجمع فيما بينها وشائج العقيدة والحضارة والتاريخ ، وتهددها أخطار مشتركة الا يمكن دفعها الا بالتضامن والتكاتف وتوحيد الجهد ؟ !

وفي ختام هذه الكلمة القصيرة ، أرى انه لا بد أن تتوافر في الانسان المسلم الذي يسهم فكريا في هذه الملتقيات صفتان ، اولاهما أن يكون الاسلام بالنسبة اليه دعوى يحملها ، ورسالة يبلغها ، لا مجرد ثقافة يدرسها ، وثانيتهما أن يكون حظه من المعرفة أصيلا عميقا ، لكي يجمع في أي اسهام له ما بين حرارة الدعوة وعمق المعرفة ، ولن يغني أحد الامرين عن الآخر ، ولا ريب أن وزارة التعليم الاصلي مدركة لذلك واعية له ، أخذ الله بيدها لما فيه خير الاسلام ، وجزاها عمن يخلصون للاسلام خير جزاء .

د. محمود ابراهيم

استاذ بالجامعة الاردنية

توصيـــات :

الاســـلام ومشـاكل الاسـرة وتربيـة الجيـل فى عالـم اليـــوم

بما أن الشريعة الاسلامية تعتبر الاسرة الخلية الاساسية للحياة الاجتماعية وتربية النشء .

وبما أن نظام الاسرة فى البلـدان العربيـة والاسلامية يواجه أخطار التفكك والانحلال الذى يظهر بصفة خاصة فى سلوك الشباب . وذلـك بسبب أزمات ناشئة عن تطوره السريع من جهة وتسرب تيارات ثقافية وحضارية اجنبية لايتماشى بعضها مع الاسس الاصيلة لهذا النظام .

وبما أن وجود نظام متماسك للاسرة يمثـل القاعدة الاساسية والشرط الاول للانطـلاق فى بناء شخصيتنا الوطنية والحضارية المتميـزة والمتفتحة فى نفس الـوقت وبما ان الثقـافة والتوعية يجب أن تصل الى داخل هذه الاسـرة لقيامها بتربية اسلامية بناءة سوية فان الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقـد بمدينة وهران من 27 جمادى الاولى الى 9 جمادى الثانية 1391 هـ الموافق لـ 20 ـ 31 يوليو 1971 م يوصى بما يلى :

1 ـ وجوب تعليم المرأة حتى تتمـكن من القيام بمسؤولياتها فى تربية النشء والمشاركة الفعالة فى تطوير مجتمعاتنا النامية وذلك بايصال الثقافة الى داخل الاسرة بالوسائل الاعلاميـة المختلفة ومشاركة المرأة فى الحياة الثقافيـة داخل المساجد والمعاهد والندوات مع تشجيع المنشورات المتخصصة فى مشاكل التربيـة والاسرة .

2 ـ التأكيد على ضرورة توحيـد القوانـين الخاصة بالاسرة فى جميع البلاد الاسلامية لضبط انظمتنا وتشريعاتنا فى هذا الميدان طبقـا لمبادىء الاســلام .

3 ـ تشجيع الدراسات الاجتماعية والعلميـة الخاصة بالاسرة فى بلادنا العربية والاسلاميـة لأحصاء مشاكلها وفهم ظروفها واقتراح الحلول اللازمة لها .

4 ـ مقاومة كل التأثيرات والحركات الـتى تهدد كيان الاسرة الاسلامية سواء كانت ثقافية أو مادية أو اعلامية وتعبئة جميع الوســائل والامكانيات لتوعية المواطنين بهذه الاخطار .

5 ـ ابعاد النشء وخاصة البنت عن المدارس التبشيرية المنتشرة فى جميع البلاد العربيـة والاسلاميــة .

6 ـ العناية بالاسرة المسلمة خارج العـالم الاسلامى وخاصة فى اوروبا وامريكا بشمالهـا وجنوبها حيث تتعرض هذه الاسرة للذوبــان والامحــاء .

7 ـ لا نعارض تحديد النسل على مستـوى الافراد فى الحالات الضرورية وانما نعارضـه على مستوى الامة لان ظروف البلدان تختلـف ولاننا نرى أن هذه الحلول سلبية ويجب ايجاد المدارس ورياض الاطفال لا منع ايجاد الاطفال .

الاســـلام ومتطلبـات التنميــة في الاقتصــاد الحــديث

ان الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد في وهران من 27 جمادى الاولى الى 10 جمادى الثانيــة 1391 هـ الموافق 20 – 31 يوليو 1971 م .

استجابة لدعوة السيد وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية بالجزائر والذي شارك فيه عدد من العلماء والاساتذة لمختلف الجامعات الاسلامية .

وبعد الاستماع الى المحاضرات التي القاها كل من السادة :

عبدالسلام بلعيد
علال الفاسي
محمد المبارك
محمد بن البشير
محمد بن عبدالعزيز
عبدالمجيد مزيان

عن موضوع الاسلام ومتطلبات التنميـــة في العصر الحديث . وبعد الاستماع الى التدخـــلات والمناقشات التي وقعت في الموضوع كون لجنة من السادة المحاضرين التي اجتمعت وتدارست هـذا الموضوع فاستخلصت مشروع توصية نظر فيهـا المجلس وأقرها على الصيغة الآتية :

أولا : ان الاسلام فرض على معتنقيه العمـــل وجعله عنوان الكرامة الانسانية وبذلك استطاع المسلمون في عصورهم الزاهرة أن يبنوا حضارة روحية ومادية ومجتمعا ناميا قوامه العدالـــة الاجتماعية .

ثانيا : ان الاسلام مذهبا اقتصـــاديا متميزا وصالحا لكل زمان ومكان أساسه العدل والاحسان والتعادل في الحقوق والواجبات وعلى المسلمين في كل عصر أن يستمدوا من تعاليمه ومذهبه مـــا يساعدهم على مواصلة سير التنمية الاقتصاديـــة طبقا لمقتضيات التقنيات الحديثة وعلم الاقتصاد .

ثالثا : وفي حدود الاسلام يمكن للمسلمين أن يستفيدوا من كل ما استجد من وسائل تقـدم الانسان والتجـارب التي تقـــوم بهـــا مختلف الشعوب والحضارات .

رابعا : ويعتقد رجـــال الملتقى أن الهـــدف الاساسي لعملهم هو تحقيق تعادلية اقتصادية وأن واجب الدولة هو رفع مستويات المعيشة للمواطنين وأحداث تقارب بينها بتوزيع عادل للدخل القومي وتمكين المواطنين من الفرص المتكافاة وتحرير الفرد من جميع أنواع الاستغلال في الظلم وبالاخص من سيطرة رأس المال وان كل عمل يجب أن يكون في خدمة الجماهير الشعبية ومصلحة الامة .

خامسا : يعتبر الملتقى أن الشغل هـــو رأس الامة الاساسي وأنه واجب على جميع المواطنين وحق

من حقوقهم الاساسية أن للعامل الحق فى أجرة تتفق ومستوى المعيشة والانتاج وحاجة البــلاد الى توظيف الاموال .

سادسا : يرى وجوب الاهتمام بسكان القرى والمزارع باصلاح شؤونهم وحياتهم وأمتـاعهم . بجميع الحقوق التى يتمتع بها السكان الحضريون مع تحقيـق اصــلاح زراعى يهتم بتنظيم الملكية العقارية على أساس عادل كما يهتم بتجديد وسائل الانتاج واعطاء كل ناحية ما يناسبها .

سابعا : ويرى الملتقى أن من واجبات الدولـة التدخل فى الميدان الاقتصادى فى اطار التخطيطات العامة التى تؤمم أو تراقب بحسب المصلحـــة القطاعات الاقتصادية الحيوية كالقروض والتأمين والطاقة والنقل والمنـاجم والصناعـات الاساسية واحترام الملكية الخاصة والابتكار الفردى ما لـم يؤديا الى تجميد الاموال أو عرقلة نمو الانتاج أو تكونا سببا فى البطالة والكسل .

توسيع وتنمية نظـام التعاونيات الذى ييسر أسباب المبادلات ويخفض من الاثمان وذلك برفع الدخل القومى والقوة الشرائية للمواطنين كمـــا يمكن من تنظيم الامة داخل وحـدات اقتصـادية واجتماعية تنمى روح التضامن بين المواطنين »

ثامنا : يوصى الملتقى قـادة المسلمين وشعوبهم بالتعاون على اقامة نظام اقتصادى متفق مع مبادىء الاسلام وقواعد العدالة الاجتماعية .

بوضع أسس التعاون الاقتصادى بين الـــدول الاسلامية ليكون هذا التعاون عاملا فعالا عـــلى التنمية الاقتصادية التى هى أهم معركتنا ضــد الصهيونية والاستعمار ولتحقيق الرخاء ورفـــع المستوى العام للشعوب الاسلامية .

وأهم الخطوات لذلك :

1 – انشاء مجلس اقتصادى اسلامى مشترك تمثل فيه جميع الدول الاسلامية لتنسيق العلاقات الاقتصادية على أساس التكامل والتعاون .

2 – وضع مخطط مشترك يهدف الى تبـــادل الخبرات والمعونات وتشجيع التجارة والمبـــادلات الاقتصادية .

3 – يقوم هذا المجلس باعــداد المعــاهدات والاتفاقيات والتوصيات اللازمة للسير نحو وحدة اقتصادية اسلامية .

أ – باقامة سوق مشتركة .

ب – بازالة الحواجز الجمركية تدريجيا .

ج – بتسهيل استقبال الاشخاص والبضائع

د – بتشجيع المشروعات المشتركة بـــين الـــدول الاسلامية واستخدام رؤوس الامـــوال الاسلامية فى داخل العالم الاسلامى لفائدة الشعوب الصغيرة والبـــلدان المزدحمـــة بالسكان وانشاء مصارف مشتركة تقوم بذلك على أساس لا ربوى .

4 – انشاء بنك دولى اسلامى للانشاء والتنمية على أساس لا ربوى .

5 – تشجيع تبـــادل الخبرات الفنية ورؤوس الاموال الاسلامية .

6 – انشاء غرفة تجارية وصناعية مشتركـــة والتعاون فى الدراسات الاقتصادية ونشر المعلومات، والعناية بصفة خاصة بمباحث المذهب الاقتصادى فى الجامعات الاسلامية .

7 – تشجيع سياحة المسلمين للبلدان الاسلامية وتنظيم وسائلها والتعاون فى صناعتها .

8 – عقد مؤتمر دورى لوزراء الاقتصـــاد فى الدول الاسلامية والعمل على تأسيس جامعة علمية اسلامية كبرى لبعث الثقافة والفـــكر الاسلامى والعمل على توحيد الاتجاه العام للمسلمين .

وان الملتقى الاسلامى الذى لمس أعضاؤه الجهود التى تبذلها الحكومة والشعب الجـزائرى لاقامـــة مجتمع متعادل مبنى على أساس الشريعة الاسلامية وقواعد اشتراكية مؤمنة بناءة يحيى هذا الشعب النبيل وقادته الكرام وعلى رأسهم السيد هوارى بومدين رئيس مجلس الثورة الجزائرية .

ويعرب عن أمله الكبير فى أن تتبنى الحكومـة الجزائرية هذه المبادىء وتدعو اليها ليتحقق بذلك معنى هـــذا الملتقى الاسلامى وما يرمـز اليه من تضامن اسلامى متين .

اللغــة والثــورة الثقــافيــة

بما أن هدف الثورة الثقافية تصحيح الوضع الثقافي الراهن في الوطن العربي والاســلامي ، وصيانة التراث القومي واقامة حضارة أصلية .

وبما أن اللغة العربية من حيث كونها لغة القرآن الكريم تقوم بدور هــام في الثورة الثقافية على مستوى الوطن العربي من جهة ، وعلى مستوى العالم الاسلامي من جهة أخرى .

وبمــا أن اللغــة مكون أساسي من مكونات الشخصية والحضارة ، من حيث انها تجمع بــين الحفــاظ على التراث الاسلامي والاســتفادة من منجزات العصر .

وبما أن ضرورات التنمية والبحث العلمي في الاقطار النامية تستلزم التفتح على العالم الخارجي بمداومة الاطلاع على التراث العالمي .

وبما انه قد كان واضحا من البحوث التي القيت في الملتقى الخامس عن اللغة والثورة الثقافية أن اللغة العربية ، رغم الجهود التي بذلت حتى الان لتنميتها في البلاد العربية لا تزال دون ما يرجى لها أن تبلغه ، وأنها معرضة في بعض البــلاد الاسلامية لتخطيطات استعمار ثقافي هدفه ابعاد المسلمين عن مصادر ثقافتهم الاصيلة .

فان الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بمدينة وهران من 27 جمادى الاولى الى 9 جمادى الثانية 1391 هـ الموافق لـ 20 ـ 31 يوليو 1971 م :

اذ ينوه بالجهود المثمرة التي تبذلها الجزائــر الناهضة في ميدان التعريب ، واذ يحمد لوزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية مساعيها المتواصلة في تأكيد هذه المعاني في جميع المجالات ، يوصي بما يلي :

1 ـ تعبئة جميع الطاقات والامكانيات لمحــو الامية في أوساط الجماهير الشعبية .

2 ـ اتخاذ ما يلزم الاجراءات الكفيلة بجعــل اللغة العربية لغة الادارة في جميع المرافق الحكومية وغير الحكومية .

3 ـ القيام بتربية لغويــة منظمة على مستوى الفرد والاسرة والمجتمع وخلق جو يمكن العربية من أن تحتل المكانة اللائقة بها ، وذلك عن طريق وسائل النشر والاعلام المختلفة .

4 ـ جعل اللغة العربية لغة التعليم في جميع مراحله ، ودراسة تجربة جامعة دمشق في تدريس العلوم الطبيعية والطبية بالعربية والاستفادة منها في امكان تعميمها في سائر الجامعات العربية .

5 ـ بذل الجهود لتيسير نشر الكتب والصحف والمجلات العربية على أوسع نطاق ، والقضاء على جميع المعوقات التي تحول دون تداولها في جميع الاقطار العربية والاسلامية .

6 ـ الحرص على كتابة الرسائل الجامعية عموما باللغة العربية والتوصية بان يكون لجامعاتنا الاشراف الفعلي على الرسائل المتصلة بالدراســات ذات الطابع العربي والاسلامي والعدول فورا عن الخطة المتبعة حتى الان من ترك الهيمنة على تاريخنــا وثقافتنا للجامعات الاجنبية بدعــوى انها أكثـر تخصصا وموضوعية .

7 ـ التعاون مع الجامعات العربية والمجامــع العلمية لوضع معاجم تفي بالمصطلحات الحديثة في جميع فروع المعرفة الانسانية لتكون مراجــع معتمدة موحدة ، والعمل على اعادة طبع ما نفــد من المعاجم الموجودة وجعلها في متناول الباحثين.

8 ـ منع جميع انواع النشاط البشري الذي تقوم به المؤسسات الاجنبية تحت ستــــار الاعمال الخيــرية .

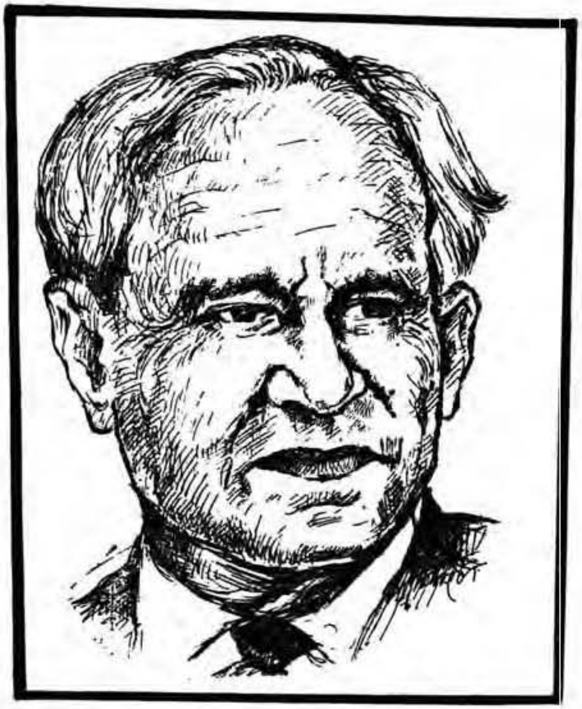
9 ـ تنظيم دورات لغوية ثقافية في البــلاد العربية من أجل التمكــن من اللسان العــربي والتعرف على الحضارة الاسلامية ، مع استخدام أحدث الوسائل في تعلم اللغات .

مع

التيارات

الفكرية

العالمية



آخر حديث للفيلسوف

ماركيوز

اجرى هاريمان شيلر ، مدير مجلة دويتشه شبيجل الالمانية حديثا مع الفيلسوف هربرت ماركيوز ، كان هو آخر حديث أدلى به الفيلسوف قبل وفاته مباشرة ، ومجلة «الاصالة» تقدم نص هذا الحديث :

ـ هل مازلت عند الرأى القائل بوجود بروليتاريا جديدة فى المجتمعات المتقدمة مخالفة (لبروليتارية) كارل ماركس ؟

ليس هناك شك فى ان الدول المتخلفة تعانى مشكلتين رئيسيتين هما :

1 ـ التربص او الهجوم الاستعمارى بواسطة الاستعمار المباشر او الانقلابات التى تؤدى الى استبدال النظم الوطنية بنظم تتيح للاستعمار القديم او الجديد ان يستمرا فى حرمان الدول المتخلفة من ثرواتها وان يوقف تقدمها .

2 ـ قضية التخلف الراهن علميا واقتصاديا واجتماعيا وحضاريا . بل قضية استمرار هذا التخلف (بسرعة المتوالية الهندسية لا بسرعة حسابية) اذا ما قورن هذا التخلف بالتقدم العلمى والحضارى فى الدول المتقدمة

ـ أعتقد أنك تستند الى بعض المصطلحات التى كنت استخدمها فى كتاباتى القديمة عن البروليتاريا الجديدة . واعترف أن هذا التعبير لم يكن موفقا ولكن قصدت منه تأكيد أن البروليتاريا الماركسية اهتز مكانها اليوم بعد ان تغيرت طبقة العمال مع تغير ظروف المجتمع الرأسمالى المتخلف . فالاحصائيات تؤكد اليوم ارتفاع أعداد المهندسين والفنيين والعلماء نتيجة للتقدم التكنولوجى وأصبح التساؤل اليوم عن تكوين الطبقة العاملة . . ولا بد من تغيير موقف العامل «بأنه من يملك فقط قوة عمله» . . . فالمهندس يملك قوة عمله مثل العامل اليدوى تماما . . ومع ذلك فمصلحته مع صاحب العمل ورأس المال أكبر من مصلحته مع العامل بالمعنى التقليدى . . لذلك فاختلاف ظروف المجتمع الرأسمالى نتيجة للتقدم التكنولوجى لابد وان يصاحبه تغاير فى التعريفات وتقسيمات الطبقات الاجتماعية .

ـ هل يعنى هذا ان الطبقة العاملة يمكن أن تدخل فى اطار برجوازى ؟

ـ أعتقد من الافضل ان يكون السؤال : هل يمكن أن تصبح الطبقة العاملة «برجوازية» ؟ ! والاجابة « بنعم » خصوصا فى الولايات المتحدة وكذلك فى ألمانيا الغربية .. ثم تكون بدرجة احتمال أقل فى فرنسا .. واقل بكثير فى ايطاليا .. فالتحول الكلى .. العميق .. الذى أصاب الطبقة العاملة نفسها يبدو واضحا وخاصة فى الاتجاه المضاد للاتجاه البروليتارى وذلك لان العامل الصناعى فى أمريكا ـ مثلا ـ يحصل الآن على امكانيات تفوق حاجاته الضرورية (فيما عدا الزنوج بالطبع) .. وهذا هو الاتجاه السلبى فى الحركة العمالية . أما الاتجاه الايجابى فيتمثل فى الوعى بتناقضات الراسمالية وشرورها .. وهو أمر يمكن استثماره لصالح الثورة .. وهذا الاتجاه الايجابى يسفر عن قوة متطرفة ضد النظام البرجوازى بأكمله .

ـ لو عدنا لحركة الشباب وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية .. فهل ترى فى هذه الحركة .. وهذه الاحتياجات الجديدة فى الحركة التى يتزعمها اليسار من الطلبة بدايات للانسان الجديد ؟ !

ـ نعم .. أرى البداية فيها .. لقد حاولنا وضعها فى كتابى « دراسة عن التحرير » ولكننى أحب أن أشير الى شىء يؤكد ظهور قيم جديدة فى الحركة الاجتماعية وانا على علم تام بأنى بذلك سأعرض نفسى بحماس للسخرية .

ينبغى لنا أن نتعود على مناقشة فكرة لا يمكن تصورها بالفعل من اليسار القديم وهى أن الثورة فى الدول المتقدمة صناعيا وان أتت على الاطلاق فانها على الارجح لن تأتى نتيجة للفقر والبؤس.. لان هذه البلاد غنية بتقدمها ومن الصعب الآن التعبير عن احتمالات المستقبل .

ـ هل ترى أن تشكيلات اليسار الجديد وتنظيماته قادرة على تغيير المجتمع البرجوازى ؟

ـ هذا السؤال لا يمكن الجواب عليه الا على أساس الارتباط التام بالتطبيق الفعلى .. وعلى العموم لا يمكن القول بانه يجب على اليسار الجديد أن يجد أنظمة تناسب أشكال التنظيم والتركيب الرأسمالى الجديد .. وتناقضه .. وعلى كل حال لقد اتضح ان الاشكال التقليدية للنقابات والاحزاب الشعبية والتى تتصف بالمركزية

المطلقة الى حد كبير أو قليل قد أصبحت عتيقة بالنسبة للعالم الرأسمالى .

ـ لقد قيل عنك ـ استاذ ماركيوز ـ انك تفصل بين الحركة الطلابية والحـــركة العمالية ، فما مدى صحة هذا الكلام ؟

ـ هراء .. لان هذا يعنى اننى أستطيـع أن أفصل كل ما هو متصل فى الواقع الاجتماعى .. ولا أعتقد بأى حال ان التأكيد على دور الحركـة الطلابية يمثل الاستهانة بقوة النظام الراسمالى . بالعكس وأكرر ان النظام ليس فى وضع ثورى فالمهمة تتمثل فى هذه الحالة فى الاستعـداد . . أى فى الانطلاق الواعى .. لا مما يحدث للطبقة العاملة فقط .. بل ما يحدث لجميع الطبقـــات الشعبية باستثناء الحكام .

أما بالنسبة لانفصال الحركة الطلابية عـــن الحركة العمالية فهناك السؤال المضاد : **ايـة حركـة عمالية ؟** فى أمريكا لا توجد على الاطلاق حركة عمالية سياسية بالمعنى الثورى .

ـ اخيرا .. ما هو موقع حركة الزنوج فى امريكا من خريطة اليسار الجديد هناك ؟

ـ السود والملونون مازالوا حتى هذه الساعة يتعرضون للاضطهاد اليومى .. فالسخرة مازالت مستمرة فى امريكا والحركة السوداء هناك والتى يطلقون عليها (الفهود السوداء) هى جزء من حركة اليسار الجـديد والتى يأخذ الاتجاه التقـــدمى بالرغم من كل المحـاولات المضـادة لتخـريبها وتشويه صورتها .

ولن أكون قد قلت لك سرا يا صديقى من ان المراة الامريكية البيضاء مازالت تابعة للرجال.. ومازالت هناك فروق شاسعة بينها وبين الرجل.. وتعامل كمخلوق زنجى اعلى مرتبة من الزنـجى العادى .. زنجى من الدرجة الاولى يعنى .. لذلك فانا اعتبرها احدى القوى الثورية الهامة بعـد الطلاب للتخلص من هذا المجتمع البغيض .